البداية والنهاية

الإمام الحافظ

المفسر المحدث الفقيه المؤرخ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي

الشهير بابن كثير

(701 - 774) هـ

طبعة مضبوطة، موزعة الفقرات، مخرجة الأحاديث والنصوص، مصنوعة وموضوعة بأشياء لم تذكر في السابق مقابلة على عدة من النسخ المطبوعة، مفهرسة الآيات والأحاديث والتراجم والموضوعات.

اعتنى به

حسان عبد المنان

بيت الأفكار الدولية

البداية والنهاية

الإمام الحافظ المفسر المحدث الفقيه المؤرخ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي

الشهير بابن كثير

(701 - 774) هـ

طبعة مضبوطة، موزعة الفقرات، مخرجة الأحاديث والنصوص، معنونة وواضحة بأشياء لم تذكر في السابق مقابلة على عدد من النسخ المطبوعة، مفهرسة الآيات والأحاديث والتراجم والموضوعات

الجزء الأول

اعتنى به

حسان عبد المنان

بيت الأفكار الدولية

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة
All Copyrights © Reserved

سجلت حقوق هذا الكتاب لشركة بيت الأفكار الدولية، طبع هذا الكتاب عام 2004 في لبنان، لا يجوز نشر أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي وجه سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو بغير ذلك دون الحصول على إذن خطي من الناشر، وإن عدم التزام ذلك تحت طائلة المسؤولية القانونية والجزائية.

● الأردن

هاتف 0201 566 6 962+
فاكس 0209 566 6 962+
ص.ب 927435 عمان 11190 الأردن

● السعودية

هاتف 2555 404 1 966+
فاكس 4238 403 1 966+
ص.ب 220705 الرياض 11311 السعودية

المؤتمن للتوزيع

هاتف 5423 243 1 966+
فاكس 5421 243 1 966+
ص.ب 69786 الرياض 11557 السعودية

فروع المؤتمن

السعودية

مكة المكرمة 02 5742532
المدينة المنورة 04 8344355
جدة 02 6873547
الدمام 03 8264282
القصيم 06 3260350
أبها 07 2296615

الأمارات العربية المتحدة

هاتف 8455 574 6 971+
فاكس 8466 574 6 971+
ص.ب 32920 الشارقة

www.afkar.ws
e-mail:ideashome@afkar.ws

مقدمة الطبعة

إن الحمد للّه نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللّه من شرور أنفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالنا، مَنْ يهدِهِ اللّه فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له.

وأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللّه وحدَه لا شريكَ لـهُ، وأشهَدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا، اتَّقُوا اللّه حَقَّ تُقاتِه، ولا تَموتُنَّ إلاَّ وأنتُم مسلمون﴾.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا، اتّقوا ربَّكم الذي خَلَقَكُم من نفسٍ واحدةٍ وخَلَقَ منها زوجَها وبَثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا اللّه الذي تساءلونَ به والأرحامَ، إنَّ اللّه كانَ عليكُم رقيباً﴾.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا اللّه وقولوا قولاً سديداً يُصْلِحْ لكم أعمالَكُم ويغفِرْ لكم ذنوبَكُم ومَنْ يُطِعِ اللّه ورسولَه فقد فازَ فوزاً عظيماً﴾.

أمّا بعدُ:

فإنَّ علمَ التاريخ دُوِّنَ قديماً من القرن الثاني، موزَّعاً ومجموعاً، ولم ينتظم في نقدٍ واضحٍ عند مَنْ كتبَ من المتقدمين، كما لم ينتظم علم الحديث والرواية بقواعد واضحة قبلَ مجيء النقاد من مثلِ البخاري وأبي حاتم في آخرين. ونُلاحظُ أنَّ السرعةَ كانت أكبر في تنظيم قواعد الحديث ومعرفة ما صحَّ وضَعُفَ، ولم يكن لغيره مثل هذه الأهمية ككتب التاريخ واللغة ونحوهمامن التي اعتنت بالأسانيد في ذكرِ أخبارها وأشعارها. والسببُ في ذلك هو أنَّ علمَ الحديث علمٌ يقومُ عليه الشريعةُ من حلالٍ أو حرامٍ، فلا يمكن أن يبقى هَمَلاً دونَ أن تصنَعَ فيه يد بشرية وعقلٌ واعٍ في توضيحِ معالم عليها ينتظمُ البشرُ، ولم يكن هذا واضحاً في التاريخ واللغة والتفسير، فتأخّرَ التعاملُ معَها، وانتشَرَ بعدُ إعادةُ صياغة كتابتها بطريق علمية عندهم، وصارَ فيها التقديسُ لقدمِ المادةِ، لا أنَّ المادة في ذاتها صحيحة.

ومعَ بعد الشّقةِ بين الأحداثِ وزمانِنا هذا صارَ هناك كثيرٌ من الحواجز والموانع حالت دونَ تحقيق كثير من الأمور إلاَّ بقواعد أقلّ تقريباً مما لو كان ذلك في السابقِ. ولكن يمكنُ عملُ شيءٍ ما من تحقيق التاريخ واللغة، مع الاحتمالِ للخطأ بين الحين والآخر لعدم الإمكان من التثبت من الأحداثِ من خلالِ الإسناد والسياقِ نفسِه.

ونحنُ إذا نظرنا في كتاب الطبري الذي يُعَدُّ عمدةً في الموسوعيةِ والإحالة إلى الأسانيد التي ذكرها لم نجد فيها تمييزاً بين ما صحَّ وضَعُفَ، وكذا جاء ابن الأثير فأهمل مصادره ونقوله وصاغ التاريخ بطريقةٍ تستميلُ القارئ لسهولةِ عباراتِه، واستطرادِه. وكذا ابن خلدون أهملَ مصادرَه واكتفى في تقديمه لهذا التاريخ أنه حاوَلَ الإجادةَ فيه. فلم نستفد من تاريخه غير مقدمته وغير الحقبة التي كان شاهداً فيها.

أمَّا هذا الكتابُ فكان الكتاب الأولَ الذي حاوَلَ أن يكون موضوعياً في نقوله وعباراته ونقداتِه، وامتازَ على غيرِهِ بالكثير، في حين امتازَ الآخرونَ عليه بأقلَّ من ذلك. ويمكن تفصيلُ ميزاته في تاريخه بالآتي:

١ - أنَّه أفادَ من علمه في الحديث والرواية، فحاوَلَ الحكم على كثيرٍ من الرواياتِ بانقطاعٍ وضعفٍ وصحةٍ، وهذا مما لم يكن في كتب التاريخ الأخرى، وأخصُّ من هذا بالذكرِ أكثرَ فترة السيرة النبوية والخلفاء الراشدين.

٢ - وقد نقلَ في الحديث عن بداية الخلقِ وقصص الأنبياء والسابقين كثيراً من المنقول عن بني اسرائيل، منبهاً في مقدمةِ كتابِه أنَّه لم يذكُرها إلاَّ للاعتبار، إذْ قد تصحُّ وقد

تُكَذَّبُ، وذلك بعد أن استبعد قسمين آخرين من الإسرائيليات، القسم المصدَّق وهذا يُغني عنه غيرُه من نصوص الآيات والأحاديث النبوية، والقسم المكذَّب، وهذا لا حاجةَ لنا به.

وقد نَبَّهَ عند بعض الأحاديث المرفوعة أنَّها إسرائيليات، مرجحاً ذلك من الإسناد والمتن، كما فعل في قصة خلق التربة يوم السبت، وقصة الفُتون.

٣- ويمتازُ ابنُ كثير أيضاً بتوثيق النصوص من أصحابها، فهو حينما يوردُ الأحاديث والآثار ينقل ذلك بإسنادِه إلى صاحب الكتاب الحديثي أو التاريخي، وقد استفدنا من هذا الإيراد أنه جاءَ ببعض الأخبار التي لم تصل إلينا مسندةً من الكتاب الأصل، لفقدانه أو أنه لم يُطبع.

وهذا التوثيقُ وهذه الإحالةُ امتازَ بها ابن كثير عن المؤرخين، فابن الأثير وابن خلدون والمسعودي ونحوهم لم يذكروا مصادرَ نقولِهم، وإن ذكروا فبالكاد مصادر معدودة نادراً.

وكذا الطبري إنما اعتمدَ على أسانيده وهي معدودة كما نبهنا عليها في مقدمة كتابه، إذْ على نحوِ عشرة أسانيد يقومُ معظمُ الكتاب، ولم نجد فيه ذاك التنويع في المصادر كما فعل ابن كثير، لذا نجدُ لأحد الكتابين ميزة لا نجدها في الآخر، معَ الاعترافِ بأصالةِ الطبري في روايته، وتبعية ابن كثير في النقل.

٤- وامتازَ أيضاً بأنه أورَدَ جُملةَ موسوعاتٍ في كتابه قد تُعَدُّ في خارجِ التاريخ، كما فعل في شمائل النبي ﷺ، ودلائل نبوته، وأشراط الساعة ونحوها.

٥- وامتازَ أيضاً بالإفادة من كبار المؤرخين فنقلَ عنهم الكثير، كما فعل في أبي شامة، والذهبي، والبرزالي، فقد نقل عنهم الكثير منسوباً إليهم.

٦- وعمل بطريقة الذهبي رحمه اللّه في إيراده السنة لبيان أحداثها ووقائعها، ثم يذكر التراجمَ لمن توفي في هذه السنة مستقياً أكثر ذلك من كتاب «تاريخ الإسلام» للذهبي. ويتركُ منهم غيرَ المشتهرين.

وأحالَ كثيراً من التراجم في القرنين الأولين وبعد ذلك بقليل إلى كتابٍ آخرَ له في الرجال، جمعَ فيه الكثير من الرواة في الأسانيد، وسيأتي ذكره في مؤلفاته.

٧- وامتازَ أيضاً بذكرِ نحو خمسين سنة من الوقائع التي كانَ شاهداً عليها، لا سيَّما أخبار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ومحبيه.

ميزة الطبعة:

١- قوبلت الطبعةُ على ثلاثِ نُسخٍ مطبوعةٍ، كانَ أفضلَها طبعة الدكتور التركي، وأتممتُ هذه النسخةَ من مجموعِ النسخِ المذكورة، لأني وجدتُ في كلٍّ منها نصوصاً لم أجدها في الأخرى. فخرجت هذه الطبعةُ تامَّةً إذا وجدتُ الزيادةَ متسقةً مع النصّ والسياق، أما إذا كانت الزيادة واضحةً من الناسخ فإني لم أعتبرها إلاَّ إذا كانَ هناك فائدة من ذكرها مع التنبيه.

٢- خرَّجت النصوص والأحاديث، واستُفيد أكثرُ ذلك من النسخ التي اعتمدتُ عليها

٣- جاءَ الكتابُ متتابعاً، وأحياناً يُذكرُ فيه كتاب كذا وكذا، ولم يكن واضحاً في بعض المواضع، فآثرتُ أن أقسمه تقسيماً يُفهم الكتابَ، وجعلتُ ذلك واضحاً في الترويسة، وهذه التقسيماتُ هي.

(بدء الخلق، قصص الأنبياء، أخبار الماضين، أخبار العرب، سيرة رسول اللّه ﷺ، زوجات النبي وخواصُّه، شمائل النبي ﷺ، دلائل النبوة، التاريخ على السنوات من سنة ١١).

٤-كانَ في الأصل عناوين غير واضحة مثل (فصل)، وأخبارٌ كثيرةٌ غير مُعنونة، وتداخل في العناوين، وعناوين فرعية كانَ يجبُ أن تكونَ أساساً، والعكس.. مما جَعَلَ

تقسيم الكتاب وعناوينه غير متناسقة وغير مفهومة الترابط، فتصرفت فيها وحذفتُ بعضاً وزدتُ آخرَ ليتناسقَ الكتابُ، وسيشعرُ بحسنِ ذلك الصنيع من اطلعَ على طبيعةِ النسخ المطبوعة الأخرى، وسيجدُ الجهد المبذولَ في الكتابِ.

وأكثر العناوين التي زدتها وبينتها كانت من بداية الكتاب إلى نهاية كتاب دلائل النبوة، فأكثر ذلك من العناوين متصرّفٌ بها، وقد وضعت لها أرقاماً متسلسلة في كلِّ كتاب منها، ووضعت رقم السنة عند كل حدث من السنوات(١-١١).

أمّا بعد ذلك فإنما هي عناوين الكتاب إلا ما جعلت بين قوسين في التراجم فهو زيادة أو أشياء يسيرة جداً في العنوان.

وقد اضطررت أحياناً أن أجعل بعض النص عنواناً، ولاسيما في الوفيات.

٥- فصّلتُ فقراتِ الكتاب ووزعتُه توزيعاً يوضحُ للقارئ معالمَهُ، فوَضَحَ فيه كل قولٍ وتخريجٍ وترجمةٍ وحدثٍ وتعليقٍ ونحوها. في حين أنَّ النسخ جميعاً لم يأتِ فيها هذا التفصيل، نعم جاءَ بعضُ ذلك، ولم يُفصل جلُّ الكتابِ فيها، مما جعلَ عُسراً في متابعة النصّ إلاَّ بقراءةٍ كاملة للموضوعِ.

٦- وضحتُ التراجم بطريقة تسهلُ على الباحثِ البحثَ عنها، وجعلتُ ذلك بحرفٍ مميّزٍ وأمامَه مربَّعٌ أسودُ، للفتِ النظر إليه مباشرةً، وجعلتُ ذلك المربعَ أمام الاسم مباشرةٍ أو الشهرة دون الكنية أو اللقب إذا كانا تابعين للاسم، ولم يكونا مشهورين.

٧-ترجمتُ للإمامِ ابن كثير ترجمة مطولة مستقصياً ذلك من خلالِ كتابِه وما كُتب عنه.

٨- اعتنيتُ بالإخراج الفني للكتابِ من حيثُ الترويسةُ والتوزيعُ والطباعة.

٩- ألحقتُ به مجموعة من الفهارس:

فهرساً للآيات وفهرساً للأحاديث والآثار، كلاهما معزوٌّ إلى أرقام الصفحات.

وفهرساً للأعلام المترجمين عزوتُ مواضعها للسنة التي جاءت الترجمة فيها، وذلك لإفادة كثيرٍ من الباحثين عن التراجم من أجل معرفة سنة الوفاة، ونلاحظ أن اضطراباً وقع عند ابن كثير في الوفيات لأمرين،

الأول: وهم في بعض التراجم فكان يذكر الترجمة في موضع ويخطئ حين النقل فيضعه في موضع آخر، أو يكون نقل ذلك خطأ من مصدر وقع فيه الناسخ بالخطأ، وذلك كسيبويه، فإنه أورده في وفيات سنة (١٨٠)، ثم أورده سنة (٢٨٠).

الأمر الثاني: أنّ هناك خلافاً في تعيين سنة الوفاة، فكان مرّة يذكره هنا ومرة هناك.

وفهرسا للموضوعات بما فيه من عموم وتفصيل.

١٠- أمّا كتابُ «النهايةُ» المتعلق بأشراط الساعة فقد كنا عازمين أن نضعَه في هذه الطبعة، ولكن أرجأنا ذلك ليكونَ في مجلدٍ وحدَه فيما بعدُ إن شاء اللّه تعالى، لأمورٍ: منها أن لا يكبرَ حجم الكتاب، ولأنَّ موضوعَه خارج عن التاريخ، ولأنَّ طالبه يقتضيه منفرداً أكثر من أن يكون مجموعاً إلى غيره.

وأسأل اللّه تعالى أن يكون هذا الكتابُ مخدوماً بما نَرَى، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

حسان عبد المنان

١٧/ربيع الثاني/ ١٤٢٥

٧/ حزيران/ ٢٠٠٤

ترجمة الحافظ ابن كثير

تمهيد:

لم تكنْ تلكَ الحقبةُ من الزمنِ طبيعيّةً، وكان الناسُ في شدّةٍ من أمرهم بسببِ اجتياحِ التتارِ لَهُم وانقضاضِ الفرنج عليهم تارةً وظهورِ الخلافِ الشديد بين الأمراءِ والسلاطين تارةً أخرى، حتى كانَ يُغيِّرُ العشراتُ منهم في فترةٍ وجيزة تَتْبَعُ تأثُراً سياسيّاً واضحاً في البلاد.

ولكنَّ الشامَ وما حولها من أهمِّ البِقاعِ التي عليها الأعينُ، ولكونها قلبَ العالم، تَسَلَّطَ عليها الناهبونَ من كُلِّ مكانٍ، فكم من آلافٍ شُرِّدُوا، وأكثرُ منهم قُتلوا، وأكثرُ منهم قِيدوا للعبوديةِ، وجمعٌ كبيرٌ يشهَدُ التاريخُ أنّهم لم يجدوا ما يأكلون، فماتوا جوعاً.

ولا شَكَّ أنَّ مثلَ هذه الانشغالاتِ إذا دَبَّتْ في أُمّةٍ أصابَتْها بإعياءٍ وتخلُّفٍ عن الواقع، وعدمِ كبيرِ التفاتٍ إلى ما يَحلُّ بهم، وقد كانت الفرصة للتفكير آنذاك أقلَّ من أن تُستغلَّ في جمعٍ من الأحداث كبيرٍ، لا تَسْمَحُ معَه النظراتُ والاعتقاداتُ إلى مصيرِ الأُممِ.

أهلكتهمُ أراجيفُ التتار الذين أبادوا مئاتِ الآلاف دونَ حسابٍ، وتعرَّضَ جميعُ الناسِ للفناءِ والجوعِ والقحطِ والفيضانات...في تلك الأثناء تَسَلَّمَ قازان بنُ أرغون ملكاً على التتارِ، وأقنعَه نائبه بالإسلامِ، فدخل فيه وتلفَّظَ بالشهادتين، وفشا الإسلامُ فيهم، وكان سنة (٦٩٤).

ولم يكن هذا مانعاً بعدُ من مزاولة أعمالهم في النَّهبِ والدَّمار، ففي سنة (٦٩٩هـ) عَلِمَ قازان بقتلِ صاحب مصرَ ونائبِهِ واضطراب الأمور، فأقبلَ في جيشٍ عظيم قاصداً الشام، فانتصر عليهم ودَخَلَ دمشقَ. وشرعوا في المصادرةِ والعَسف، ونهبوا الصالحيةَ، وسبوا أهلها، وأتعَبوا الخلقَ... وجرَّت الأحداثُ إلى حرقِ جامع العُقيبة، ودارِ السعادة، ودارِ الحَديثِ، والعادليةِ، والنُّوريةِ... وخربت تلك الناحيةُ كلُّها، وهرب أهلُها.

ثمَّ أذِنَ قازانُ - وكانَ نازلاً بالمَرْجِ - لجيشه في نهب دمشق، وباتَ الخلقُ في ليلة اللّه بها عليمٌ، إلى أن أمَرَ بالكَفِّ عنهم، وحَمَلَ التتارُ المكاسبَ والغنائمَ، ورحلوا من دمشق، وجعلوا قبجق نائبهم بدمشق ومعهُ السِّلحدارُ.

ثم رجعَ السلطانُ محمدُ بن قَلاوون المهزومُ أمامَ التتارِ، فأرسلَ جَيشَه مَعَ سَلاَّر، فَدَخلَ في خدمته قُبجُقُ، ويكتمر السلحدار وألبكى، فصفَحَ عنهم السلطانُ.

وفي سنة (٧٠٠) كَثُرت الأراجيفُ بمجيءِ التتار، وانجفلَ الناسُ واشتَدَّ الأمر، ووصَلَ السلطان العَريشَ، ووصَلَ قازان إلى حلبَ، والناسُ في حال لا يعلمُها إلا اللّه، فنادوا: مَنْ قَدَرَ على السفر فليُبادر... وهكذا في سلسلةٍ من المآسي والأضاحي، تناوَلَت الناسَ من كُلِّ جانب، يطولُ شرحُها وبيانُها، ولكن يمكنُ أن نُلَخِّصَ أحداثَ ذاك القرن بجملةِ أمورٍ:

١ - اجتياحُ التتار، وتعاون الفرنج على إزالة معالمِ الدولةِ الإسلامية، وتحطيم رمزِ الخلافة ووَحْدةِ البلاد، ولم يتغير كبيرُ شيءٍ عند التتار بإسلامهم، بل كانوا كغيرهم يقاتلونَ ملوك الروم حيناً، ويُحالفونَهم حيناً آخر في وجهِ الدولة المملوكية، ثم يتبادلون الهدايا.

٢ - متابعةُ تطهيرِ البلادِ من آثار الحملاتِ الصليبية، فحرَّرَ الظاهرُ بيبرس قيسارية، وأرسوفَ، ويافا، والشقيفَ، وأنطاكيةَ، وطبريةَ، والقصيرَ، وحصن الأكرادِ، وحصنَ عكّا، وصافيا... وناصفَهم على المرقبِ، وبانياسَ، وبلادِ انطرسوسَ، كما حرَّرَ سيفُ الدين قلاوون مدينةَ طرابلسَ. وحرَّرَ الأشرف خليلُ بن قلاوون عكا، كما سُلِّمت صور وصيدا قيادتُهما إلى الأشرف، فتحرَّرَ الساحلُ بالجملةِ من الفِرنْجِ.

٣ - نهايةُ التتار عام (٧٣٦هـ) بموتِ ملكِهم خربندا بنِ أرْغونَ، فاختلفوا من بعدِهِ، وتفرقوا شَذَرَ مَذَرَ، ويصفُ ابنُ كثير بأنه كانَ من خيارِ ملوك التتار وأحسنهم طريقةً، وأثبتِهم على السُّنَّةِ، وأقومهم بها. وقَدْ عَزَّ أهلُ السنةِ بزمانِه، وذلَّت الرافضةُ بخلافِ دولةِ أبيه.

٤ - قامَت أحلافٌ بين المسلمين بسببِ نزاعاتهم تَمَّتْ على الشكلِ الآتي:

الحلف الأول: الفرنج والصالحُ إسماعيلُ صاحب دمشق، والناصرُ داودُ صاحب الكَرَكِ، والمنصورُ صاحبُ حمص. وضَمَّ الحلفُ الثاني: الخُوارَزْميةَ والصالح أيوبَ صاحبَ مصر. ودارت الدائرةُ على الفِرنجِ وحلفائهم من المسلمين.

وفي فترةٍ ثانية انقَلَبتِ التحالفاتُ، فضَمَّ الحلفُ الأولُ: الفِرنجَ

والجيشَ المصري. وضَمَّ الخليفُ الثاني: صاحبَ الشام، والخليفةَ العباسي في بغدادَ. فأرسلَ الخليفةُ نجم الدين البادرائي بينَ صاحب مصر وصاحب الشام، وأصلحَ بينَ الجيشين، وكانت الحربُ قد اشتدَّت بَينهُم، وقد مالأَ الجيشُ المصريُّ الفرنجَ ووعَدَهم أن يُسَلِّمَ إليهم بيتَ المقدسِ إنْ نصروهم على الشاميِّينَ.

٥- كثرةُ الفتنِ والمِحنِ بين المسلمين أنفُسِهم بسببِ اختلافِ مدارسِهم الفقهية، والعقيدية، فنجدُ أنَّ الوُشاة والحُسَّاد يكثُرُ نشاطُهم للإيقاعِ ببعضِ الأئمةِ، لحيازة المناصبِ عندَ الدولةِ، وإبقاء التلاميذ في جانبِهم، وقد أوردَ ابن كثير من هذا كثيراً من الأمثلةِ في كتابِه «البداية والنهاية»...

٦- حدوثُ بعضِ الزلازل والكوارثِ الطبيعية من فيضانات وسيول... فزادت النكباتُ أُخرى...

وهذا كلُّه سَبَّبَ ضَعْفا في التجارةِ، وغَلاءً في الأسعار، وتدنِّياً في المعيشةِ... على خلافِ هذه الأوضاع في قصورِ السلاطين.

في خِضَمِّ هذه الأجواء وُلِدَ مترجَمُنا، يعاني أحوالاً سادَتْ قبلَه، ومصايبَ حَلَّت في زمنِه... رحمهُ اللّه وأئمةَ عصرِه رحمةً واسعةً[١].

اسمُه ونسبُه:

هو الإمام الحافظ إسماعيلُ بنُ عمرَ بنِ كثيرِ بن ضَوْء بن كَثير بن زَرع البُصْرَويُّ، القرشيُّ، الدمشقيُّ، الشافعيُّ، الفقيهُ المُفَسِّرُ المؤرِّخ المحدِّثُ، عمادُ الدين ابنُ الخطيبِ، شِهاب الدين، المعروفُ بابنِ كَثير.

وقَد ينسب إلى جدِّه، فيقال: إسماعيلُ بن كَثير[٢]. وقالَ النُّعيمي بعد «ابن كثير» الأولى: ابن عَنوَنَى[٣]. وزادَ ابن ناصر، وابنُ قاضي شُهبةَ، والداووديُّ، وابنُ كثير بعد «ابن كثير» الأخيرة: ابن ضَوْء[٤].

ولم يذكر النُّعَيْميُّ: «ابن كثير» الأخيرة[٥]. واختلفوا في «زَرع»، ففي مطبوعاتِ ابن ناصر، وابن قاضي شُهبةَ: «ذرع»[٦]. وفي مطبوعة «البداية»، و «طبقات المفسرين»: «درع»[٧].

وزاد الحُسَيني، والداووديُّ، وابنُ ناصر: «أبو الفداء»، وهو كذلك في مقدمة «اختصار علوم الحديث» للمؤلف[٨]. وزادَ ابنُ حجر: «القيسيّ»[٩]. وزاد الفاسيُّ: «الأُمويُّ»[١٠].

وُلِدَ في قريةٍ شرقيَّ بُصرى، تُدعى «مجدل»[١١]، سنةَ إحدى وسبعِ مئةٍ.

وقالَ ابنُ العماد: سنة سبع مئة[١٢]. وقال الذهبيُّ: وُلِدَ بعدَ السبعِ مئةٍ أو فيها[١٣].

سببُ تسميته:

كانَ والدُه قد تزوَّجَ من والِدة المترجَم، ومِن أخرى قبلَها أنجبت إسماعيلَ -وهو أكبرهم- ثم يونُس وإدريسَ، وأنجَبت والدةُ ابن كثير: عبدَ الوهاب، وعبدَ العزيز، ومحمداً، وأخواتٍ عدةً، ثم المترجَم وهو أصغرُهم.

قال ابنُ كثير: وسُمِّيتُ باسم الاخ إسماعيلَ، لأنه كانَ قد قَدِمَ دمشقَ فاشتغلَ بها بعدَ أنْ حفظَ القرآنَ على والِدِه، وقرأ مقدمةً في النحوِ، وحَفِظَ «التنبيه» وشرحه على العلامةِ تاجِ الدينِ الفَرازيِّ،

---

(١) انظر «مقدمة البداية والنهاية» للمحققين، «دول الإسلام» للذهبي، «العبر» له أيضاً، «البداية والنهاية» للمؤلف.

(٢) كما في «طبقات الشافعية» لابن قاضي شُهبة ٣/ ٨٥.

(٣) «الدارس في تاريخ المدارس» ١/ ٣٦.

(٤) «الردّ الوافر» ص١٦٢، «طبقات الشافعية» ٣/ ٨٥، «طبقات المفسرين» ١/ ١١١، «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٣، وكأنه خطأ.

(٥) «الدارس» ١/ ٣٦.

(٦) «الرد الوافر» ص١٦٢، «طبقات الشافعية» ٣/ ٨٥.

(٧) «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٣، «طبقات المفسرين» ١/ ١١١.

(٨) «ذيل التذكرة» ص٥٧، «طبقات المفسرين» ١/ ١١١، «الردّ الوافر» ص١٦٢

(٩) «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٣، وكأنه خطأ.

(١٠) «ذيل التقييد» ١/ ٤٧١.

(١١) كذا في «البداية» ١٤/ ٣٣، و «الرد الوافر» ص١٦٢: وعند الحُسيني ص٥٧: «مجدل».

(١٢) «شذرات الذهب» ٦/ ٢٣١.

(١٣) «تذكرة الحفّاظ» ٤/ ١٥٠٨.

وحَصَّلَ المنتخبَ في أصول الفقه. قالَه لي شيخُنا ابنُ الزملكاني. ثُمَّ إنَّه سَقَطَ من سطح الشامية البرانية، فمكثَ أياماً ومات، فَوَجَدَ الوالدُ عليه وَجْداً كثيراً ورثاه بأبياتٍ كثيرةٍ. فلمَّا وُلِدْتُ له أنا بعدَ ذلك سَمَّاني باسمِه، فأكبرُ أولادِه إسماعيلُ، وأصغرُهم إسماعيلُ[1].

سميَّ الثريَّا والنجومِ مدلها ... فمنْ ولهي خلتُ الكواكبَ رُكَّدا
طريحا على فرش الصبابةِ والأسى ... فما ضَرَّكم لو كنتُم لي عُوَّدا
تَقَلَّبُني أيدي الغرامِ بلوعةٍ ... أرى النارَ من تلقائها لي أبردا
ومَزَّقَ صبري بعد جيران حاجزٍ ... سعيرُ غرامٍ باتَ في القلب موقدا
فأمطرتُه دمعي لعلَّ زفيرَهُ ... يَقِلُّ فزادتهُ الدموعُ توقُّداً

وعدتُها ثلاثة وعشرون بيتاً[2].

ترجمة والد المؤلف:

هو الخطيبُ شهابُ الدين أبو حفص عمرُ بنُ كثير بن ضَوْء بن كثير القُرشيُّ من بني حصيلة، وهم ينتسبونَ إلى الشرقِ وبأيديهم نَسَبٌ، وَقَفَ على بعضها الشيخُ المِزِّيُّ فأعجبَه ذلك وابتهجَ به. قالَ ابنُ كثيرٍ: فصارَ يُكتبُ في نَسَبي بسبب ذلك: القُرشيُّ.

من قريةٍ يُقالُ لها «الشركوين» غربيَّ بُصرى، بينَها وبينَ أذرعات. وُلِدَ في حدود سنة أربعين وستّ مئةٍ، واشتغل بالعلم عند أخوالِه بني عقبة ببُصرى. قرأ «البداية» في مذهب أبي حنيفةَ، وحَفِظَ «جُمَلَ الزجاجي»، وعُنِيَ بالنحوِ والعربيةِ، واللغةِ، وحَفِظَ أشعارَ العرب، حتى كانَ يقولُ الشعرَ الجيدَ الفائقَ الرائقَ في المدح والمراثي وقليل من الهجاء، وقرَّرَ بمدارس بصرى بمنزل الناقةِ شماليَّ البلدِ حيثُ يُزارُ، وهو المَبْرَكُ المشهورُ عندَ الناسِ، واللّه أعلمُ بصحةِ ذلك.

ثم انتقلَ إلى خطابة القريةِ شرقي بُصرى، وتمذهَبَ للشافعي، وأخَذَ عن النواوي والشيخ تقيِّ الدين الفَرازيّ، وكانَ يكرمُه ويحترمُه.

فأقامَ بها نحواً من اثنتي عشرةَ سنة، ثُمَّ تحوَّلَ إلى خطابةِ «مجيدل» القرية التي منها الوالدة. فأقاما بها مدةً طويلةً في خيرٍ وكفايةٍ وتلاوةٍ كثيرة، وكانَ يخطبُ جيداً، وله مقولٌ عندَ الناس، ولكلامِه وَقْعٌ لديانتِه وفصاحتِه وحلاوتِه. وكانَ يُؤْثِرُ الإقامةَ في البلادِ لِما يَرَى فيها من الرفقِ وجودِ الحلالِ له ولعيالِه.

تُوفي -رحمه اللّه- في شهر جُمادى الأولى سنةَ ثلاثٍ وسبعِ مئةٍ، في قرية «مجيدل» ودُفِنَ بمقبرتِها الشمالية عندَ الزيتون.

قال ابنُ كثيرٍ: وكنتُ إذْ ذاكَ صغيراً ابن ثلاثِ سنين أو نحوِها، لا أدركُه إلاَّ كالحلم.

ومن شعره ما أنشدَ لنفسه سنةَ سبعٍ وثمانين وستِّ مئة:

نأى النومُ عن جفني فبتُّ مُسَهَّداً ... أخا كَلَفٍ حلفَ الصبابةِ موجدا

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٣.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٣- ٣٥.

(٣) كذا في «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٤.

(٤) كذا في «إنباء الغمر» ١/ ٤٥، و «الشذرات» ٦/ ٢٣١.

(٥) «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٤.

(٦) «إنباء الغمر» ١/ ٤٥ «الشذرات» ١/ ٢٣١، و «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢.

نشأته وطلبُه للعلم:

بعدَ موت أبيه -رحمهما اللّه- تَوَلَّى رعايتَه أخوهُ كمالُ الدين عبد الوهاب، فقدمَ به دمشقَ سنةَ سبعٍ وسبعِ مئةٍ[3]، وقيل: سنة ستٍّ وسبعِ مئة[4].

قالَ ابنُ كثيرٍ: وقد كانَ لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً، وقد تأخرتُ وفاتُه إلى سنةِ خمسين، فاشتغلتُ على يديه في العلم، فيَسَّرَ اللّه تعالى منه ما يَسَّرَ، وسَهَّلَ منه ما تَعَسَّرَ[5].

فسمعَ الكثيرَ مِنَ المشايخِ، وأقبلَ على حفظِ المتونِ (كالتنبيهِ، ومختصرِ ابنِ الحاجب) ومعرفةِ الأسانيدِ والعللِ والرجالِ والتاريخِ، حتى بَرَعَ في ذلك وهو شابٌّ. وصَنَّفَ في صغرِه كتابَ الأحكام على أبوابِ التنبيه. ووقَفَ عليه شيخُه برهانُ الدين وأعجبَهُ[6].

شيوخُه:

١- الشيخُ العالِم، بقيةُ السلف، برهانُ الدين أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ شيخ الشافعية العلاَّمةِ تاجِ الدين أبي محمدٍ عبد الرحمن بنِ إمام الرواحية أبي إسحاقَ إبراهيم بن سباعِ بن ضياءِ الفَزاريُّ، المصريُّ الأصلِ، الشافعيُّ. (٦٦٠- ٧٢٩).

سمعَ الحديث واشتغل على أبيه، وأعادَ في حلقتِه، وبرع وسادَ أقرانَه وسائرَ أهلِ زمانه في درايةِ المذهبِ ونقله وتحريره، ثم كانَ في منصبِ أبيه في التدريس بالبادرائيةِ، وأشغلَ الطلبةَ بالجامع الأُمويِّ،

فانتفعَ به المسلمون، وقد عُرضت عليه المناصبُ الكبارُ فأباها. سمعَ منه ابنُ كَثير «صحيحَ مسلم» وغيرَه، وله تعليقٌ على التنبيهِ، فيه من الفوائد ما ليس في غيرِه، وله مصنفاتٌ كبارٌ..[١].

٢- الشيخُ الحافظ علمُ الدين أبو محمد القاسمُ بن محمد بن البرْزاليُّ، مؤرّخ الشام، الشافعيُّ، (٦٦٥- ٧٣٩). وقد كَتَبَ تاريخاً ذَيَّلَ به على الشيخِ شهاب الدين من حين وفاتِه ومولد البرزالي إلى أن توفي سنةَ (٧٣٩) وهو مُحرمٌ.

وسمع الكثير أزيدَ من ألفِ شيخ. وخرَّجَ له المحدّث شمسُ الدين بنُ سعد مشيخةً لم يكملها، وقرأ شيئاً كثيراً. وكانَ متواضعاً مُحبّباً إلى الناس. ذكره ابنُ كثير كثيراً في كتبِه، فكانَ يقول: «قالَ شيخُنا»[٢].

٣- العالمُ الحافظُ شيخُ المحدثين شرفُ الدين أبو محمد عبدُ المؤمن بن خلف أبي الحسن بن شرفِ بنِ الخضر بن موسى الدِّمياطيُّ (٦١٣- ٧٠٥)، حاملُ لواء هذا الفَنّ - أعني صناعةَ الحديث وعلم اللغة - في زمانه معَ كبر السنِّ والقدر، وعلوِّ الإسناد، وكثرةِ الرواية، وجودةِ الدرايةِ، وحسنِ التآليف. وتردَّدَ الطلبةُ إليه من سائرِ الآفاق. وصنَّفَ ونشَر العلم، وجمعَ معجماً لمشايخه الذين لقيَهُم بالشام والحجازِ والجزيرةِ والعراقِ وديارِ مصر على ألفٍ وثلاث مئة شيخ. ولم يَزَل في إسماعِ الحديث إلى أن أدركته وفاتُه وهو صائمٌ، في مجلسِ الأمراء، بالقاهرة، دُفِنَ بمقابر باب النصر.[٣]

٤- الشيخُ نجمُ الدين موسى بنُ علي بن محمد الجيليُّ، ثم الدمشقيُّ، الكاتبُ الفاضل المعروف بابنِ البصيص (٦٥١- ٧١٦) شيخُ صناعةِ الكتابةِ في زمانه لا سيَّما في المزوجِ والمثلث، وقد أقامَ يُكتبُ الناسَ خمسين سنة.

قال ابنُ كثير: وأنا ممَّنْ كتبَ عليه أثابه اللّه. وكان شيخاً حسناً بهيَّ المنظرِ يشعر جيداً. دُفن بمقابر الباب الصغيرِ.[٤]

٥- الشيخ القاضي أبو زكريا محيى الدين يحيى بن الفاضل جمال الدين إسحاق بنِ خليلِ بنِ فارس الشيبانيُّ الشافعيُّ (٦٤٨- ٧٢٤)، اشتغلَ على النواويِّ، ولازمَ ابن المَقْدسيِّ، وولي الحكمَ بزرعٍ وغيرِها، ثم قامَ بدمشق يشتغلُ في الجامع، ودَرَّسَ في الصارميَّةِ، وأعادَ في مدارسَ عدةٍ، إلى أن تُوفي ودُفن بقاسيون وقد قاربَ الثمانين رحمه اللّه. قالَ ابن كثير: وسمعَ كثيراً، وخَرَّجَ له الذهبيُّ شيئاً وسمعنا عليه الدارقطنيَّ وغيرَه».[٥]

٦- الشيخ المعمَّرُ القاسمُ بنُ مُظَفَّرِ بنِ نجم الدين بنِ أبي الثناءِ محمود بنِ تاج الأمناء أبي الفضل أحمد بن محمد بنِ الحسن بن هبة اللّه بنِ عبدِ اللّه بنِ الحسينِ بن عساكر الدمشقيُّ، الطبيبُ (٦٢٩- ٧٢٣). سمعَ حضوراً وسماعاً على الكثيرِ من المشايخ. قال ابن كثير: وقد خَرَّج له الحافظُ عَلَمُ الدين البرْزالي مشيخةً سمعناها عليه في سنةِ وفاته. ووقفَ آخرَ عمره داره دار حديث، وخصَّ الحافظَ البرزالي والمزيَّ بشيءٍ مِن برِّه. ودُفِن بقاسيون.[٦]

٧- الشيخُ الأصيلُ شمسُ الدين أبو نصرِ بن محمد بن عماد الدين أبي الفضلِ محمد بن شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة اللّه بن محمد بن يحيى بن بُندار بن ميل الشِّيرازيُّ (٦٢٩- ٧٢٣). سمعَ الكثيرَ وأسمعَ وأفادَ في عليةِ الشيخ المِزِّي، قرأ عليه عدةَ أجزاءٍ بنفسِه. وكانَ شيخاً حسناً خيِّراً مباركاً متواضعاً، لم يتدنَّس بشيءٍ من الولاياتِ، ولا تدنَّسَ بشيءٍ من وظائفِ المدارس ولا الشهاداتِ، إلى أنْ تُوفيَ يومَ عَرَفةَ ببستانِه من المِزَّة.[٧]

٨- الشيخُ العلامةُ الزاهدُ ركنُ الدين أبو يحيى زكريا بنُ يوسفَ بنِ سليمان بن حماد البجَلِيُّ الشافعي (٦٥٠- ٧٢٢) نائب الخطابةِ، ومدرسُ الطيبية والأسديةِ، وله حلقة للاشتغالِ بالجامعِ،

---

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٥٢، «العبر» ٤/ ٨٥- ٨٦، «معجم الشيوخ» للذهبيِّ ١/ ١٣٨- ١٣٩، «الدارس» ١/ ٣٦، «ذيل التذكرة» ص٥٧، «طبقات الشافعية» ٣/ ٨٥، «شذرات الذهب» ٦/ ٢٣١، «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٩٦- ١٩٧، «العبر» ٤/ ١١٤- ١١٥، «معجم الشيوخ» للذهبيِّ ٢/ ١١٥، «الشذرات» ٦/ ١٢٢، «الدُّرَرُ الكامنة» ٣/ ٢٣٧- ٢٣٩.

(٣) «البداية والنهاية» ١٤/ ٤٢، «العبر» ٤/ ١٣، «الدرر الكامنة» ٢/ ٤١٧.

(٤) «البداية والنهاية» ١٤/ ٨٢، «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٧٦.

(٥) «البداية والنهاية» ١٤/ ١١٩، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ٣٦٨- ٣٦٩، «الدرر الكامنة» ٤/ ٤١٤.

(٦) «البداية والنهاية» ١٤/ ١١٢، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ١١٧، «درة الحجال» ٣/ ٢٧٣، «العبر» ٤/ ٦٨، «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٣٩- ٢٤٠.

(٧) «البداية والنهاية» ١٤/ ١١٣، «العبر» ٤/ ٦٨- ٦٩.

يحضر بها عنده الطلبة. كانَ يشتغلُ في الفرائض وغيرها، مواظباً على ذلك. ودُفِنَ قريباً من شيخه تاج الدين الفَزاريِّ رحمهما اللّه.(١)

٩ـ الشيخُ عفيفُ الدين إسحاقُ بنُ يحيى بنِ إسحاقَ بن إبراهيم بن إسماعيلَ الآمديُّ، ثم الدمشقي الحنفيُّ شيخُ دارِ الحديث الظاهرية (٦٤٢ـ ٧٢٥). سمعَ الحديثَ على جماعةٍ كثيرين منهم مجدُ الدين ابنُ تيمية صاحب الأحكام. وكان شيخاً حسناً بهيَّ المنظر، سهلَ الإسماع، يحبُّ الروايةَ ولديه فضيلة. توفي في رمضان، ودُفِنَ بقاسيون.(٢)

١٠ـ الشيخُ الصالحُ ضياءُ الدين أبو الفداء إسماعيلُ بنُ رضي الدين أبي الفضل المسلم بنِ الحسن بن نصرِ الدمشقيُّ، المعروفُ بابنِ الحَمَويِّ (٦٣٥ـ ٧٢٧). كانَ هو وأبوه وجدُّه من الكتابِ المشهورين المشكورين، وكانَ هو كثيرَ التلاوةِ والصلاةِ والصيامِ...سمعَ الحديثَ الكثير. قال ابن كثير: خَرَّجَ له البِرْزاليُّ مشيخةً سمعناها عليه وكانَ من صدور أهل دمشق. دُفنَ بباب الصغير.(٣)

١١ـ الملكُ الكامل ناصر الدين أبو المعالي محمدُ بنُ الملك السعيد فتحِ الدين عبدِ الملك بن السلطان الملك الصالح إسماعيلَ أبي الجيش بن الملك العادل أبي بكر بن أيوبَ، أحدُ أكابر الأمراء وأبناء الملوك (٦٥٣ـ ٧٢٧). كانَ من محاسن البلد ذكاءً وفطنةً وحسنَ عشرةٍ ولطافةَ كلامٍ، بحيثُ يسردُ كثيراً من الكلام بمنزلةِ الأمثال من قوةِ ذهنِه وحذاقة فهمِه، وكانَ رَئيساً من أجود الناس. قال ابنُ كثير: كانَ له سماعٌ كثير سمعنا عليه منه، وكانَ يحفَظُ تاريخاً جيداً.(٤)

١٢ـ شيخ الإسلام الإمامُ العَلاَّمةُ الفقيهُ المجاهدُ، القُدوةُ، تقيُّ الدين أبو العباس أحمدُ بن المفتي شِهابِ الدين أبي المحاسنِ عبدِ الحليم بنِ الشيخ أبي البركات عبد السلام بن عبد اللّه بن أبي القاسمِ محمدِ بن الخضر... ابن تيميةَ الحرّانيُّ ثم الدمشقيُّ (٦٦١ـ ٧٢٨) ماتَ بقلعةِ دمشق مُعتَقَلاً، ومُنع قبلَ وفاته بخمسة أشهر من الدواةِ والورق. بَرَعَ في التفسير، والاختلافِ، والأصلين، وكانَ يتوقَّدُ ذكاءً، ومُصنَّفاتُه تُذكَرُ في أكثر من مئتي مجلدٍ، وكانَ رأساً في الكلامِ والشجاعةِ، قانعاً باليسيرِ، شَيَّعَه نَحوٌ من خمسين ألفاً، وحُمِلَ على الرؤوس. رحمه اللّه.(٥)

١٣ـ قاضي القضاة علاءُ الدين ابو الحسن عليُّ بن إسماعيلَ بنِ يوسفَ القونويُّ التبريزيُّ الشافعي. (٦٦٨ـ ٧٢٩) قدمَ دمشقَ سنة (٦٩٣)، وهو معدودٌ من الفُضلاء فازدادَ بها اشتغالاً، وسمعَ الحديث وتصدَّرَ للاشتغال بجامعها، ودَرَّسَ بالإقباليةِ، ثم سافرَ إلى مصرَ، فَدَرَّسَ بها في عدةِ مدارس كبار، وولي مشيخةَ الشيوخِ بها وبدمشق. وله تصانيفُ في الفقه وغيرِه، وكان يحرزُ علوماً كثيرة منها النحو، والتصريف، والأصلان، والفقه، وله معرفةٌ جيدة بكشَّافِ الزمخشريِّ وفهمِ الحديث.. قال ابنُ كثير: وخُرِّجَت له مشيخةٌ سمعناها عليه، وكانَ يتواضَعُ لشيخِنا المزيِّ كثيراً. دُفنَ بسفح قاسيون.(٦)

١٤ـ الصاحبُ عزُّ الدين أبو يعلى حمزةُ بنُ مؤيِّدِ الدين أبي المعالي أسعدَ بنِ عزِّ الدين أبي غالب المظفرِ بنِ الوزير مؤيِّدِ الدين أبي المعالي بنِ أسعد بنِ العميدِ أبي يعلى بنِ حمزةَ بنِ أسد بن علي بن محمد التميميُّ الدمشقيُّ، ابنُ القلانسيِّ، أحدُ رؤساء دمشق الكبار (٦٤٩ـ ٧٢٩) قال ابنُ كثير: سمعَ الحديث من جماعةٍ، ورواه وسمعنا عليه، وله رياسةٌ باذخةٌ، وأصالةٌ كثيرة، وأملاكٌ هائلة كافية لما يحتاجُ إليه من أمور الدنيا. ولم يزل معَ صناعةٌ للوظائف إلى أن أُلزِمَ بوكالةِ بيت السلطان، ثم الوزارةِ في سنة عشر، كما تقدم، ثم عزل. وقد صُودرَ في بعض الأحيان، وكانت له مكارمُ على الخواصِّ والكبار. ودُفن بتربته بسفحِ قاسيون، وله في الصالحيةِ رباطٌ حسنٌ بمئذنةٍ، وفيه دار حديث وبرٌ وصدقة، رحمه اللّه.(٧)

---

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٠٧، «الدررُ الكامنة» ٢/ ١١٥.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٢٤، «الدرر الكامنة» ١/ ٣٥٨، «الوافي بالوفيات» ٨/ ٤٣٠، «معجم الشيوخ للذهبيِّ» ١/ ١٦٨، «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢.

(٣) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٣٥، «العبر» ٤/ ٨١.

(٤) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٣٦، «الوافي بالوفيات» ٤/ ٤٦، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ٢٢٦- ٢٢٧.

(٥) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٤١- ١٤٥، «العبر» ٤/ ٨٤ وكتب كثيرة، وأُفردَ بالترجمة من قِبَل عدة.

(٦) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٥٣، «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٤- ٢٨، «العبر» ٤/ ٨٧.

(٧) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٥٣- ١٥٤، «الدرر الكامنة» ٢/ ٧٥- ٧٦، «العبر» ٤/ ٨٧.

١٥ – الشيخُ الصالح، العابد الناسك الخاشعُ، شمسُ الدين أبو عبد اللّه محمدُ بن الشيخ الصالح العابد شرفِ الدين أبي الحسن حصنِ بن غَيْلانَ البَعْلَبكي الحَنْبَلي، إمامُ مسجد السلالين بدارِ البطيخ العتيقة (٦٦٨– ٧٣٠). سمعَ الحديث وأسمعَه، وكَانَ يُقرئ القرآنَ طَرَفي النهار، قال ابنُ كثير: وعليه ختمتُ القرآنَ في سنةِ إحدى عشرة وسبع مئة، وكان من الصالحين الكبارِ والعبادِ الأخيار. ودُفنَ بباب الصغير، وكانت جنازتُه حافلة.(١)

١٦ – الشيخُ الكبيرُ المعمَّرُ الرحلةُ، شهابُ الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب بنِ نعمةَ بنِ حسن بن علي بنِ رَيْسانَ الديرمُقْرني، ثم الصالحي الحَجاز، المعروف بابن الشِّحنةِ (نحو٦٢٣– ٧٣٠). ظَهَرَ سماعُه سنةَ ستٍّ وسبع مئة، ففرحَ بذلك المحدِّثون، وأكثروا السماعَ عليه، فقُرئَ البخاريُّ عليه نحواً من ستين مرةً وغيرُه. قالَ ابنُ كثير: وسمعنا عليه بدارِ الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحواً من خمسِ مئةِ جزءٍ بالإجازاتِ والسماعِ. وقد سمعَ عليه السلطانُ الملك الناصر، وخلَعَ عليه وألبسه الخلعةَ بيدِه، وسمعَ عليه من أهلِ الديارِ المصرية والشامية أُمَمٌ لا يُحْصَوْنَ كثرةً، وانتفع الناسُ بذلك. وكانَ شيخاً حسناً بهيَّ المنظر، سليمَ الصدر، ممتعاً بحواسِّه وقواه. دُفِنَ بتربةٍ له عند زاوية الدومي، بجوارِ جامع الأفرم، وكانت جنازته حافلةً رحمه اللّه.(٢)

١٧ – قاضي القُضاةِ جمالُ الدين أبو الربيع سُليمانُ بنُ الخطيبِ مجدِ الدين سالمِ بنِ عمر بن عثمان الأذرعيُّ الزُّرْعيُّ الشافعيُّ (٤٥– ٧٣٤). اشتغلَ بدمشقَ فحصَّلَ، وناب في الحُكم بزَرْعٍ مدةً، فعُرف بالزُّرعي لذلك، وإنَّما هو من أذْرعات، وأصلُه من بلاد المغرب. ثم نابَ بدمشقَ، ثم انتقلَ إلى مصر فنابَ في الحكم بها، ثم استقلَّ بولاية القضاء بها نحواً من سنة. وَلِيَ قضاءَ الشام مدةً معَ مشيخة الشيوخ نحواً من السنة، ثم عُزل وبقيَ على مشيخة الشيوخ نحواً من سنةٍ معَ تدريس الأتابكة، ثم تحوَّلَ إلى مصر فولِيَ بها التدريسَ وقضاء العسكر. كانَ قويَّ النَّفسِ مَهيباً صلباً في الأحكامِ تامَّ النزاهةِ والعِفَّةِ، ولكنه كانَ قليلَ العلمِ.

(١) «البداية والنهاية» ١٤– ١٥٦، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ٣٢٢.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٥٧، «الدرر الكامنة» ١/ ١٤٢– ١٤٣، «درة الحجال» ١/ ٢٨– ٢٩، «معجم الشيوخ» للذهبي ١/ ١١٨، «العبر» ٤/ ٨٨، «ذيل التقييد» ١/ ٣١٧.

قالَ ابنُ كَثير: قد خَرَّجَ له البِرْزالي مشيخةً سمعناها عليه وهو بدمشقَ عن اثنين وعشرين شيخاً.(٣)

١٨ – الشيخُ الإمام ذو الفنون تاجُ الدين أبو حفص عمرُ بن علي بنِ سالمِ بن عبد اللّه اللخميُّ الإسكندرانيُّ، المعروفُ بابن الفاكهاني (٦٥٤– ٧٣٤). سمعَ الحديثَ واشتغَلَ بالفقه على مذهب مالك، وبرعَ وتقدمَ بمعرفةِ النحو وغيره، وله مصنفاتٌ في أشياءَ متفرقةٍ. قدم دمشقَ في سنة إحدى وثلاثين وسبع مئة في أيام الأخنائي. قال ابنُ كثير: فأنزله في دار السعادةِ وسمعنا عليه ومعَه. وحَجَّ من دمشق عامئذٍ وسُمعَ عليه في الطريق، ورجعَ إلى بلادِه.(٤)

١٩ – الشيخُ الإمامُ العالم العابدُ، شمسُ الدين أبو محمد عبدُ اللّه بن العفيفِ محمد بنِ الشيخ تقي الدين يوسفَ بنِ عبد المنعم بن نعمةَ المقدسيُّ النابلسي الحنبلي، إمام مسجد الحنابلة بها (٦٤٧– ٧٣٧) سمعَ الكثير، وكانَ كثير العبادةِ حسنَ الصوتِ، عليه البهاءُ والوقارُ، حسنَ الشكلِ والسمتِ. قال ابنُ كثير: قرأتُ عليه عامَ ثلاثة وثلاثين وسبعِ مئة مرجعَنا من القدس كثيراً من الأجزاء والفوائد، وهو والدُ صاحبنا الشيخ جمالِ الدين يوسفَ، أحد مُفتيةِ الحنابلة وغيرهم، والمشهورين بالخير والصلاح.(٥)

٢٠ – الشيخُ الحافظ البارعُ محدِّثُ الإسلام جمالُ الدين أبو الحجَّاج يوسفُ بنُ الشيخِ المقرئ زكيِّ الدين عبدِ الرحمن بن يوسفَ، الكَلْبيُّ، القُضاعيُّ المِزِّيُّ الدمشقي الشافعيُّ (٦٥٤– ٧٤٢). نشأ بالمِزِّةِ، وقرأ القرآن، وتفقه قليلاً، ثم طلبَ هذا الشأن سنة خمسٍ سبعين وستِّ مئة، وهَلُمَّ جَرّاً، فما وَفَى وما قَتَر، ولا لَهَا ولا قصرَ. وعنيَ بهذا الشأنِ أتمَّ عناية. وقرأ العربيةَ، وأكثرَ من اللغةِ والتصريفِ، وصَنفَ وأفادَ. وسَمعَ من خلائق، وكتبَ الكثيرَ ورواه، معَ السَّمتِ الحَسَنِ والاقتصادِ والتواضُعِ والحِلْمِ وعدمِ الشَّرِّ.(٦)

(٣) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٧٦، «الدرر الكامنة» ٢/ ١٥٩– ١٦٢، «معجم الشيوخ» للذهبي ١/ ٢٧١– ٢٧٢، «الوافي بالوفيات» ١٥/ ٤١٦، «العبر» ٤/ ٩٨.

(٤) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٧٧، «الدرر الكامنة» ٣/ ١٧٨– ١٨٩.

(٥) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٩٠، «الدرر الكامنة» ٢/ ٣٠٤ (وفيه ولادته سنة ٦٤٩)، «العبر» ٤/ ١٠٧...

(٦) «البداية والنهاية» ١٤/ ٢٠٣، «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٥٧– ٤٦١، «درة الحجال» ٣/ ٣٤٧، «ذيل العبر» للحُسيني ٤/ ١٢٦– ١٢٧،

صَنَّفَ كتباً غايةً في الدقةِ كتهذيبِ الكمالِ، وتُحفةِ الأشرافِ.

وكان الحافظ ابنُ كثير قريباً منه، وقد تزوّجَ بابنتِهِ، وسيأتي التنبيهُ عليه.

٢١- الشيخ عمرُ بنُ أبي بكر بنِ معالي بن إبراهيم بن زيدٍ الحمصيُّ، زينُ الدين الميهنيُّ البسطيُّ، التاجرُ الدمشقي (٦٦٤- ٧٤٢)، كانَ رجلاً صالحاً كثيرَ التلاوةِ والصلاة والصدقة، وحضورِ مجالس الذكر والحديث، لَه همة وصَوْلَةٌ على الفقراء المتشبهين بالصالحين وليسوا منهم، سمعَ الحديثَ من الشيخِ فخرِ الدين بن البخاريِّ وغيره، قال ابنُ كثير: وقرأتُ عليه عن ابنِ البُخاريّ «المشيخة»، ولازمَ مجالسَ الشيخِ تقي الدينِ ابنِ تيمية رحمه اللّه، وانتفعَ به. ودُفنَ بمقابرِ باب الصغير.[1]

٢٢- الشيخُ الحافظ الإمامُ العلاّمة، مؤرِّخُ الشام ومحدِّثه ومفيدُه، شمسُ الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التُّركمانيُّ الفارقيُّ الأصلِ، الدمشقي المعروفُ بالذهبيِّ الشافعي (٦٧٣- ٧٤٨). صنّفَ كتابَ «تاريخ الإسلام»، و «سير أعلام النبلاء»، و«الميزان»، و «العبر» وغيرها من أمهات الكتب. وسمع الحديثَ في سنةِ اثنتين وتسعين وهَلُمَّ جرّا.. وخَرَّجَ لجماعةٍ من شيوخه، وخَرَّجَ وعَدَّلَ، وفَرَّغَ وأصَّلَ، وصحَّحَ وعلَّلَ، واستدرَكَ وأفادَ وانتقى واختصر كثيراً من تواليف المتقدمين والمتأخرين، وصَنَّفَ الكتبَ المفيدةَ السائرة في الآفاق، وخطَبَ بكفْر بطنا مدةً، ثم ولِيَ مشيخةَ الحديث بأماكن، ولَمْ يزَل يكتبُ ويدأبُ حتى أضَرَّ في سنة إحدى وأربعين[2] . وهو ممّن أكثرَ عنهم الحافظُ ابن كثير، واستشهَدَ به في كتبِه.

٢٣- الشيخُ الأصوليُّ شمسُ الدين أبو الثناء محمودُ بن عبد الرحمن بنِ أحمدَ بنِ محمد أبي بكر علي الأصبهانيُّ، كانَ ينتسبُ إلى علاءِ الدولة الهَمَذانيُّ (٦٧٤- ٧٤٩) ولِدَ بأصبهان، واشتغلَ في بلادِه، ومَهَرَ، وتقدَّمَ في الفنونِ، قدمَ دمشق سنة (٧٢٥) وسمعَ كلامَهُ الشيخُ تقيُّ الدين ابنُ تيمية، فبالغَ في تعظيمه، وكانَ يلازمُ الجامعَ الأمويَّ ليلاً نهاراً، مُكبّاً على التلاوةِ وشغلِ الطلبةِ. ودَرَّسَ بعدَ الزَّمْلكاني بالرواحية. صَنَّفَ شرحَ مختصر ابن الحاجب وغيره وكانت وفاتُهُ بالطاعون[3].

وذكره في مشايخ ابنِ كثير: ابنُ حجر، وابنُ قاضي شُهبة، والنعيميُّ، وابنُ العماد، والداووديُّ[4].

٢٤- الشيخُ الصالحُ المُعَمَّر الرحلة شرفُ الدين عيسى بنُ عبد الرحمن بنِ معالي بن أحمدَ بنِ إسماعيلَ بن عطّافِ بنِ مبارك بن علي بن أبي الجيش المقدسيُّ، المطعم(٦٤٥- ٧١٩) راوي صحيح البخاري وغيره، وقد سمعَ الكثيرَ من مشايخ عدة، وترجمه الشيخ البرزالي، وكانَ عامياً أمياً. دُفنَ بالساحة بالقرب من تُربة الموهبين.

سمعَ منه ابنُ كَثيرٍ «مسند الدرامي» كما ذكرَ الفاسي في «ذيل التقييد»[5].

٢٥- محمدُ بنُ إبراهيم بن طَرْخان بنِ محمد بن ريان (!)، الشيخُ الرئيس بدرُ الدين ابنُ عزِّ الدين السُّوَيديُّ، من سلالة سعدِ بن مُعاذٍ السُّويدي، من سُويداء حوران (٦٣٥-٧١١) سمعَ الحديث، وبَرَعَ في الطب، وكانَ رئيسَ الأطباء، وولي استيفاء الأوقاف وغير ذلك، وشيوخُه فوقَ المئة. تُوفّي ببستانه بقرب الشبلية.

ذكره في شيوخِ ابنِ كثير: أبو المحاسن الحُسيني[6].

٢٦- شيخُ الشافعية بالشام كمالُ الدين أبو المعالي محمدُ بنُ عليِّ بنِ عبد اللّه الواحد بن عبد الكريم بنِ خَلَفِ بن نبهانَ، الأنصاريُّ الشافعيُّ، ابنُ خطيبِ زَمْلكا، ويُعرفُ بابن الزَّمْلكاني

---

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ٢١٠، «الدرر الكامنة» ٣/ ١٥٧.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤- ٢٠١ و٢٣٦، و «ذيل العبر» للحسيني ٤/ ١٤٨، «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٣٦، «ذيل التقييد» ١/ ٥٣، «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٣/ ٥٥- ٥٧، الوافي بالوفيات ٢/ ١٦٣، «البدر الطالع» ٢/ ١١٠ وغيرها الكثير من المصادر.

(٣) «الدرر الكامنة» ٤/ ٣٢٧- ٣٢٨، «ذيل العبر» للحسيني ٤/ ١٠٥، «شذرات الذهب» ٦/ ١٦٥، «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٣/ ٧١- ٧٢، للسبكي ٦/ ٢٤٧.

(٤) «إنباء الغمر» ١/ ٤٥، «الطبقات» ٣/ ٨٥، «الدارس» ١/ ٣٦، «الشذرات»، ٦/ ٢٣١، «طبقات المفسرين»، ١/ ١١٢.

(٥) «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢و ٢/ ٢٦٢، «البداية والنهاية»١٤/ ٩٨، «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٠٤ «معجم شيوخ الذهبي» ٢/ ٨٥- ٨٦. «الشذرات» ٦/ ٥٢.

(٦) في «ذيل التذكرة» ص٥٨. والترجمة في «البداية والنهاية» ١٤/ ٦٥، «الدرر الكامنة» ٣/ ٢٩٤.

(٦٦٧ـ ٧٢٧). سمعَ الحديثَ وطلبه بنفسه، وكتبَ الطباق بخطّه، وقرأ الفقهَ والأصولَ والنحو. وبرَعَ وحصّلَ وسادَ أقرانَه من أهلِ مذهبِه، ودرّسَ بعدة مدارسَ بدمشق، وباشرَ عدة جهات كبار، كنظرِ الخِزانةِ، ونظرِ المارستان النوري، وديوان الملك السعيد، ووكالةِ بيت المال. وله تعاليقُ مُفيدة واختياراتٌ حميدةٌ سديدة. قال ابنُ كثير: وأمّا دروسهُ في المحافلِ فلم أسمَعْ أحداً من الناس درّسَ أحسنَ منها، ولا أحلى من عبارته، وحسنِ تقريره، وجودة احترازاته، وصحةِ ذهنِه. وذكَره ابن كثير في «البداية» في مواضعَ فقال: قالَ شيخُنا ابنُ الزَّملكاني. توفي بمدينة بلبيسَ، وحُمِلَ إلى القاهرة، ودُفِنَ بالقَرافةِ جوارَ قُبّةِ الشافعي[١].

٢٧ـ يوسفُ بنُ عمرَ بنِ حسين بن أبي بكر الحَتّني، جمالُ الدين أبو المحاسن، الحنفيُّ، المصري، المعمَّرُ، وقالَ ابنُ حجر وغيره: بدرُ الدين (٦٤٥ـ ٧٣١). سمعَ من ابن رواج، وهو خاتمةُ أصحابه، ومن صالح المُذْجيِّ، وابنِ اللمطي وأبي علي البكْريِّ، والمرسي، والزكيِّ المُنذريِّ وغيرهم، وتفرّدَ بأشياء. وخُرِّجت له مشيخةٌ من نيِّفٍ وستين شيخاً، وأكثر عنه الطلبةُ. قال البدرُ النابلسيُّ: كانَ في أسماعِه صعوبةٌ، وكان لا يُسمعُ إلاّ بالأُجرةِ، لأنهُ كانَ مُقلاً وكانت زوجتهُ تشترطُ عليه ذلك.

ذَكر القاضي أبو الطيب الفاسي في «ذيل التقييد»: أنّ يوسفَ الحتني أجازَ لابنِ كثير[٢].

٢٨ـ عليُّ بن أبي بكر الوانيُّ الخلاطيُّ المِصري، الصُّوفي، نورُ الدين، الدين، أبو الحسن (٦٣٧ـ ٧٢٧). سمعَ من ابن الرواج، والسِّبْط، والمرسي.. وتفرّدَ بعوالٍ. وكانَ صالحاً سَهْلَ القِيادِ. أضرَّ بأخرة، ثم عولجَ فأبصرَ.

ذكره الفاسيُّ فيمن أجاز للحافظ ابن كثير[٣].

٢٩ـ محمدُ بنُ أحمدَ بنِ أحمد بن أبي الهَيْجاء بن أبي المعالي الصالحيُّ، المعروفُ بابنِ الزرّاد، شمسُ الدين أبو عبد اللّه الحَريريُّ (٦٤٦ـ ٧٢٦) أسمعهُ أبوه الكثير على مشيخة وقته: اليَلْدانيِّ، والبَلخيِّ، والبَكريِّ.. وخرّجَ له الذهبيُّ جزءاً ضَخْماً عن مئةِ شيخ رواه مرّات، وروى كتباً كباراً تفرّدَ بها. وكان خيِّراً متواضعاً حسنَ البِشْرِ، له مشاركةٌ في العلم، ثم كَبِرَ وعَجَزَ وافتقر وتغير واستولى عليه التعلُّلُ والبَلْغَم[٤].

ذكَره في شيوخ ابنِ كثير: الفاسيُّ، وابنُ حجرٍ، والذهبيُّ[٥].

٣٠ـ الشيخُ الإمامُ العالم كمالُ الدين أبو محمد عبدُ الوهّاب بن ذُؤيبٍ، الأسديُّ الشُّهبيُّ الشافعي (٦٥٣ـ ٧٢٦). وُلِدَ بحوران، وقدمَ دمشق، واشتغلَ على الشيخ تاجِ الدين الفَزاري، ولازمَه وانتفعَ به، وكذلك لازم أخاه شرفَ الدين، وأخَذَ عنه النحوَ واللغةَ، وكانَ بارعاً في الفقهِ والنحوِ، له حلقة يُشتغل فيها تجاه محراب الحنابلة، وكانَ يعتكفُ جميعَ شهر رمضانَ، ولم يتزوّج قطُّ، كانَ حسنَ الهيئةِ والشيبة، حسنَ العيش والمَلْبس. وكانَ يتورّعُ عن الإفتاء، وقد سمعَ الكثير. توفي بالمدرسةِ المجاهدية، ودُفِنَ بمقابرِ باب الصغير[٦].

ذكره في شيوخ ابنِ كثير: ابنُ حجر، وابنُ قاضي شُهبةَ، والنُعيميُّ، وابنُ العماد، والداووديُّ[٧].

٣١ـ الشيخُ ضياءُ الدين عبد اللّه الدُّرَيْنديُّ النحويُّ (٧٢٣)، كانَ قد اضطربَ عقلُه، فسافرَ من دمشقَ إلى القاهرةِ، فأشارَ شيخُ الشيوخ القُونَوي أن يودَعَ بالمارستان فلم يوافَقْ، ثم دَخَلَ إلى القلعةِ وبيده سيفٌ مسلولٌ نصرانياً، فحُمِلَ إلى السلطان وظُنّوه جاسوساً فأمرَ بشنقِه فشُنِقَ. قال ابن كثير: وكنت ممّن اشتغلَ عليه في النحو[٨].

٣٢ـ الشيخ شمس الدين محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن

---

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ٣٣و ١٣٦- ١٣٧، «الدرر الكامنة» ٤/ ٧٤- ٧٦، «ذيل التقييد» ١/ ١٨٢، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ٢٤٤، «الشذرات» ٦/ ٧٨- ٧٩...

(٢) «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢و ٢/ ٣٢٦، «الدرر الكامنة» ٤/ ٤٦٦- ٤٦٧، «الشذرات» ٦/ ٩٧، «العبر» ٤/ ٨٩.

(٣) «ذيل التقييد» ٢/ ٢٠٤- ٢٠٥، «الدرر الكامنة» ٣/ ٩٠، «العبر» ٤/ ٨٠، «الشذرات» ٦/ ٧٨.

(٤) «ذيل التقييد» ١/ ٨٤، «الدرر الكامنة» ٣/ ٣٧٦، «معجم الشيوخ» للذهبي ٢/ ١٦٩- ١٧٠، «درة الحجال» ٢/ ٢٥٦..

(٥) «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢، «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٤، «تذكرة الحفاظ» ٤/ ١٥٠٨.

(٦) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٣١- ١٣٢.

(٧) «إنباء الغمر» ١/ ٤٥، «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٢/ ٨٥، «الدارس ١/ ٣٦، «الشذرات» ٦/ ٢٣١، «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢.

(٨) «البداية والنهاية» ط تركي ١٨/ ٢٢٩-٢٣٠.

سالم بن بركات بن سعد بن بركات بن سعد بن كامل بن عبد اللّه بن عمر، من ذرية عبادة بن الصامت، وعُرفَ بابن الخباز الحنبلي (٦٦٩-٧٥٦) حضر الكثير على ابن الدائم وغيره، وسمع من المسلم بن علان المسند بكماله. وأجازه عمر الكرماني والشيخ محيي الدين النووي، وخرج له البرزلي مشيخةً وذكر له أكثر من مئة وخمسين شيخاً، وسمع منه المزي والذهبي والسبكي وابن جماعة وابن رافع وابن كثير والحسيني والمقرئ وابن رجب وابن العراقي وغيرهم. وكان رجلاً جيداً صدوقاً مأموناً صبوراً على الإسماع، محباً للحديث وأهله مع كونه يكتب بيده في حال السماع، وحدث مع أبيه وعمره عشرون سنة، وتوفي يوم الجمعة ثالث رمضان بدمشق عن سبع وثمانين سنة وشهرين، ودفنَ بباب الصغير[١].

٣٣- الشيخ محمد بن جعفر بن فرعوش (٧٢٤)، ويُقالُ له: اللبّاد، ويُعرف بالمُوَلِّهِ، كانَ يقرئ الناسَ بالجامع نحواً من أربعينَ سنة وقد قرأت عليه شيئاً من القُرآنِ، وكانَ يُعَلِّمُ الصغارَ الحروفَ المُشِقَّةَ كالراء ونحوِها، وكان متقللاً من الدنيا لا يقتني شيئاً وليس له بيت ولا خزانةٌ، إنما كان يأكُلُ في السوقِ وينامُ في الجامع. دُفن بباب الفراديس[٢].

٣٤- الشيخ عفيفُ الدين أحمد بن محمد بن عمر بن عثمان بن عمر الصقلي ثم الدمشقي (٧٢٥) إمامُ مسجد الرأس، آخر من حدَّثَ عن ابن الصلاح ببعض «سنن البيهقي»، قال ابن كثير: سمعنا عليه شيئاً منها[٣].

٣٥- الشيخ القاضي المعمَّرُ الفقيهُ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن الفاضل جمال الدين إسحاق بن خليل بن فارس الشيباني اشتغلَ على النواوي، ولازمَ المقدسيَّ، وولي الحكمَ بزُرَع وغيرها، ثم أقام بدمشقَ يشتغل في الجامع، ودرَّس في الصارمية وأعادَ في مدارس عدة إلى أن تُوفي. ودفن بقاسيون، قال ابن كثير: وخرَّج له الذهبي شيئاً وسمعنا عليه الدارقطني وغيرَه[٤].

٣٦- الشيخُ أبو الفتح الدبوسيُّ.

(١) شذارت الذهب ٦/ ١٨١.

(٢) البداية والنهاية ط تركي ١٨/ ٢٤٦.

(٣) البداية والنهاية ط تركي ١٨/ ٢٥٨.

(٤) البداية والنهاية ط التركي ١٨/ ٢٤٨.

ذكره ابنُ حَجَرٍ والفاسيُّ فيمن أجازَ لابن كثير[٥].

٣٧- الشيخ ابنُ الرضيّ

ذكره ابنُ حجر في شيوخ ابن كثير[٦].

٣٨- أبو موسى الغرافيُّ. ذكره محمد عبد الرزاق حمزة في ترجمةِ المؤلف[٧].

٣٩- الحُسينيُّ. ذكره محمد عبد الرزاق حمزة في ترجمة المؤلف[٨].

قلت: ولعلَّه الغَرافي نفسُه[٩].

جوانب من حياته (مع شيخيه وزوجته)

بعد أن اطلعنا على شيءٍ من سيرته في ولادته ونشأته، والأحوال التي سَادت حينها، وتفوُّقِه في حفظ المتون، واطلاعه على موادِّ الحديث والتفسير والتاريخ... وطبيعة مشايخه الذين تَلْمَذَ على أيديهم أو سمعَ منهم أو أُجيزَ من قِبَلِهم... نجدُ أنَّهُ تَعَلَّقَ بحُبِّ الشيخين الجليلين: شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية، وشيخ المحدِّثين أبي الحجَّاج المزّي.

١- أمَّا شيخُ الإسلام[١٠] رحمه اللّه، فقد كانت للمؤلفِ خصوصيةٌ به ومناضلةٌ عنه، واتباعٌ له في كثيرٍ من آرائه وكانَ يُفتي برأيِهِ في مسألةِ الطلاقِ، وامتُحنَ بسببِ ذلك وأوذي. وقد أكثرَ المؤلفُ من ذكر أحداثِ شيخه في «تاريخه»، مُبَجِّلاً له، مبهوراً بعلمِهِ، ووصفَه في كتابِهِ بأوصافٍ قَلَّ أنْ تتفقَ لأحدٍ، حتى إنَّه عَزَمَ على أن يُفردَ ترجمته في رسالة وجيزة، يذكرُ فيها مناقبَه، وفضائله، وشجاعتَه، وكرمَه، ونُصحَه، وزهادته، وعبادتَه، وعلومَه المتنوعةَ الكثيرة المجوَّدة، وصفاتِه الكبارَ والصغارَ...

وقالَ ناقلاً في صفتِه: ما قَطَعَ في مجلسٍ ولا تكلَّمَ معهَ فاضلٌ في فَنٍّ من الفنونِ إلاَّ ظَنَّ أنَّ ذلك الفَنَّ فنُّه، ورآهُ عارفاً به متقناً له.

(٥) «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٤ «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢.

(٦) «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٤.

(٧) في «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» ص١٣.

(٨) المصدر السابق.

(٩) انظر مقارنة «ذيل التقييد» ١/ ٤١٤.

(١٠) «طبقات الشافعية» ٣/ ٨٦، «البداية والنهاية» ١٤/ ١٤١-١٤٥.

ومِن شدةِ حُبِّهِ لهُ، كان يُبرزُ شخصيةَ شيخِ الإسلام في كثيرٍ من التراجم، ليُظْهِرَ فضلَه عليهم، وأنَّهم كانوا من الذيـن تخرَّجُـوا علـى يديه واستفادوا منه. كما كانَ يُشيرُ عند ذكرِ مُبغضيه أنَّهم لا يؤثرونَ فيه، فما مثالُهم إلاَّ مثالُ سَـاقيةٍ ضعيفـةٍكَدِرَةٍ، لاطَمَتْ بحراً عظيمـاً صافياً، أو رملةٍ أرادَتْ زوال جَبَلٍ[١]. وكانَ من لوازمِ كتابِه أن يذكُـر شيخَ الإسلام أصلاً في تراجمه: مَنْ لَزِمَـه، وصَحِبَـه، وكـانَ معاونـاً له... ومَنْ عاندَه وحسدَه وحاوَلَ الإيقاعَ به.

ومع هذا فقد كانَ لطيفَ العبارةِ أحياناً معَ مَنْ ناصبَـه العِـدَاء، ويدعو لهم بالمسامحةِ والغُفران، وكان مهتماً بذكرِ مَنْ كانت له علاقـةٌ بشيخِه، أو كانت له مواقفُ بطوليةٌ معَه، كما في ترجمةِ شرفِ الديـن محمد بن محمد، المعروف بابنِ النجيحِ الحرَّانيِّ.

قال ابنُ كثير: «وقد كان شرفُ الدين بنُ نجيحٍ هذا قد صَحِـبَ شيخنَا العلامةَ تقيَّ الدين ابن تيميَّةَ، وكان معهُ في مواطـن صَعْبـةٍ لا يستطيعُ الإقدامَ عليها إلاَّ الأبطالُ الخُلَّصُ الخـواصُّ، وسُـجِنَ معـه، وكانَ من أكبرِ خُدَّامِـه وخـواصِّ أصحابـه، ينـالُ فيـه الأذى وأوذِيَ بسببه مرَّاتٍ....»[٢].

وقال ابنُ كثير: في ترجمـة الحَكيـم بهـاءِ الديـن عبـد السيـد بـنِ المُهذَّبِ إسحاقَ الطبيب الكحَّال: «أسلمَ على بصيرةٍ، وأسـلمَ علـى يديه خلقٌ كثير من قومه وغيرِهم كانَ قبلَ ذلك دِيَّانَ اليهودِ، وأسلمَ على يدي شيخِ الإسلام ابنِ تيمية لَمَّا بيَّنَ له بُطلانَ دينهـم ومـا هُـم عليه وما بدَّلوه من كتابهم...»[٣].

وقال: في ترجمة المحـدث النَّحْـوي ابـنِ عرفـة صـاحب التذكـرة الكندية: «وكان يلوذُ بشيخِ الإسلام ابنِ تيمية»[٤].

وقـال في ترجمـةِ الشـيخ ابـن الوكيـل: «وكـانَ ينصـبُ العـداوةَ للشيخ ابنِ تَيميَّةَ ويناظرُه في كثيرٍ من المحافلِ والمجالس، وكانَ يعـترفُ للشيخ تقيِّ الدين بالعلوم الباهرة ويثني عليه، ولكنَّـه كـانَ يُجـاحفُ عن مذهبِهِ ونواحيه وهواه...»[٥].

وقالَ في ترجمة أحدِ الزهَّاد محمدِ بن عمر بن أبي بكر بـن قـوام البالسيِّ: «كانَ يومَ قازان في جُملةِ مَنْ كانَ معَ الشيخ تقيِّ الدين بنِ تيميةَ لما تكلَّمَ معَ قازانَ، فحكى عن كلامِ شيخ الإسلام تقيِّ الديـن لقازان وشجاعتِه وجُرأتِه عليه» وذكر قصته مع قازان...[٦]

إلى غير هذا من التراجم التي زَجَّ فيها أقوالَ شيخِ الإسلام ابـن تيمية ـ رحمهما اللّه ـ وذلك يُنْبِئُ عـن عظيـمِ قـدرِه وعلـوِّ منزلتـه عنده. بل كانَ أحياناً يذكرُ له مواقفَ تَدُلُّ من قريـبٍ أو بعيـدٍ أنـه لم يَرَ مثلَ الشيخ في كُلِّ فَنٍّ يُعْرفُ.

ومن الأمثلة على رجـوعِ النـاس إليـه في كثيرٍ مـن الأحـوال، واهتمامِ ابنِ كثيرٍ في إيرادِه ما ذكرَ في حوادثِ سنةِ سبعَ عشرةَ وسبعِ مئة، قال: « وفي صفـر شُـرِعَ في عِمـارة الجـامعِ الـذي أنشـأه ملـكُ الأمراء تنكز نائبُ الشام ظاهرَ بابِ النصر، تجاهَ حكرِ السـماق علـى نهرِ بانياس بدمشقَ، وتردَّدَ القضاةُ والعلماءُ في تحرير قبلتـه، فاسـتقرَّ الحالُ في أمرِها على ما قالهَ الشيخُ تقيُّ الدين ابنُ تيمية»[٧].

ولَمَّا تَعـرَّضَ إلى وفاتـه، طَـوَّلَ في عرضِهـا علـى غـير العـادة، ووَصفَ الدقائقَ التي صاحبت جنازتَه نـاقلاً كبيـرَ ذلـك مـن تـاريخ علمِ الدين القاسمِ بن محمد البرزاليِّ.

ولا شَكَّ أنَّ مثلَ هذا العرض يُبينُ شيئاً مما انتهجَه ابنُ كثـير ـ رحمه اللّه ـ وسببَ اهتمامِهِ بكثيرٍ من القضايا السلفية، والرجـوع إلى الأدلة، وترك المذهب إنْ خالف ما عليه الكتـابُ والسُّـنَّةُ، لـذا نجـدُه يكرِّرُ في «تفسيره»[٨] . مثل هذه العبارة: «وإنَّ الدليـل إذا دَلَّ علـى شيءٍ وَجَبَ اتباعُهُ»...، كما نُلاحظُ أنَّه التزمَ عقيدةَ السلف التي بيَّنَها شيخُه شـيخُ الإسـلام، فقـالَ في مواضـعَ مثـلَ هـذه العبـارة: «وأنَّ المَسْلَكَ الأسلمَ في ذلك طريقةُ السلفِ: إمرارُ ما جـاءَ في ذلـك مـن الكتاب والسنةِ من غير تَكْييفٍ ولا تحْريـفٍ، ولا تَشْبيهٍ ولا تَعْطيلٍ ولا تَمْثيلٍ»[٩] .

٢ـ أمَّا الجانبُ الآخر الذي كان سبباً في تحـوُّلِ الحـافظِ ابـنِ كثيرٍ إلى العناية بمتـونِ الأحـاديث وأسـانيدها، وأسمـاءِ الـرواةِ فيهـا،

(١) كما في «البداية والنهاية» ١٤/ ١١٨.
(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ١١٤.
(٣) «البداية والنهاية» ١٤/ ٧٨.
(٤) «البداية والنهاية» ١٤/ ٨١.
(٥) «البداية والنهاية» ١٤/ ٨٣.
(٦) «البداية والنهاية» ١٤/ ٩١-٩٢.
(٧) «البداية والنهاية» ١٤/ ٨٣.
(٨) ٥/ ٨٥.
(٩) «تفسير ابن كثير» ٥/ ٢٦٨.

ومعرفةِ المناكيرِ والإسرائيليات منها، فهو تـأثُرُهُ بشيخهِ حَـافظِ زمانـه جمال الديـن أبـي الحجّـاج يوسف المِـزّي الـذي تَعَلّـقَ بحُـبِّ شـيخِ الإسلام ابنِ تيميّة أيضاً، ودافع عنه وعن أُطروحاتهِ.

وقربُ المؤلّفِ من الحافظ المِزّيِّ يعودُ إلى ثلاثةِ أمـور: أنّـهُ كـانَ من المخلصين لشيخِ الإسـلام ابـنِ تيميّـةَ[1] وكـانَ مـن المُبدعـين في عصرِه فلم يُلحَقْ في علمِ الأسانيدِ ومعرفتِها والتصنيفِ فيها. وزوّجَه ابنَته زينبَ فكان ابن كثيرٍ صِهْرَه.

لذا نجدُه قد صحبَه في مجالسَ كثيرةٍ ينقُلُ عنه، ويطلُبُ مشورتَه، وإذا وَجَدَ شيئاً من المُعْضِلاتِ رَجَـعَ إليه، فأبـانَ عـن غموضِهـا، وأوجدَ الكلامَ المناسبَ فيها. وهـذا مـا نجـدهُ في تفسيره، فقـد أكـثر النقولَ عن شيخه المِزّيِّ بما لا تجدهُ في كتـبِ المِـزّيِّ ولا فيمـا دَوّنـه، لأنّها كانت مسائلَ شفويةً لم تُحرَرْ بَعْدُ.

وقد كانَ المِزّيُّ ـ رحمه اللّه ـ في نشـأةٍ وبيئةٍ علميـة، نتحـدثُ عنها لإيضاحِ أهمية ارتباطِ ابن كثير به:

أمّا زوجةُ المِزّيِّ فهي أمُّ فاطمةَ عائشةُ بنتُ إبراهيمَ بن صديـق، تُوفّيت سنة (٧٤١) قبل وفاةِ زوجها بعـام، ودُفنت بمقـابر الصوفيـة غربيَّ قبرِ الشيخ تقيِّ الدين ابن تيميـة رحمهـم اللّـه. وكـانت عديمـة النظيرِ في نساء زمانِهـا لكـثرةِ عبادتهـا وتلاوتِهـا وإقرائهـا القُـرآنَ ـ وكانت قد ختت القُرآنَ عند الشيخة الصالحة أم زينب فاطمـةَ بنـتِ عباس بنِ أبي الفتح بن محمـد البغداديـةِ بظـاهرِ القـاهرةِ ـ فـكانت زوجةُ المِزّيِّ تَقرأُ القرآن بفصاحةٍ وبلاغةٍ وأداءٍ صحيحٍ، يعجـزُ كثيرٌ من الرجالِ عن تجويده، وَختَّمَـت نسـاءً كثيرات، وقـرأ عليهـا مـن النسـاء خَلْـقٌ، وانتفعـنَ بهـا وبصلاحِهـا ودينهـا وزُهدِهـا في الدنيـا، وتقللها منها، معَ طولِ العمر، بلغت ثمانين سنَةً أنفقتْها في طاعةِ اللّه صلاةً وتلاوةً. وكانَ الشيخُ المِزيُّ رحمه اللّـه محسناً إليهـا مُطيعـاً، لا يكادُ يُخالفُها لحبِّه لها طَبعاً وشرعاً..[2]

وأمّا ابنتهُ أمَةُ الرحيم زينبُ، فقد زَوّجَها لتلميذِهِ النجيبِ الحافظ ابنِ كثير، وكانت على شاكلةِ أمِّها، فطلبـتِ العلـمَ، وقـرأتِ القـرآنَ عند الشيخة أم زينب البَغْداديّةِ، التي سبقَ ذكرُها.

وقد شاركَ ابنَ كثـير في مصـاهرةِ الشـيخ المـزّي: المحـدّثُ تقـيُّ الدين محمدُ بن صدر الدين سليمانَ الجَعْبَريُّ.

فتزوّجَ ابنتَه الأخرى. وكانَ ودوداً لابـنِ كثـير. قـال المؤلـفُ في وصفِهِ: «والد شرفِ الدين عبدِ اللّه، وجمالِ الدين إبراهيمَ وغيرِهم. كانَ فقيهاً بالمدارس، وشاهداً تحتَ الساعاتِ وغيرها، وعنده فضيلـةٌ جيدة في قراءةِ الحديث وشـيء مـن العربيـة، ولـه نظـمٌ مستحسـنٌ، انقطَعَ يومين وبعـض الثـالث، وتُـوفي ليلـة الاثنين عاشـر جُمـادى الآخرة من سنة (٧٤٥) في وسط الليل، وكنتُ عنده وقـتَ العشـاء الآخرة ليلتَئذٍ، وحَدّثني وضاحكني، وكانَ خَفيفَ الـروح رحمـه اللّـه عَزَّ وجَلّ. ثم تُوفي في بقيـة ليلتِـه رحمـه اللّـه، وكـان أشـهدني عليـه بالتوبة من جميع ما يُسخطُ اللّـه عـز وجـلّ، وأنـه عـازمٌ علـى تـركِ الشهودِ أيضاً رحمه اللّه، صُلّي عليه ظهرَ يـوم الاثنين، ودُفِـنَ بمقـابر باب الصغير عند أبويه رحمهم اللّه»[3].

نشاطُه العلمي في المدارس:

كانَ لعلماء الشامِ مكانةٌ عند ذوي السُّلطة، لذا كَثُرت المـدارسُ التي تُظهر اتجاهاتِ عـدةً ونواحيَ مختلفـة عندهـم، فكـان فيهـا دورٌ للقرآن، وأخرى للحديث، وأُخرى للفقـهِ بـاختلاف أئمتـه، فكـانت مدارسُ للشافعية، وأخـرى للأحنـافِ، وأُخـرى للحنابلـةِ، وأخـرى للمالكيّةِ، وكانت هذه المدارس موضـعَ نـزاعٍ وتنـافُسٍ بـينَ العلُمـاء وشيوخ المذاهب. وقَلَّ أنْ تجـدَ إمامـاً منهـم إلا وقـد تسـلَّمَ وباشـرَ مشيخةَ إحدى هذه الدور والمدارس، فإذا ماتَ الشـيخُ خَلَفَـهُ أنجـبُ أصحابِه، لِيُتَمِّمَ الرسالةَ في تعليم طلبة العلم، والاهتمام بهم..

وتذكُرُ لنا المصادرُ أنّ الإمامَ ابنَ كثـير حَظِـيَ بالمشـيخةِ في عـدة مدارس ودور، منها:

١ ـ دارُ القرآنِ والحديث التنكزية: ذكره أبو المحاسن الحُسيني[4].

وتَقَعُ هذه الدارُ شرقيَّ حمام نور الدين الشهيد بسوق البزوريـة،

---

(١) وأودى الحافظ المزي بسبب ذلك، واتّخذَ أعـداءُ ابـن تيميـة منـه موقفاً نازعوه فيه، لذا نجد أنه لما تسلَّمَ التدريـس في دار الحديـث الأشـرفية عوضاً عن كمال الدين ابن الشريشي، لم يحضر عنـده كبـيرُ أحـدٍ، لِمـا في نفوس بعض الناس من ولايته لذلك، مَع أنه لم يتولّها أحدٌ قبلـه أحـقُّ بهـا منه، ولا أحفظ منه، وما عليه منهم إذ لم يحضروا عنده فإنـه لا يوحشـه إلا حضورُهم عنده، بعدُهم عنه أُنسٌ. انظر «البداية والنهاية» ١٤/ ٩١.

(٢) «البداية والنهاية» ١٤/ ٧٥و ٢٠٠-٢٠١.

(٣) «البداية والنهاية» ١٤/ ٢٢٥.

(٤) في «ذيل تذكرة الحفاظ» ص٥٨.

وتجاهَ دار الذهب، كانت هذه الدارُ حمّاماً يُعرفُ بحمامِ سُويد، فهدمَه نائبُ السلطنة تنكز الملكي الناصري، وجَعَلَه دارَ قُرآنٍ وحديث، وجاءت في غاية الحسن، ورَتّبَ فيها الطلبةَ والمشايخ[١].

١٢ – دارُ الحديثِ الأشرفية: ذكره النُّعيمي، والداوودي[٢].

باشرَ ابنُ كثير مشيختَها فترةً وجيزةً، ثُمّ أُخِذَتْ منه، وهي تَقَعُ بجوار باب القلعةِ الشرقيّ، غربيَّ العصرونية، وشماليَّ القيمازيةِ الحنفية. وقد كانت دارُ الحديث هذا داراً للأمير صارم الدين قايماز بن عبد اللّه النجمي واقف القيمازية، وله بها حَمّام، فاشترى ذلك الملك الأشرفُ مظفر الدين موسى بن العادل. وبناها دار حديث، وأخربَ الحمّامَ، وبناهُ سكناً للشيخ المدرِّس بها[٣].

وقد ولِيَ مشيخة هذه الدار قبلَ ابنِ كثير جماعةٌ من العلماء الأفاضل، منهم: تقيُّ الدين ابنُ الصلاح، وعمادُ الدين ابنُ الحَرَسْتاني، وأبو شامةَ، ومحيي الدين النوويُّ، وزين الدين الفارقيُّ، وصدرُ الدين ابنُ الوكيل، والكمالُ ابن الزَّمْلَكاني، وابن الشَّريشي، وجمالُ الدين المِزّيُّ، وتقيُّ الدين السُّبكي.

وبعدَ موتِ السُّبكي تسلَّمها ابنُ كثير كما قالَ الداوودي[٤].

وكان الشيخُ شمس الدين الذهبيُّ أرادَ أنْ يليَ هذه الدار بعدَ موت المِزّيّ، فلَم يُمكَّنْ من ذلك لفقدِ شرطِ الواقفِ في اعتقاد الشيخ فيه[٥].

٣– مشيخة أم الصالح: ذكره ابنُ قاضي شُهبةَ، والنُّعيميُّ، والداوودي[٦].

وهي المدرسةُ الصالحيَّةُ بتُربة أمِّ الصالح، غربيَّ الطيبة، والجَوْهريَّة الحنفية، وقبليَّ الشامية الجُوّانية بشرق، وقفها الملك الصالحُ أبو الجيش إسماعيلُ بنُ الملكِ العادل سيفِ الدين أبي بكر، المتوفى سنة (٦٤٨)، ودُفِنَ في تُربةِ أم الصالح: ابنهُ الملكُ السعيدُ فتحُ الدين عبد الملك، وابنهُ الملك الكامل محمدٌ، وخاتونُ بنتُ الملكِ الصالح[٧] ...

وقد وليها ابنُ كثيرٍ عقبَ الذهبيِّ، وكانَ الشمسُ الذهبيُّ قد باشَرَ فيها عوضاً عن كمال الدين الشَّريشي الذي تُوفِّي بطريقِ الحجاز سنة (٧١٨) وقد كان له في مشيختها ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً[٨].

تلامذته:

لا شَكَّ أن تلكَ الفترةَ مليئةٌ بالتلاميذِ امتلاءَ المدارس وانتشارَها، وكتبُ السماعات والإجازات والتواريخ مليئةٌ بذكرِ تراجمهم، لكنها مختصرة، لم يُذكر من شيوخهم إلا ما يكونُ كالمثال، وقَلَّ أنْ يُذكَرَ في ترجمةِ الشيخ تلاميذُه أو بعضُهم، لعدمِ كبيرِ جدوى في هذه الإطالة، فمن أرادَ فلينظُر كتب المشيخات، التي قد تتجاوزُ فيه المشيخةُ الواحدة أكثر من ألفِ شيخ كما في « مَشْيخةِ الذهبي » وغيرها مما أفاض بذكره الحافظُ ابنُ كثير في «البداية والنهاية».

وأثناء تَجوالي في كتب التراجم، عثرتُ على بعض تلامذة ابنِ كثير – واستقصاء ذلك يطول – فأذكُرُ ثلاثةً منهم على سبيل المثال:

١ – أحمدُ بنُ حجي بنِ موسى بنِ أحمدَ بنِ سعد بن غشم بنِ غَزْوان بنِ علي بن مسرورِ بنِ تركي، شهاب الدين، أبو العباس، والحُسباني الدمشقيُّ الشافعي، الحافظ، المؤرِّخ (٧٥١–٨١٦) سمعَ الحديثَ من خلائقَ، وأجازَ له خَلْقٌ من بلاد دمشق، وقرأ بنفسِه الكثيرَ، وكتبَ الكثيرَ، واستفاد من مشايخ العصر كالأذرعي، والحُسْباني، وابنِ قاضي الزُّبداني، وابنِ خطيب يَبرودَ، والغَزّيِّ، والتاجِ السُّبكيِّ، وشمسِ الدين المَوْصِليِّ... وتَخَرَّجَ في علوم الحديث بالحافظين ابنِ كثيرٍ وابن رافع. وكتب ذيلاً على تاريخِ ابن كثير وغيره، بدأ فيه من سنة إحدى وأربعين يذكُرُ فيه حوادثَ الشهر، ثم مَنْ تُوفِّي فيه، وهو مفيدٌ جدّاً، كتبَ فيه ستَّ سنين. ثم بدأ من سنةِ تسع وستين، فكتبَ إلى قُبيل وفاته بيسير. قال ابنُ قاضي شُهبةَ: وكانَ قد أوصاني بتكميل الخَرْمِ المذكور، فأكملتُهُ، وأخذتُ التاريخ المذكور، وزدتُ عليه حوادثَ من تواريخ المصريين وغيرهم بقدر ما ذكره الشيخُ، كانَ ابنُ حجي: حسنَ الشَّكْلِ، دَيِّناً، خَيِّراً، وعنده أدبٌ كثير، وحِشْمةٌ، وحسنُ معاشرة: انتهت المشيخةُ

---

(١) «البداية والنهاية» ١٤/ ١٣٨– ١٣٩، «الدارس» ١/ ١٢٣.

(٢) «الدارس» ١/ ٣٦، «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢.

(٣) «البداية والنهاية» ١٣/ ٢٦، «الدارس» ١/ ١٩.

(٤) انظر «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢، «الدارس» ١/ ١٩–٤٧.

(٥) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٣/ ٥٦.

(٦) «طبقات الشافعية» ٣/ ٨٦، «الدارس» ١/ ٣٦، «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢.

(٧) «الدارس في تاريخ المدارس» ١/ ٣١٦–٣١٨.

(٨) «البداية والنهاية» ١٤/ ٩١، «الدارس» ١/ ٣٢٥– ٣٢٦.

في البلادِ الشامية إليه[١]

٢- سعدُ بنُ يوسفَ بنِ إسماعيل بنِ يوسفَ بنِ يعقوبَ بن سرور، سعدُ الدينِ بنُ صدر الدين النُّوويُّ، ثم الخليليُّ الشافعي، نزيلُ دمشق (٧٢٩-٨٠٥) قَدِمَ دمشق بعد الأربعين وسمعَ من عبدِ الرحيم بنِ أبي اليسر، والشمسِ بن نُباتةَ، والذهبيِّ، وتفقَّهَ على الشيخ شمس الدين بن قاضي شُهبةَ، وقرأ على الشيخ ابنِ كثير «مختصره في علوم الحديث» الذي ألَّفَهُ وأذِنَ له بالفتوى. واشتغل بالجامع الأموي، وأعادَ بالناصرية والقَيمريَّة، وكتب في الإجازات، وعلى الفتاوى، وناب في القضاء.[٢]

٣- جمالُ الدين محمدُ بنُ أحمد بنِ محمد بن محمود الكازَروني المَدَني. أجازَ له ابنُ كثير فيما ذكرَ الفاسي، وهو تلميذُ الكازَروني.[٣]

٤- شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن رضوان الحريري الدمشقي المعروف بالسلاوي الشافعي (٧٣٨-٨١٣) سمع من ابن رافع وابن كثير.

ولي قضاء بعلبك ثم المدينة ثم صفد ثم غزة والقدس وغيرها وكان كثير العيال[٤].

٥- وسمعَ منه أيضاً من أقرانه أبو المحاسن الحُسَيني.[٥]

وقد أجازَ الحافظُ ابنُ كثير أيضاً لِمن أدركَ حياتَه[٦].

أقوال العلماء فيه:

١- قال تلميذه الحافظ شهابُ الدين بن حجي:

كانَ أحفظَ مَنْ أدركناه لمتونِ الأحاديث، وأعرفهم بجرحِها، ورجالها، وصحيحها، وسقيمِها. وكان أقرانُه وشيوخُه يعترفون له بذلك، وكان يستحضرُ شيئاً كثيراً من التفسير والتاريخ، قليلَ النِّسيان. وكانَ فقيهاً جَيِّدَ الفهم، صحيح الذهن، يَستحضرُ شيئاً كثيراً، ويحفظُ «التنبيهَ» إلى آخر وقتٍ، ويُشاركُ في العربية مشاركةً جيدة، وينظُمُ الشعرَ، وما أعرفُ أني اجتمعتُ به على كثرةِ تردُّدي إليه إلاَّ وَأفدْتُ منه[٧].

٢- وقال العلامةُ بدرُ الدين العَيني (٨٥٥):

كانَ قدوةَ العلماء والحفَّاظ. وعمدةَ أهلِ المعاني والألفاظ، وسمعَ وجَمَعَ وَصنَّفَ وَدرسَ وحَدَّثَ وألَّفَ، وكانَ له اطلاعٌ عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبطِ والتحرير. وانتهى إليه علمُ التاريخ والحديث والتفسير، وله مُصَنَّفات عديدة مُفيدة[٨].

٣- وقالَ المحدّث الحافظُ شمس الدين الذهبيُّ (٧٤٨):

وسمعتُ معَ الفقيهِ المحدِّث ذي الفضائل عماد الدين إسماعيلَ بنِ عمر بن كثير البُصْرويِّ.. وله عنايةٌ بالرجالِ والتفقُّهِ، خَرَّجَ وألَّفَ وناظرَ وصَنَّفَ وفَسَّرَ وتقدَّمَ[٩].

وقال في «المعجم المختص»: فقيهٌ مُتَفَنِّنٌ، ومُحدِّثٌ متقن، ومفسِّرٌ نَقَّادٌ[١٠].

٤- وقالَ ابنُ حبيب:

إمامُ ذوي التسبيح والتهليل، زعيم أرباب التأويل، وسمعَ وجَمَعَ وصَنَّفَ وأطرب الأسماعَ بقوله وشَنَّفَ، وحَدَّثَ وأفادَ، وطارت أوراقُ فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رئاسةُ العلم في التاريخ والحديث والتفسير[١١].

٥- وقالَ ابنُ حجر العَسْقلانيُّ (٨٥٢):

كانَ كثيرَ الاستحضار، حسنَ المفاكهةِ، سارَتْ تصانيفهُ في البلاد في حياته، وانتفَعَ بها الناسُ بعدَ وفاته، ولم يكن على طريق المحدثين

---

(١) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٤/ ١٢-١٤، «إنباء الغمر» ٧/ ١٢١- ١٢٤، «الشذرات» ٧/ ١١٦- ١١٨، «لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ» لابن فهد ص٢٤٧-٢٥٠، «الضوء اللامع» ١/ ٢٦٩، «الدارس» ١/ ١٣٨

(٢) «الضوء اللامع» ٣/ ٢٥٤، «الدارس» ١/ ٣٢٠، «إنباء الغمر» ٥/ ١٠١.

(٣) «ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢.

(٤) «شذرات الذهب» ٧/ ١٠٠-١٠١.

(٥) في «ذيل التذكرة» ص٥٩.

(٦) «إنباء الغمر» ١/ ٤٦ -٤٧.

(٧) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٣/ ٨٦، الدارس ١/ ٣٦، «الشذرات» ٦/ ٢٣١، «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢.

(٨) «النجوم الزاهرة» ١١/ ٩٨.

(٩) «تذكرة الحفاظ» ٤/ ١٥٠٨.

(١٠) «طبقات المفسرين» ١/ ١١٢، «إنباء الغمر» ١/ ٤٦، «الشذرات» ٦/ ٢٣١.

(١١) «إنباء الغمر» ١/ ٤٦.

في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فُنونهم، وإنما هو من مُحدِّثي الفُقهاء[١].

٦ـ وقالَ أبو المحاسن الحُسيني (٧٦٥):

أفتى ودَرَّسَ وناظَرَ في الفقه والتفسير والنحو، وأمعَنَ النظر في الرجال والعِلَلِ[٢].

٧ـ ووصفَه بحفظ المتون وكثرة الاستحضار جماعةٌ منهم الحُسيني والعراقيُّ و... نقلَه ابن حجر، وعنه ابنُ العماد[٣].

وفاته رحمه الله:

ماتَ في خامس عشر شعبان بدمشق فيما ذكَر ابن حجر وغيرُه[٤]. وقالَ الفاسيُّ: سادس عشر[٥] وقالَ ابنُ تغري بردي: سادس عشرين[٦].

ودُفِنَ بوصيةٍ منه في تربةِ شيخ الإسلام ابن تيمية بمَقْبُرةِ الصوفية[٧]. وكانَ أضَرَّ في أواخرِ عمرِه[٨].

رثاؤه من طلبته

وصلنا من ذلك بيتان، رثاه بهما بعضُ طلبته فيما ذكر ابنُ تَغْري بَرْدي:

لِفَقْدِكَ طُلاَّبُ العلومِ تأسَّفُوا وجادوا بدَمْعٍ لا يَبِيدُ غزيرِ
ولَوْ مَزَجوا ماءَ المدامعِ بالدِّما لكانَ قليلاً فيك يا ابنَ كثيرِ[٩]

كتبهُ:

١ـ « جامع المسانيد والسنن »: كما عند ابن حجر وغيره.

وسمَّاه أبو المحاسن الحسيني وغيرُه: « الهدي والسُّنن في أحاديث المسانيد والسُّنن » أحمدُ، والبزارُ، وأبو يَعْلَى، وابنُ أبي شيبة، والستةُ.

وسمَّاه ابنُ قاضي شُهبةَ، والداوودي، وابنُ العماد: « المسانيد العشرة ».

وأصلُ الكتاب: أنَّ الحافظَ شمسَ الدين ابن المحبِّ المعروف بالصامت رَتَّبَ « مسند أحمد » على ترتيب حروف المعجم، حتى في التابعين المكثرين عن الصحابة، فأعجب ابنَ كثير، واستحسَنَه، وقال ابنُ حجر: ورأيتُ النسخةَ بدمشق بخَطِّ ولدِه عمرَ. فألحقَ ابنُ كثير ما استحسنه في الهوامش من الكتب الستة ومُسنديْ أبي يعلى، والبزَّارِ، ومعجَمَي الطبراني ما ليس في المسند، وسَمَّى الكتاب «جامع المسانيد والسنن». وكُتبت عنه عدةُ نُسَخٍ نُسِبَتْ إليه، وهو الآنَ في أوقافِ المدرسة المحموديةِ، المتنُ ترتيبُ ابنِ المُحبِّ، والإلحاقاتُ بخطِّ ابنِ كثير في الهوامش والعصافير. وقد كنت رأيتُ منه نُسْخَةً بَيْضَها عمرُ بنُ العماد بن كثير مما في المتن والإلحاق، وكُتبَ عليه الاسم المذكور.[١٠].

قلت: وقد طُبِعَ الكتاب بتمامِه.

٢ـ «البداية والنهاية»:

وهوَ كتابٌ مبسوط، يبدأ من خلق العرش، والكرسي، والسموات والأرض، ثم الملائكةِ، والجن والشياطين، ثم خلق آدم عليه السلام، وقَصصِ الأنبياء، ثم أيام بني إسرائيل، والجاهلية، ثم السيرةِ النبويةِ، ثم الشمائلِ المحمديَّةِ، ثم الأحداث من وفاةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيان بعض التراجم المهمة في أحداث كُلِّ سنة مِمَّنْ ماتَ فيها، وانتقى تاريخَه هذا من الطبريِّ وغيره، وانتهى به من تاريخ البرزاليِّ، سنة (٧٣٨). ويمتازُ تاريخُهُ بإيرادِ الآيات والأحاديث النبوية واعتمادها في القسم الأول، والإشارة إلى بعض الإسرائيليات، ونَقْدِ بعض الأحاديث وبيانِها، ويؤاخذُ بخَلَلٍ في مادةِ التراجم، إذ إنه قد يترك ذكرَ بعض المشاهير، فلا يُترجم لهم وهذا الذي ذكرتُ، مطبوعٌ بكامله عدةَ طبعاتٍ.

ويتلوه قسمٌ في الفتن والملاحمِ وأشراطِ الساعة والبعث والنشور وأهوالِ القيامة، وصفة الجنة والنار، طُبِعَ مستقلاً عن الكتاب ـ وهو منه كما نَبَّهَ المؤلِّفُ عليه في المقدمة ـ باسم « النهاية

---

(١) «الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٤.
(٢) «ذيل التذكرة» ص٥٨.
(٣) « إنباء الغمر» ١/ ٤٦، «الشذرات» ٦/ ٢٣١
(٤) « إنباء الغمر» ١/ ٤٦
(٥) « ذيل التقييد» ١/ ٤٧٢.
(٦) « النجوم الزاهرة» ١١/ ٩٨، « الدليل الشافي على المنهل الصافي» ١/ ١٢٧.
(٧) « الردّ الوافر» ص١٦٢، « المدارس» ١/ ٣٧، « طبقات الشافعية» ٣/ ٨٦.
(٨) « الدرر الكامنة» ١/ ٣٧٤.
(٩) « النجوم الزاهرة» ١١/ ٩٩، « الدليل الشافي» ١/ ١٢٧.
(١٠) « إنباء الغمر» ١/ ٤٧.

في الفتن والملاحم».

٣ـ « التفسير »: وقد أوردَه للمؤلفِ معظمُ مَنْ ترجمَ له، كابنِ حجر، وابنِ قاضي شُهبةَ، وابن تَغْري بردي، والداوودي.. وجعلوه من أهمِّ ما كتبَ وأَلَّفَ، لأنهُ أبرزَ فيه جملةً من العلوم من حيثُ اللغةُ، والقراءات، والفقهُ، والتفسيرُ، والتاريخُ، والحديثُ، ونقدُ الرجال، ومعرفةُ الإسرائيلياتِ ونحوُها.

٤ـ «التكميل » : سمَّاه الفاسي وغيره: « التكميل في معرفة الثقاتِ والضعفاء والمجاهيل». وسمَّاه حاجي خليفة: «التكملة في أسماء الثقات والضعفاء ».

وهو كتابٌ جمعَ فيه بين ما اختصره منْ «تهذيب الكمال » ، ومالم يُذكر فيه من « ميزان الاعتدال »، وزياداتٍ أخرى ليست فيهما في الجرح والتعديلِ.

٥ـ «طبقات الشافعية »: كما عند الحُسيني، وابن حَجَر، وابنِ قاضي شُهبةَ، وابنِ العماد، والداوودي. وسمَّاه ابنُ تَغْري بَردي: «طبقات الفقهاء »، وفي «كشف الظنون »: «طبقات عماد الدين ابن كثير». وسمَّاه البغدادي «طبقات العلماء»[1] .

قالَ ابن قاضي شهبة: رَتَّبَهُ على الطبقات، لكنَّه ذكرَ فيه خلائقَ ممَّن لا حاجةَ لطلبةِ العلم إلى معرفةِ أحوالهم، فلذلك جَمَعْنا هذا الكتاب.[2]

٦ـ «كتاب كبير في الأحكام » : ذكَره ابنُ حجر، وابنُ قاضي شُهبةَ، والداووديُّ، وابنُ العِمادِ. وهو كتابٌ لم يكمُلْ، وقد أكثر المؤلِّفُ من النقلِ عنه والإحالةِ إليه في كتابه التفسير، وذكرَ ابنُ قاضي شُهبةَ أنه وَصَلَ فيه إلى الحَجِّ!!

٧ـ « شرحُ صحيح البخاريّ »: ذكره ابنُ قاضي شُهبةَ، وابنُ حجر، وابنُ تغري بردي، وابنُ العماد، والداووديُّ، وحاجي خليفة.

وقالوا: إنَّه لم يُكمِله، أو شرَعَ فيه، أو شَرَحَ قطعةً منه. وقد أحال إلى هذا الكتاب في مواضعَ من كتابِه التفسير.

٨ـ « أحكام التنبيه »: ذكره أبو المحاسن الحُسيني. وقال ابنُ قاضي شُهبةَ والداووديُّ: إنه شَرَح قطعة من «التنبيه».

٩ـ «تخريجُ أدلة التنبيه »: ذكره ابنُ حَجَرٍ في «الدرر».

١٠ـ «تخريجُ أحاديث مختصرِ ابن الحاجب »: ذكرَه ابنُ حجر، وابنُ قاضي شهبة، وابنُ تغري بدري، والداوودي، وقال ابنُ قاضي شُهبةَ: وكتبَ رفيقُه الشيخُ تقيُّ الدين ابنُ رافع لنفسِه منه نُسخةً. قلت: وقد طُبِعَ.

١١ـ «الواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن إدريس »: كما في «كشف الظنون ». وذكره ابنُ تغري بردي والدووديُّ باسمِ مناقب الإمام الشافعي.

١٢ـ «اختصارُ علوم الحديث »: ذكَره جمعٌ، وقد قرأه عليه تلاميذُهُ. وهو تهذيبٌ لمقدمةِ ابنِ الصَّلاح في مُصطلحِ الحديث، اختصَرَها وزادَ عليها بعض التعقُّبات والفوائدِ المُهمَّة. وقد طُبِعَ بشرحِ أحمد شاكر رحمه اللّه، وسمَّاه: «الباعثُ الحثيثُ شرحَ اختصار علوم الحديث ».

١٣ـ «الاجتهادُ في طلب الجهاد »: ذكره حاجي خليفة ١/ ١٠.

وهو رسالة كتَبها المؤلفُ تلبيةً لرغبة نائب الشام الأمير منجك بنِ عبد اللّه سيفِ الدين اليوسُفي المتوفَّى سنة (٧٧٦) يحكي فيها أحداثَ الصراع بين المسلمين والصليبيين خلالَ القرنِ الثامن (الفترة التي عاشها ابنُ كثير). بدأ فيه المؤلِّفُ بمقدمةٍ ذكر فيها الآيات التي تَحُضُّ على الجهاد في سبيل اللّه، ثم أوردَ بعضَ ما جاء في الأحاديث النبوية، فسَرَدَ ثلاثةَ عشرَ حديثاً، ثم شرعَ في الحديث عن الصِّراع بين المسلمين والصليبيين، فذكر ما كانَ من هجومِ الفرنج على ثغر الإسكندرية، وتصدي المسلمين لهم، ثم يذكُرُ جهودَ المسلمين المستمرَّةِ للجهاد في سبيل اللّه في بلادِ الشام على عهد الرسولِ وخلافة الراشدين، ومن جاءَ بعدهم، كما تعرَّضَ لاستيلاء الفرنج على بيت المقدس، وتصديُ صلاح الدين الأيوبي لهم، وانتزاعِه من أيديهم، واسترجاع البلاد المجاورة مثل: غَزَّةَ، ونابلس، وعَجْلونَ، والكَرَكِ، والغَوْرِ، والشَّوبكِ، وصَفَدَ. كذا ذكر محقِّقُ «البداية والنهاية ».

١٤ـ «سيرةٌ صغيرة »: ذكرها ابنُ قاضي شهبة، والداوودي، وابنُ العماد.

١٥ـ «الأحكامُ الصُّغرى في الحديث »: ذكره حاجي خليفة

---

(١) هدية العارفين ٢/ ٢١٥.

(٢) « طبقات الشافعية» ٣/ ٨٦.

١/ ١٩.

١٦ـ «الكواكب الدّراري»: انتخبة من تاريخهِ الكبير. ذكره حاجي خليفة (٢/ ١٥٢١).

١٧ـ «مختصر كتاب المُدْخَل للبيهقي»: ذكره المؤلفُ في مقدمة كتابه «اختصار علوم الحديث» ص١٧.

١٨ـ «مسندُ الشيخين»: ذكره المؤلف في «البداية والنهاية» ٧/ ١٨، وكأنّه من «جامع المسانيد».

١٩ـ «مسألةُ السماع»: ذكره حاجي خليفة ٢/ ١٠٠١.

٢٠ـ «الفصولُ في سيرةِ الرسول»: ذكره حاجي خليفة ٢/ ١٩٤. وهو قسم من «البداية والنهاية». طُبِعَ غيرَ مرةٍ، وكذا طبع «الشمائل المحمدية» و «قصصُ الأنبياء». وهما من «البداية».

٢١ـ «فضائل القرآن» وهو مطبوعٌ.

مصادر الترجمة

١ـ «إنباء الغمر بأبناء العُمر» لابن حجر العسقلاني (٨٥٢) ـ عالم الكتب.

٢ـ «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون» لإسماعيل باشا البغدادي ـ دار الفكر ـ ٢/ ١٩٤.

٣ـ «الباعث الحَثيث شرح اختصار علوم الحديث» لأحمد شاكر ـ دار الفكر.

٤ـ «البداية والنهاية»، لابن كثير (٧٧٤) ـ دار الكتب العلمية، بتحقيق جماعة.

٥ـ «البدر الطالع بمحاسن مَنْ بَعْدَ القرن السابع» لمحمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠) ـ دار المعرفة.

٦ـ «تذكرة الحُفاظ» للإمام الذهبي (٧٤٨) ـ دار الفكر العربي.

٧ـ «تفسير ابن كثير» ـ ط الشعب ـ مصر.

٨ـ «الدارس في تاريخ المدارس» لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (٩٢٧) ـ تحقيق جعفر الحسني.

٩ـ «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» لابن حجر العسقلاني (٨٥٢) ـ مُصَوَّرة إحياء التراث..

١٠ـ «درة الحجال في أسماء الرجال» لأبي العباس ابن القاضي ـ تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ـ دار التراث..

١١ـ «الدليل الشافي على المنهل الصافي» لابن تغري بردي (٨٧٤) ـ جامعة أم القُرى.

١٢ـ «دول الإسلام» للذهبي (٧٤٨) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٣ـ «ذيل تذكرة الحفاظ» لأبي المحاسن الحُسيني (٧٦٥) ـ دار الفكر العربي.

١٤ـ «ذيل العِبَر» لأبي المحاسن الحسيني ـ دار الكتب العلمية.

١٥ـ «ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد» لمحمد بن أحمد الفاسي المكي المالكي (٨٣٢) ـ تحقيق كمال الحوت ـ العلمية.

١٦ـ «الردّ الوافر على مَنْ زَعَمَ بأنَّ مَنْ سَمَّى ابنَ تيمية شيخَ الإسلام كافر» لابن ناصر الدين الدمشقي (٨٤٢). تحقيق زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي.

١٧ـ «شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذَهَبَ» لابن العماد الحنبلي (١٠٨٩) ـ دار الفكر.

١٨ـ «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للسخاوي (٩٠٢) ـ دار مكتبة الحياة.

١٩ـ «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (٨٥١) ـ عالم الكتب.

٢٠ـ «طبقات المفسرين» لشمس الدين محمد بن علي الداوودي (٩٤٥) ـ العلمية.

٢١ـ «العبر في خبر مَنْ غَبَر» للذهبي (٧٤٨) ـ دار الكتب العلمية.

٢٢ـ «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة (١٠٦٧) ـ دار الفكر ١/ ١٠و١٩ و٢٢٨و٤٣٩ و٤٧١ و٥٥٠ و٥٧٣ و ٢و/ ١٠٠١و١١٠٥و١١٦٢و١٥٢١و١٨٤٠.

٢٣ـ «لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ». لابنَ فهد (٨٧١) ـ دار الفكر العربي.

٢٤ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري

بردي (٨٧٤) ـ دار الكتب العلمية.

٢٥ـ «هديةُ العارفين من كشف الظنون» لإسماعيل باشا البغدادي ـ دار الفكر.

٢٦ـ «الوافي بالوفيات» للصفدي (٧٦٤). دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن ـ بيروت.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد للّه الأول الآخر، الباطن الظاهر، الذي هو بكل شيء عليم، الأول فليس قبله شيء، الآخر فليس بعده شيء، الظاهر فليس فوقه شيء، الباطن فليس دونه شيء، الأزلي القديم الذي لم يزل موجوداً موصوفاً بصفات الكمال، ولا يزال دائماً مستمرا باقيا سرمديا بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال. يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وعدد الرمال. وهو العلي الكبير المتعال، العلي العظيم الذي ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[الفرقان: ٢]

و﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾.[الرعد: ٢]، وزينها بالكواكب الزاهرات، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾.[الفرقان: ٦١] وسوى فوقهن سريرا، شرجعا عاليا منيفا متسعا مقيبا مستديرا. وهو العرش العظيم - له قوائم عظام، تحمله الملائكة الكرام، وتحفه الكروبيون عليهم الصلاة والسلام، ولهم زجل بالتقديس والتعظيم. وكذا أرجاء السماوات مشحونة بالملائكة، ويفد منهم في كل يوم سبعون ألفا إلى البيت المعمور بالسماء السابعة لا يعودون إليه، آخر ما عليهم في تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم.

ووضع الأرض للأنام على تيار الماء. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾.[فصلت: ١٠] قبل خلق السماء، وأنبت فيها من كل زوجين اثنين دلالة للأبياء من جميع ما يحتاج العباد إليه في شتائهم وصيفهم، ولكل ما يحتاجون إليه ويملكونه من حيوان بهيم.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾[السجدة: ٧]، و﴿جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾[السجدة: ٨]، في قرار مكين فجعله سميعا بصيرا، بعد أن لم يكن شيئا مذكورا. وشرفه بالعلم والتعليم. خلق بيده الكريمة آدم أبا البشر، وصور جثته ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وخلق منه زوجه حواء أم البشر فآنس بها وحدته، وأسكنهما جنّته، وأسبغ عليهما نعمته. ثم أهبطهما إلى الأرض لما سبق في ذلك من حكمة الحكيم. وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، وقسمهم بقدره العظيم ملوكا ورعاة، وفقراء وأغنياء، وأحراراً وعبيداً، وحرائر وإماء. وأسكنهم أرجاء الأرض، طولها والعرض، وجعلهم خلائف فيها يخلف البعض منهم البعض، إلى يوم الحساب والعرض على العليم الحكيم. وسخر لهم الأنهار من سائر الأقطار، تشق الأقاليم إلى الأمصار، ما بين صغار وكبار، على مقدار الحاجات والأوطار، وأنبع لهم العيون والآبار. وأرسل عليهم السحائب بالأمطار، فأنبت لهم سائر صنوف الزروع والثمار. وآتاهم من كل ما سألوه بلسان حالهم وقال لهم: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[النحل: ١٨] ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤]: فسبحان الكريم الغني العظيم الحليم.

وكان من أعظم نعمه عليهم. وإحسانه إليهم، بعد أن خلقهم ورزقهم ويسر لهم السبيل وأنطقهم، أن أرسل رسله إليهم، وأنزل كتبه عليهم: مبينة حلاله وحرامه، وأخباره وأحكامه، وتفصيل كل شيء في المبدأ والمعاد إلى يوم القيامة.

فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم، والأوامر بالانقياد والنواهي بالتعظيم. ففاز بالنعيم المقيم، وزحزح عن مقام المكذبين في الجحيم ذات الزقوم والحميم، والعذاب الأليم.

أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه يملأ أرجاء السماوات والأرضين، دائماً أبد الآبدين، وذهر الداهرين، إلى يوم الدين، في كل ساعة وأوان ووقت وحين، كما ينبغي لجلاله العظيم، وسلطانه القديم ووجهه الكريم.

وأشهد أن لا إلهَ إلا اللّه وحده لاشريك له، ولا ولد له ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا نظير له ولا وزير له ولا مشير له، ولا عديد ولا نديد ولا قسيم.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، المصطفى من خلاصة العرب العرباء من الصميم، خاتم الأنبياء، وصاحب الحوض الأكبر الرواء، صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة، وحامل اللواء الذي يبعثه اللّه المقام المحمود الذي يرغب إليه فيه الخلق كلهم حتى الخليل إبراهيم صلى اللّه عليه وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين وسلم وشرف وكرم أزكى صلاة وتسليم، وأعلى تشريف وتكريم. ورضي اللّه عن جميع أصحابه الغرّ الكرام، السادة النجباء الأعلام، خلاصة العالم بعد الأنبياء. ما اختلط الظلام بالضياء، وأعلن الداعي بالنداء وما نسخ النهار ظلام الليل البهيم.

أما بعد: فهذا كتاب أذكر فيه بعون اللّه وحسن توفيقه ما يسره اللّه تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات، من خلق العرش والكرسي والسماوات والأرضين وما فيهنّ وما بينهنّ من الملائكة والجانّ والشياطين وكيفية خلق آدم عليه السلام وقصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات اللّه وسلامه عليه. فنذكر سيرته كما ينبغي فنشفي الصدور والغليل، ونزيح الداء عن العليل. ثم نذكرُ ما بعدَ ذلك إلى زماننا، ونذكرُ الفِتَنَ والْمَلاحِمَ، وأشراطَ السّاعةِ، ثم البعثَ والنُّشُورَ وأهوالَ القيامةِ، ثم صفّةَ ذلك، وما في ذلك اليوم، وما يقعُ فيه مِن الأمورِ الهائِلةِ، ثم صفةَ النارِ، ثم صفةَ الجنان، وما فيها من الخَيْراتِ الحِسان، وغيرَ ذلك، وما يتعلّقُ به، وما وردَ في ذلكَ من الكتابِ والسُّنّةِ والآثارِ والأخبارِ المنقولةِ المقبولةِ عندَ العلماءِ ورَثَةِ الأنبياءِ، الآخِذينَ مِن مِشْكاةِ النُّبُوّةِ المُصْطَفَوِيّةِ المحمديّةِ، على مَن جاءَ بها أفضلُ الصلاةِ والسلامِ.

ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب اللّه، وسنة رسوله ﷺ وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب، مما فيه بسط لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه. وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ، ما صح نقله أو حسن وما كان فيه ضعف نبينه. وباللّه المستعان وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا باللّه العزيز الحكيم العلي العظيم.

فقد قال اللّه تعالى في كتابه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً﴾ [طه: ٩٩] وقد قص اللّه على نبيه ﷺ خبر ما مضى من خلق المخلوقات، وذكر الأمم الماضين، وكيف فعل بأوليائه، وماذا أحل بأعدائه. وبين ذلك رسول اللّه ﷺ لأمته بياناً شافياً، سنورد عند كل فصل ما وصل إلينا عنه صلوات اللّه وسلامه عليه من ذلك تلو الآيات الواردات في ذلك فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك، وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ويتراجم في فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس. وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا أيضاً، ولسنا نحذو حذوهم ولا نتحو نحوهم ولا نذكر منها إلا

القليل على سبيل الاختصار. ونبيّن ما فيه حق منها يوافق ما عندنا، وما خالفه فوقع فيه الإنكار.

فأما الحديث الذي رواه البخاري رحمه اللّه في صحيحه [٣٤٦١ دون قوله: وحدثوا عني ولا تكذبوا عليّ] عن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِّي ولو آيَةً، وحَدِّثُوا عَن بَنِي إسْرَائِيلَ ولاحَرَجَ، وحَدِّثُوا عنّي ولا تَكْذِبُوا عَلَيَّ ومَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا. فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها، فيجوز روايتها للاعتبار. وهذا هو الذي نستعمله في كتابنا هذا.

فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بما عندنا. وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته، إلا على سبيل الإنكار والإبطال فإذا كان اللّه، سبحانه وله الحمد، قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع وبكتابه عن سائر الكتب.

فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما قد وقع فيه خبط وخلط، وكذب ووضع، وتحريف وتبديل، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير. فالمحتاج إليه قد بينه لنا رسولنا، وشرحه وأوضحه. عرفه من عرفه، وجهله من جهله. كما قال علي بن أبي طالب (كتاب اللّه فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبّار قصمه اللّه، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله اللّه) [ت (٢٩٠٦)، أحمد ٩١/١ مرفوعاً].

وقال أبو ذر، رضي اللّه عنه: (لقد توفي رسول اللّه ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا أذكَرَنَا منه عِلْماً) [أحمد: ١٥٣/٥، ١٢٦ المجمع: ٢٦٣/٨، ٢٦٤].

وقال البُخاريُّ في كتابِ بَدْءِ الخَلْقِ[٣١٩٢]: ورَوَى عيسى بنُ موسى غُنْجَارُ، عن رَقَبَةَ، عن قيسِ بنِ مسلم، عن طارق بن شهاب، قال: سمعتُ عُمَرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللّهُ عنه يقولُ: قامَ فينا رسولُ اللّهِ ﷺ مَقاماً، فأخبرنا عن بَدْءِ الخَلقِ حتى دخَلَ أهلُ الجنةِ منازلَهم، وأهلُ النارِ منازلَهم، حفِظَ ذلك مَن حفِظَه، ونَسِيَه مَن نَسِيَه. قال أبو مسعودٍ الدِّمَشْقِيُّ في «أطرافِه»: هكذا قال البخاريُّ، وإنما رواه عيسى غُنْجارُ عن أبي حَمْزَةَ، عن رَقَبَةَ.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللّه في مسنده [٣٤١/٥]: حدثنا أبو عاصم حدثنا عزرة بن ثابت، حدثنا علباء بن أحمر اليشكري، حدثنا أبو زيد الأنصاري، قال: «صلى بنا رسول اللّه ﷺ صلاة الصبح ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى الظهر. ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى العصر. ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان، وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا».

انْفَرد بإخراجه مسلمٌ[٢٨٩٢]، فرواه في كتابِ الفِتَنِ من «صحيحِه»، عن يعقوبَ بنِ إبراهيمَ الدَّوْرَقِيِّ، وحَجّاجِ بنِ الشاعِرِ، جميعاً عن أبي عاصمٍ الضَّحّاكِ بنِ مَخْلَدٍ النَّبيلِ، عن عَزْرَةَ، عن عِلْباءَ، عن أبي زيدٍ عمرِو بنِ أخْطَبَ بنِ رَفاعَةَ الأنْصاريِّ، رَضيَ اللّهُ عنه، عن النَّبيِّ ﷺ بنَحْوِه.

وقال الإمامُ أحمدُ[١٩/٣]: حدَّثنا يزيدُ بنُ هارونَ وعفّانُ، قالا: حدَّثنا حمّادُ بنُ سَلَمَةَ، أخبرنا عليُّ بنُ زَيْدٍ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيدٍ قال: خطَبَنا رسولُ اللّهِ ﷺ خُطْبَةً بعدَ العصرِ إلى مُغَيْربانِ الشَّمسِ، حَفِظَها مَنْ حَفِظَها، ونَسِيَها من نَسِيَها ـ قال عفّانُ: قال حمّادٌ: وأكثرُ حِفْظِي أنه قال: بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامَةِ ـ فحَمِدَ اللّهَ وأثْنَى عَلَيْه ثمَّ قال: «أمّا بعدُ، فإنَّ الدُّنيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وإنَّ اللّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيها فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُون، ألا فاتَّقُوا الدُّنْيا واتَّقُوا النِّساءَ». وذكَرَ تمامَ الخُطْبَةِ إلى أن قال: فلمّا كان عِنْدَ مُغَيْربانِ الشَّمسِ قال: «ألا إنَّ مِثْلَ مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيا فِيمَا مَضَى مِنْهَا مِثْلُ ما بَقِيَ مِن يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ».

ثُمَّ قال الإمامُ أحمدُ[٦١/٣]: ثنا عبدُ الرَّزّاقِ، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن عَلِيِّ بنِ زَيْدِ بن جُدْعانَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سَعيدٍ، قال: صَلَّى بنا رسولُ اللّهِ ﷺ صَلاةَ العَصْرِ ذَاتَ يَوْمٍ نَهَاراً، ثُمَّ قامَ فخَطَبَنا إلى أنْ غَابتِ الشَّمْسُ، فلم يدَعْ شَيْئاً مِمّا يَكونُ إلى يومِ القِيامَةِ إلاّ حَدَّثَناهُ، حفِظَ ذلك مَنْ حَفِظَه ونَسِيَ ذلكَ مَنْ نَسِيَهُ، فكان مِمّا قال: «يَا أيُّهَا النَّاسُ، إنَّ الدُّنْيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وإنَّ اللّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيها فَنَاظِرٌ كيفَ تَعْمَلُون، فاتَّقُوا الدُّنْيا وَاتَّقُوا النِّساءَ» وذكَرَ تَمَامَهَا إلى أنْ قال: ثمَّ دَنَتِ الشَّمْسُ أنْ تَغْرُبَ، فقال: «وإنَّ ما بَقِيَ مِن الدُّنْيا فيما مَضَى منها مِثْلُ ما بَقِيَ مِن يَوْمِكُمْ هذا فيما مَضَى مِنْه». وهذا هو المَحْفُوظُ، واللّهُ أعلَمُ.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

١- كتاب بدء الخلق

١- بداية الخلق

قال اللّه تعالى في كتابه العزيز: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الزمر: ٦٢] فكل ما سواه تعالى فهو مخلوق له، مربوب مدبَّر، مكوَّن بعد أن لم يكن محدث بعد عدمه. فالعرش الذي هو سقف المخلوقات إلى ما تحت الثرى، وما بين ذلك من جماد وناطق الجميع خلقه، وملكه وعبيده وتحت قهره وقدرته، وتحت تصريفه ومشيته ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد: ٤].

وقد أجمع العلماء قاطبة لا يشك في ذلك مسلم أن اللّه خلق السماوات والأرض، وما بينهما في ستة أيام كما دل عليه القرآن الحكيم.

واختلفوا في هذه الأيام أهي كأيامنا هذه أو كل يوم كألف سنة مما تعدون؟ على قولين كما بينا ذلك في التفسير [٤٢٢/٣]، وستعرض لإيراده في موضعه.

واختلفوا هل كان قبل خلق السماوات والأرض شيء مخلوق قبلهما:

فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شيء وأنهما خلقتا من العدم المحض.

وقال آخرون: بل كان قبل السماوات والأرض مخلوقات أخر لقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]الآية.

وفي حديث عمران بن حصين [خ (٣١٩١) مطوّلاً، وعنده فيه «شيء غيره» بدلاً من «قبله شيء»] كما سيأتي «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ شَيْءٌ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ثُمَّ خَلَقَ السماوات والأرْضَ».

وقال الإمام أحمد بن حنبل [١٢/٤]: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا يعلى بن عطاء، عن وكيع بن حُدس عن عمه أبي رَزين لقيط بن عامر العقيلي أنه قال: «يا رسول اللّه أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: «كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ».

ورواه عن يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة به. ولفظه: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ وباقيه سواء.

وأخرجه الترمذي [٣١٠٩] عن أحمد بن منيع وابن ماجه [١٨٢] عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن الصباح ثلاثتهم عن يزيد بن هارون، وقال الترمذي: حسن.

٢- أول المخلوقاتِ

واختلف هؤلاء في أيها خلق أولاً؟.

فقال قائلون: خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها، وهذا هو اختيار ابن جرير [تاريخ: ٣٤/١] وابن الجوزي [المنتظم: ١٢٠/١، ١٢١] وغيرهما.

قال ابن جرير [تاريخ: ٣٧/١]: وبعد القلم السحاب الرقيق.

واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد [٣١٧/٥]، وأبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥) عن عبادة بن الصامت رضي اللّه عنه: قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» لفظ أحمد.

وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

والذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره أن العرش مخلوق قبل ذلك وهذا هو الذي رواه ابن جرير [تاريخ: ٣٩/١] من طريق الضحاك عن ابن عباس. كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (٢٦٥٣).

حيث قال: حدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح، حدثنا ابن وهب، أخبرني أبو هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السماوات والأَرْضَ بِخَمْسِينَ ألفَ سَنَةٍ، قال وعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ».

قالوا فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير.

وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجمهور.

ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم. ويؤيد هذا ما رواه البخاري [٧٤١٨] عن عمران بن حصين: قال: قال أهل اليمن لرسول اللّه ﷺ: «جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ» وفي رواية «معه»، [٣١٩١] وفي رواية «غيره» وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ. وكَتَبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شَيْءٍ وخَلَقَ السماوات والأَرْضَ» وفي لفظ: "ثم خلق السماوات والأرض". فسألوه عن ابتداء خلق السماوات والأرض. ولهذا قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر، فأجابهم عما سألوا فقط. ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رزين المتقدم.

قال ابن جرير [تاريخ: ٣٩/١] وقال آخرون: "بل خلق اللّه عز وجل الماء قبل العرش".

ورواه السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ: قالوا: (إن اللّه كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء).

وحكى ابن جرير [تاريخ: ٣٤/١] عن محمد بن إسحاق أنه قال: (أول ما خلق اللّه عز وجل النور والظُّلمة ثم ميز بينهما فجعل الظُّلمة ليلاً أسود مظلماً، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً)

قال ابن جرير [تاريخ ٣٩/١] وقد قيل: "إن الذي خلق ربنا بعد القلم الكرسيَّ. ثم خلق بعد الكرسيِّ العرشَ. ثم خلق بعد ذلك الهواءَ والظُّلمةَ. ثم خلق الماءَ فوضع عرشه على الماء"، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

روى الحافظ بن القاسم بن عساكر في ترجمة علي بن الحسن بن محمد بن أحمد بن جميع الغساني الصيداوي من طريق الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي عنه، عن أبيه عن جده محمد بن أحمد بن جميع: حدثنا محمد بن المعالي الصدوق، حدثنا محمد بن خلف حدثنا محمد بن يوسف عن سفين عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن أبي أراكة قال: سأل رجل عبد اللّه بن عمرو مما خلق الخلق قال: (من النور والظلمة والماء والثرى) فقال:

إيت ابن عباس فسله فأتاه فسأله فقال له مثل ذلك فقال: ارجع إليه فاسأله مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فسأله فتلا: قال ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] علي بن الحسن قال، قال ابن معين: لم يرو الفريابي حديثا أقرب من هذا.

قلت: غالب هذه الموقوفات من الأخبار الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب إلا بإقامة دليل على صدق بعضها أو كذبه والله أعلم.

٣- خلق العرش

قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: الآية ١٥]

وقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٦]

وقال الله: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: الآية ٢٦]

وقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ. ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: الآية ١٤، ١٥]

وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: الآية ٥]

وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: الآية ٣]

في غير ما آية من القرآن، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: الآية ٧]

وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: الآية ١٧]

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: الآية ٧٥]

وفي الدعاء المروي في الصحيح [خ: ٦٣٤٥، م: ٢٧٣٠] في دعاء الكرب «لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله رب العرش الكريم. لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم».

وقال الإمام أحمد [٢٠٦/١]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد، حدثني سماك بن حرب، عن عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن عباس بن عبد المطلب قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قال: قلنا: السحاب قال: «والمزن» قال قلنا: والمزن قال: «والعَنَان» قال: فسكتنا فقال: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قال قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مَسيرة خمسمائة سَنَةٍ ومن كل سماء إلى سماء مَسيرة خمسمائة سَنَةٍ، وكِثَفُ كل سماء مسيرة خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بَحْر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض. ثم فوق ذلك ثمانية أوْعَال بين رُكَبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله فوق ذلك وليس يَخفى عليه من أعمال بَني آدم شيء» هذا لفظ الإمام أحمد.

ورواه أبو داود [٤٧٢٣] والترمذي [٣٣٢٠]، وابن ماجه [١٩٣] من حديث سماك بإسناده نحوه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك ووقفه ولفظ أبي داود «وهل تدرون بعد ما بين السماء والأرض؟» قالوا لا ندري قال: «بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاثة وسبعون سنة» والباقي نحوه.

وقال أبو داود حدثنا عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار، وأحمد بن سعيد الرباطي قالوا: حدثنا وهب بن جرير. قال أحمد: كتبناه من نسخته وهذا لفظه.

قال: حدثنا أبي قال سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن يعقوب بن عقبة عن جُبَيْر بن محمد بن جُبَيْر بن مطعم، عن أبيه، عن جده قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يارسول الله جُهدت الأنفُسُ وجَاعَت العيالُ ونُهكَت الأموالُ وهَلَكت الأنعامُ. فاستَسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله ﷺ: «ويحَك أتدري ما تقول» وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحَك إنه لا يُستشفَع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدري ما الله إن عرشه على سَمواته لَهكذا - وقال بأصابعه مثل القُبَّة عليه - وإنه لَيئط به أطيطَ الرَّحل بالرَّاكب». قال ابن بشار في حديثه: «إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته» وساق الحديث.

وقال عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب بن عقبة وجُبير بن محمد بن جُبير، عن أبيه، عن جده. والحديث بإسناد أحمد بن سعيد وهو الصحيح. وافقه عليه جماعة منهم يحيى بن مَعين وعلي بن المديني.

ورواه جماعة منهم عن ابن إسحاق كماقال أحمد أيضاً، وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار من نسخة واحدة فيما بلغني. تفرد بإخراجها أبو داود [٤٧٢٦].

وقد صنف الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي جزءاً في الرد على هذا الحديث. سماه "بيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط" واستفرغ وسعه في الطعن على محمد بن إسحاق بن يَسار راويه. وذكر كلام الناس فيه.

ولكن قد روى هذا اللفظ من طريق أخرى عن غير محمد بن إسحاق، فرواه عبد بن حُمَيد وابن جرير في تفسيريهما [طبري: ١٠/٣، ١١] وابن أبي عاصم والطبراني في كتابي السنة لهما، والبزار في مسنده والحافظ الضياء المقدسي في مختاراته من طريق أبي إسحاق السبيعي عن عبد الله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة قال: فعظم الربُّ تبارك وتعالى وقال: «إن كرسيه وسع السماوات والأرض وإن له أطيطا كأطيطِ الرحْلِ الجديد من ثقله». عبد الله بن خليفة هذا ليس بذاك المشهور. وفي سماعه من عمر نظر. ثم منهم من يرويه موقوفا ومرسلاً، ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة والله أعلم.

وثبت في صحيح البخاري [٢٧٩٠ مطولاً] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفِردوسَ فإنه أعلَى الجنة وأوسط الجنة وفوقَه عرش الرحمن»، يروى وفوقه بالفتح على الظرفية، وبالضم.

قال شيخنا الحافظ المزي: وهو أحسن، أي: وأعلاها عرش الرحمن.

وقد جاء في بعض الآثار (أن أهل الفردوس يسمعون أطيطَ العرش وهو تسبيحه وتعظيمه) وما ذاك إلا لقربهم منه.

وفي الصحيح [خ: ٣٨٠٣، م٢٤٦٦] أن رسول الله ﷺ قال: «لقد اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن مُعَاذٍ».

وذكر الحافظ ابن الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب «صفة

العرش» عن بعض السلف (أن العرش مخلوق من ياقوتة حمراء بعد ما بين قطريه مَسيرة خمسين ألف سنة) وذكرنا عند قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: الآية ٤] أنه بعد ما بين العرش إلى الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة وأن اتساعه خمسون ألف سنة.

وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة وربما سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس والأثير. وهذا ليس بجيد لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل، وأيضا فإنه فوق الجنة والجنة فوق السماوات وفيها مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فالبعد الذي بينه وبين الكرسي ليس هو نسبة فلك إلى فلك.

وأيضا فإن العرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك كما قال تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: الآية ٢٣]. وليس هو فلكاً ولا تفهم منه العرب ذلك. والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: الآية ٧] وقد تقدم في حديث الأوعال أنهم ثمانية، وفوق ظهورهن العرش، وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]

وقال شهر بن حوشب: (حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون: سبحانك اللّهم وبحمدك لك الحمد على حِلمك بعد عِلمك، وأربعة يقولون: سبحانك اللّهم وبحمدك لك الحمد على عَفوك بعد قُدرتك).

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٥٦/١] حدثنا عبد الله بن محمد وهو أبو بكر ابن أبي شيبة، حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ صدق أمية ابن أبي الصلت في شيء من شعره فقال:

رَجُلٌ وثورٌ تحتَ رِجل يمينه ... والنسرُ للأخرى وليثٌ مرصد

فقال رسول الله ﷺ «صدق» فقال:

والشمسُ تطلع كل آخر ليلةٍ ... حمراءَ يُصبح لونها متوردُ

ليست بطالعة لهم في رسلها ... إلا معذبةً وإلا تجلدُ

فقال رسول الله ﷺ «صَدَق». فإنه حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات. وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة، فيعارضه حديث الأوعال. اللّهم إلا أن يقال: إن إثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لا ينفي ما عداهم. والله أعلم.

ومن شعر أمية بن أبي الصلت في العرش قوله:

مجّدوا اللّه فهو للمجدِ أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء العالي الذي بَهَر النا ... سَ وسوّى فوقَ السماء سريرا

شَرْجعاً لا يناله بَصَرُ العيـ ... ـن ترى حوله الملائكَ صورا

صُور: جمع أصْور وهو المائل العنق لنظره إلى العلو.

والشَّرجَع: هو العالي المنيف.

والسرير: هو العرش في اللغة.

ومن شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شهدتُ بأن وعدَ اللّه حقٌ ... وأن النارَ مثوى الكافرينا

وأن العرشَ فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش ربُّ العالمينا

وتحمله ملائكةٌ كرامٌ ... ملائكةُ الإله مسوّمينا

ذكره ابن عبد البر وغير واحد من الأئمة.

وقال أبو داود [٤٧٢٧] حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن طَهمان عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أُذِنَ لي أن أحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله عز وجل من حَمَلة العرش أن ما بين شَحْمة أُذُنِهِ إلى عاتِقِه مَسيرة سَبعمائة عام». ورواه ابن أبي حاتم ولفظه مَخْنِقُ الطير مسيرة سبعمائة عام.

وقال محمد بن عثمان ابن أبي شيبة: حدثنا يوسف بن يعقوب الصفّار حدثنا ابن أبي فديك، عن عبد الرحمن بن عبد المجيد، عن هشام بن الغاز، عن مكحول، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح وحين يمسي: اللّهم إني أصبحت أشهد لك وأشهد لملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك، لا شريك لك وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك أعتق الله ربعه من النار، فإن قالها أربع مرات أعتقه الله من النار» [د (٥٠٦٩)].

طريق أخرى: ثم قال ابن أبي شيبة أيضاً: حدثنا محمد بن يعيش، حدثنا أبو حباب. حدثنا حُمَيد مولى ابن عَلقمة المكي حدثنا ابن أبي رباح عن أبي هريرة حدثني سلمان بن الإسلام قال: قال رسول ﷺ: «من قال اللّهم إني أشهدك وأشهد الملائكة وحملة العرش والسماوات ومن فيهن والأرض ومن فيهن وأشهد جميع خلقك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت وأكفّر من أبى ذلك من الأولين والآخرين، وأشهد أنّ محمداً عبدك ورسولك، من قالها مَرّة أعتق الله ثُلثه من النار، ومن قالها مرتين، أعتق الله ثُلثيه، ومن قالها ثلاثاً أعتقه الله من النار» [الطبراني: ٦٠٦١/٦، ٦٠٦٢].

طريق أخرى، عن صحابي آخر قال ابن أبي شيبة: حدثنا عبد الله بن يحيى بن الربيع عن أبي راشد، حدثنا عمرو بن عطية عن أبيه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يقول أربع مرات: اللّهم إني أُشهدك وكفى بك شهيداً وأُشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خَلْقك وأنا أشهد ان لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأنّ محمداً عبدك ورسولك إلا كتب الله له فِكَاكاً من النار».

٤-صفة الكرسي

وأما الكرسيّ فروى ابن جَرير [في تفسيره: ٣/١٠] من طريق جُوَيْبر - وهو ضعيف - عن الحسن البصري أنه كان يقول: الكرسي هو العرش؛ وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غير العرش.

وعن ابن عباس وسعيد بن جُبَيْر أنهما قالا في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] أيْ: علمه.

والمحفوظ عن ابن عباس كما رواه الحاكم في مستدركه [٢٨٨/٢]. وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من طريق سفيان الثوري عن عمّار الدّهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس أنه قال: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدّر قدره إلا الله عزّ وجلّ.

وقد رواه شجاع بن مخلّد الفلاس في تفسيره عن أبي عاصم النبيل، عن الثوري فجعله مرفوعاً والصواب أنه موقوف على ابن عباس. وحكاه ابن جرير [في تفسيره: ١٠/٣] عن أبي موسى الأشعري والضحّاك بن مزاحم وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير ومسلم البطين.

وقال السدي عن أبي مالك: «الكُرْسيُّ تحت العرش».

وقال السُّديُّ: «السماوات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش».

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «لو أن السماوات السبع والأرَضينَ السبع بُسِطْن ثم وصِلْنَ بَعضهن إلى بَعض ما كنَّ في سَعَة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المَفَازة»

وقال ابن جرير [في تفسيره: ١٠/٣] حدثني يونس، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السّبع في الكرسيِّ إلا كَدَرَاهِمَ سبعةٍ أُلقيت في ترْس».

قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «ما الكرسيُّ في العرش إلا كَحَلقة من حديد أُلقيت بين ظَهرَيْ فَلاةٍ من الأرضِ» أول الحديث مرسل وعن أبي ذر منقطع.

وقد روي عنه من طريق أخرى موصولاً. فقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه في تفسيره [كما في الدر المنثور: ٣٢٨/١]: أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني، أنبأنا عبد الله بن وهيب الغَزّي أنبأنا محمد بن أبي سري، أنبأنا محمد بن عبد الله التميمي، عن القاسم بن محمد الثّقفي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذرٍّ الغفاري أنه سأل رسول اللّه ﷺ عن الكرسيِّ؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «والذي نفسي بيده ما السماوات السّبعُ والأرَضُون السّبعُ عند الكرسيِّ إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإنّ فضل العرش على الكرسيِّ كفضل الفلاة على تلك الحلَقة»

رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب «صفة العرش» عن الحسن بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أحمد بن علي الأسدي، عن المختار بن عساكر، حدثني عن إسماعيل بن مسلم، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول اللّه ﷺ وحده فجلست إليه فقلت: يا رسول اللّه، أيُّ آية أنزلت عليك أفضل؟ قال: «آية الكرسيِّ، كَفَضل تلك الفَلاة على تلك الحَلَقة».

وقال ابن جرير في تاريخه [٤٠/١]: حدّثنا ابن وكيع قال: حدثنا أبي عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبير: قال سئل ابن عباس عن قوله عز وجل ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح. قال: والسماوات والأرضون وكل ما فيهن من شيء تحيط بها البحار ويحيط بذلك كله الهيكل ويحيط بالهيكل فيما قيل الكرسي.

وروى: عن وهب بن منبه نحوه.

وفسّر وهب الهيكل فقال: شيء من أطراف السماوات يحدق بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط.

وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة أنّ الكرسيّ عبارة عن الفلك الثامن الذي يسمّونه فلك الكواكب الثوابت. وفيما زعموه نظر لأنه قد ثبت أنه أعظم من السماوات السبع بشيء كثير كما ورد به الحديث المتقدم أنّ نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة، وهذا ليس نسبة فلك إلى فلك.

فإن قال قائلهم: فنحن نعترف بذلك ونسميه مع ذلك فلكاً فنقول: الكرسي ليس في اللغة عبارة عن الفلك، وإنما هو كما قال غير واحد من السلف إن الكرسي بين يدي العرش كالمرقاة إليه. ومثل هذا لا يكون فلكاً. ومن زعم منهم أن الكواكب الثوابت مرصّعة فيه لا دليل لهم عليه. هذا مع اختلافهم في ذلك أيضاً كما هو مقرر في كتبهم والله أعلم.

٥ – خلق اللوح المحفوظ

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير: ١٢٥١١]: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث، عن عبد الملك بن سعيد بن جُبير، عن أبيه، عن ابن عباس أن نبيّ اللّه ﷺ قال: «إنّ اللّه خلق لَوحاً محفوظاً من دُرّة بيْضاء صَفَحَاتها من يَاقُوتة حمراء، قَلَمُه نور وكِتَابه نور للّه فيه في كلّ يوم سِتُّون وثَلاثُمائة لَحظة يَخْلق ويَرْزق ويُميت ويحيي ويُعزُّ ويُذلُّ ويفعل ما يشاء»

وقال إسحاق بن بشر: أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال: «إنّ في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله. فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة».

قال: «واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافاته الدُّر والياقوت ودَفّتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك».

وقال أنس بن مالك، وغيره من السلف: «اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل» [طبري في تفسيره: ١٤٠/٣٠].

وقال مقاتل: «هو عن يمين العرش».

٦ – خلق السماوات والأرض وما بينهما

قال اللّه تعالى: ﴿الْحَمْدُ للّه الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: الآية ٥٩] في غير ما آية من القرآن.

وقد اختلف المفسرون في مقدار هذه الستة الأيام على قولين.

فالجمهور على أنها كأيامنا هذه.

وعن ابن عبّاس، ومجاهد والضحّاك، وكعب الأحبار: إنّ كلّ يوم منها كألف سنة مما تعدون. رواهنّ ابن جرير [تاريخ: ٥٩/١، ٦٠]، وابن أبي حاتم.

واختار هذا القول الإمام أحمد بن حنبل في كتابه الذي ردّ فيه على الجهمية، واختاره ابن جرير وطائفة من المتأخرين واللّه أعلم. وسيأتي ما يدلُّ على هذا القول.

وروى ابن جرير [تاريخه: ٤٢/١] عن الضحّاك بن مزاحم، وغيره أنّ أسماء الأيام الستة. «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت»

وحكى ابن جرير في أول الأيّام ثلاثة أقوال:

فروى عن محمد بن إسحاق أنه قال: «يقول أهل التوراة: ابتدأ اللّه الخلق يوم الأحد، ويقول أهل الإنجيل: ابتدأ اللّه الخلق يوم الاثنين، ونقول نحن المسلمون فيما انتهى إلينا عن رسول اللّه ﷺ: ابتدأ اللّه الخلق يوم السبت».

وهذا القول الذي حكاه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من

الفقهاء من الشافعية، وغيرهم. وسيأتي فيه حديث أبي هريرة «خلق اللّه التُّربَةَ يوم السَّبت» [م (٢٧٨٩)، أحمد ٢/٣٢٧].

والقول بأنه الأحد: رواه ابن جرير [تاريخه: ١/٤٧] عن السدّي عن أبي مالك، وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرّة عن ابن مسعود، وعن جماعة من الصحابة.

ورواه أيضاً عن عبد الله بن سلام، واختاره ابن جرير [تاريخه: ١/٤٥]. وهو نص التوراة، ومال إليه طائفة آخرون من الفقهاء. وهو أشبه بلفظ الأحد ولهذا كمل الخلق في ستة أيام فكان آخرهن الجمعة، فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع وهو اليوم الذي أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٩]

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[فصلت: الآيات ٩-١٢].

فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: الآية ٦٤].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً. وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ [النبأ: الآيتان ٦-٧] إلى أن قال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً. وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ [النبأ: الآيات ١٢-١٣].

وقال ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠]

أي: فصلنا ما بين السماء والأرض حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار وجرت العيون والأنهار، وانتعش الحيوان. ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٢] أي عما خلق فيها من الكواكب الثوابت، والسيارات والنجوم الزاهرات والأجرام النيرات، وما في ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسماوات كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: الآيات ١٠٥-١٠٦]

فأما قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: الآيات ٢٧-٣٣] فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض، فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين ولم يفهموا هذه الآية الكريمة فإن مقتضى هذه الآية أن دَحْيَ الأرض وإخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء. وقد كان ذلك مقدراً فيها بالقوة كما قال تعالى: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: الآية ١٠] أي هيّأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار.

ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحى الأرض فأخرج [منها] ما كان مودعاً فيها فخرجت العيون وجرت الأنهار، ونبت الزرع والثمار، ولهذا فسر الدحي بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال فقال: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: الآيتان ٣٠-٣١] وقوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: الآية ٣٢] أي: قررها في أماكنها التي وضعها فيها وثبتها وأكدها وأطدها وقوله: ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ. وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ. وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: الآيات ٤٧ - ٤٩]:

بأيد أي بقوة. وإنا لموسعون، وذلك أن كل ما علا اتسع فكل سماء أعلى من التي تحتها فهي أوسع منها. ولهذا كان الكرسي أعلى من السماوات. وهو أوسع منهن كلهن. والعرش أعظم من ذلك كله بكثير.

وقوله بعد هذا ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي بسطناها وجعلناها مهاداً أي: قارة ساكنة غير مضطربة ولا مائدة بكم. ولهذا قال ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ والواو لا يقتضي الترتيب في الوقوع. وإنما تقتضي الإخبار المطلق في اللغة والله أعلم.

وقال البخاري [٣١٩١]: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا جامع بن شدّاد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن حصين قال: «دخلت على النّبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: قد بشّرتنا فأعطنا مرّتين.

ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر، قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذّكر كلّ شيء وخلق السماوات والأرض» فنادى مناد: ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السّراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها». هكذا رواه ها هنا.

وقد رواه في كتاب المغازي [برقم (٤٣٦٥) و(٤٣٨٦)] وكتاب التوحيد [خ (٧٤١٨)] وفي بعض ألفاظه «ثم خلق السماوات والأرض» وهو لفظ النسائي [كبرى (١١٢٤٠)] أيضاً.

٧- حديثُ «خلق اللّهُ التربةَ يوم السبت»

وقال الإمام أحمد بن حنبل [٢/٣٢٧]: حدثنا حجّاج حدثني ابن جريج، أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التّربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشّجَر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النّور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدّواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى اللّيل».

وهكذا رواه مسلم [٢٧٨٩] عن شريح بن يونس وهارون بن عبد الله.

والنسائي [كبرى (١١٠١٠)] عن هارون ويوسف بن سعيد، ثلاثتهم عن حجّاج بن محمد المصيصي الأعور عن ابن جريج به مثله سواء.

وقد رواه النّسائي في التفسير [كبرى (١١٣٩٢)] عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، عن محمد بن الصّبّاح، عن أبي عبيدة الحدّاد، عن

الأخضر بن عجلان، عن ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال: «يا أبا هريرة إنّ الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العَرش يوم السابع، وخلق التُربة يوم السبت» وذكر تمامه بنحوه فقد اختلف فيه على ابن جريج.

وقد تكلم في هذا الحديث علي ابن المديني والبخاري والبيهقي وغيرهم من الحفاظ.

قال البخاري في التاريخ: وقال بعضهم عن كعب وهو أصح. يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة وتلقاه من كعب الأحبار فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث، فهذا يحدثه عن صحفه، وهذا يحدثه بما يصدّقه عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وأكد رفعه بقوله: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي». ثم في متنه غرابة شديدة. فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السماوات، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام. وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السماوات في يومين من دخان. وهو بخار الماء الذي ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من زَبده الأرض بالقدرة العظيمة البالغة كما قال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[البقرة: الآية ٢٩] قالوا: إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء. ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعل سبع أرضين في يومين،(الأحد والاثنين).

وخلق الأرض على حوت وهو النون الذي قال الله تعالى ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: الآية ١] والحوت في الماء والماء على صفات والصفات على ظهر مَلك والمَلك على صخرة والصخرة في الريح. وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرّت.

وخلق الله يوم الثلاثاء الجبال وما فيهن من المنافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب وفتق السماء وكانت رتقاً فجعلها سبع سموات في يومين الخميس والجمعة. وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السماوات والأرض وأوحى في كل سماء أمرها.

ثم قال: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد وما لا يعلمه غيره. ثم زيّن السماء بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً يحفظ من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش.

وهذا الإسناد يذكر به السّدي أشياء كثيرة فيها غرابة وكان كثير منها متلقى من الإسرائيليات. فإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفاً له، وتعجباً مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر فاستجاز كثير من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا، ولما جاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل لكنْ كثيراً ما يقع فيما يرويه غلط وليس منه، ولكنه من الكتب التي ينقل عنها؛ لأنها قد دخلها غلط كبير وخطأ كثير.

وقد روى البخاري في صحيحه [٧٣٦١] عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان يقول في كعب الأحبار «وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب» أي فيما ينقله لا أنه يتعمد ذلك والله أعلم.

ونحن نورد ما نورده من الذي يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين: عنهم. ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ويبقى الباقي مما لا يصدق ولا يكذب وبه المستعان وعليه التكلان

٨- السماوات السبع والأرضون السبع

قال البخاري [٧٥٥٣]: حدثنا قتيبة حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قَضَى اللَّهُ الخلقَ كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إنّ رحمتي غَلبت غَضَبي» وكذا رواه مسلم [٢٧٥١] والنسائي [كبرى (٧٧٥٠)] عن قتيبة به. ثم قال البخاري:

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[الطلاق: الآية ١٢].

ثم قال [٣١٥٩]: حدثنا علي بن عبد الله، أخبرنا ابن عُليّة، عن عليّ بن المبارك، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وكانت بينه وبين ناس خصومة في أرض، فدخل على عائشة فذكر لها ذلك. فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض، فإن رسول الله ﷺ قال: «من ظَلم قِيد شبر طُوِّقَهُ من سَبْع أرَضين»

ورواه أيضاً في كتاب المظالم [٢٤٥٣] ومسلم [١٦١٢] من طرق عن يحيى بن كثير به.

ورواه أحمد [٦/٧٩، ٢٥٢] من حديث محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة به، ورواه أحمد أيضاً [٦/٦٤، ٢٥٩] عن يونس عن أبان، عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن عائشة بمثله.

ثم قال البخاري [٣١٩٦]: حدثنا بشر بن محمد قال: أخبرنا عبد الله، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقّه خُسِف به يوم القيامة إلى سَبْع أرَضين»

ورواه في المظالم [٢٤٥٤] أيضاً عن مسلم بن إبراهيم، عن عبد الله، هو ابن المبارك، عن موسى بن عقبة به، وهو من أفراده.

وذكر البخاري ها هنا [٣١٩٧] حديث محمد بن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الزمان قد استدار كَهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثني عشَرَ شَهْراً» الحديث.

ومراده، والله أعلم، معنى تقرير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: الآية ١٢] أي في العدد كما أن عدة الشهور الآن اثني عشر مطابقة لعدة الشهور عند الله في كتابه الأول، فهذه مطابقة في الزمان كما أن تلك مطابقة في المكان.

ثم قال البخاري [٣١٩٨]: حدثنا عبيد بن إسماعيل، حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل أنه خاصمته أروى في حق زعمت أنه انتقصه لها إلى مروان، فقال سعيد رضي الله عنه: أنا انتقص من حقّها شيئاً؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ شبراً من الأرض ظُلماً فإنّهُ يُطَوّقه يوم القيامة من سبع أرَضين» [ورواه

البخاري]

وقال الإمام أحمد [٣٩٦/١، ٣٩٧]: حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عبد الله بن لهيعة، حدثنا عبيد الله بن أبي جعفر، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن ابن مسعود قال: «قلت: يا رسول الله أيُّ الظلم أعظم قال: «ذِرَاع من الأرض ينتقِصُه المَرء المسلم من حق أخيه فليس حَصَاة من الأرض يأخذها أحد إلا طُوِّقها يوم القيامة إلى قَعْر الأرض، ولا يَعلم قَعْرَهَا إلا الذي خَلَقها» تفرد به أحمد، وهذا إسناد لا بأس به.

وقال الإمام أحمد [٣٨٨/٢]: حدثنا عفّان، حدثنا وهيب حدثنا سهيل، عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طُوِّقَهُ من سبع أرَضين» تفرّد به أيضاً من هذا الوجه وهو على شرط مسلم.

وقال أحمد: [٤٣٢/٢] حدثنا يحيى عن ابن عجلان، حدثني أبي، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطَعَ شبراً من الأرض بغير حقّه طُوِّقَهُ يوم القيامة إلى سبع أرَضين» تفرد به أيضاً وهو على شرط مسلم.

وقال أحمد: أيضاً [٣٨٧/٢] حدثنا عفّان حدثنا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من أخذ من الأرض شبراً بغير حقّه طُوِّقَهُ من سبع أرضين». تفرّد به أيضاً.

وقد رواه الطّبراني من حديث معاوية بن قرة، عن ابن عباس مرفوعاً مثله.

فهذه الأحاديث كالمتواترة في إثبات سبع أرضين والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى والتي تحتها في وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهي الأمر إلى السابعة وهي صماء لا جوف لها، وفي وسطها المركز وهو نقطة مقدرة متوهمة. وهو محط الأثقال، إليه ينتهي ما يهبط من كل جانب إذا لم يعاوقه مانع.

واختلفوا هل هن متراكمات بلا تفاصل، أو بين كل واحدة والتي تليها خلاء على قولين، وهذا الخلاف جار في الأفلاك أيضاً.

والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة لظاهر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الآية [الطلاق: ١٢]

وقال الإمام أحمد: [٣٧٠/٢] حدثنا سُرَيج حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة قال: «بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرت سحابة فقال: «أتدرون ما هذه؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «العَنان وزَوَايا الأرض يسوقه اللّهُ إلى من لا يشكُرونه من عباده ولا يدعونه، أتدرون ما هذه فوقكم؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «الرَّقيع مَوج مَكفُوف وسَقْف محفوظ، أتدرون كم بينكم وبينها؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «مسيرة خمسمائة عام.» ثم قال: «أتدرون ما الذي فوقها؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «سماءٌ أخرى، أتدرون كم بينها وبينها؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «مسيرة خمسمائة عام حتى عدّ سبع سموات»، ثم قال: «أتدرون ما فوق ذلك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: العرش، أتدرون كم بينه وبين السّماء السّابعة؟» قلنا: اللّه ورسوله أعلم قال: «مسيرة خمسمائة عام.» ثم قال: «أتدرون ما هذه تحتكم؟» قلنا: اللّه ورسوله أعلم قال: «أرض، أتدرون ما تحتها؟» قلنا: اللّه ورسوله أعلم قال: «أرض أخرى، أتدرون كم بينهما؟» قلنا: اللّه ورسوله أعلم قال: «مسيرة سبعمائة عام» حتى عد سبع أرضين، ثم قال: «وايم الله، لو دَلَّيتُم أحدكم إلى الأرض السُّفلى السابعة لَهَبَطَ» ثم قرأ ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد: ٣]».

ورواه الترمذي [٣٢٩٨] عن عبد بن حميد، وغير واحد عن يونس بن محمد المؤدب، عن شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، قال: حدث الحسن عن أبي هريرة وذكره إلا أنه ذكر أن بُعْد ما بين كل أرضين خمسمائة عام، وذكر في آخره كلمة ذكرناها عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد - ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، قال: ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد أنهم قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة

ورواه أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي جعفر الرازي، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة فذكر مثل لفظ الترمذي سواء بدون زيادة في آخره

ورواه ابن جرير في تفسيره [٢١٦/٢٧] عن بشر، عن يزيد، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلاً. وقد يكون هذا أشبه والله أعلم.

ورواه الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي من حديث أبي ذرّ الغفاري عن النبي ﷺ بنحوه، ولكن لا يصح إسناده والله أعلم.

وقد تقدّم عند صفة العرش من حديث الأوعال ما يخالف هذا في ارتفاع العرش عن السماء السابعة وما يشهد له. وفيه: «وبُعد ما بين كل سماءين خمسمائة عام، وكِثَفُها أي: سُمْكُها خمسمائة عام».

وأما ما ذهب إليه بعض المتكلمين على حديث «طُوِّقَهُ من سَبْع أرضين» أنها سبعة أقاليم. فهو قول يخالف ظاهر الآية والحديث الصحيح وصريح كثير من ألفاظه مع ما ذكرنا من الحديث الذي أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة.

ثم إنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل والله أعلم.

وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والتي تحتها من حديد والأخرى من حجارة من كبريت والأخرى من كذا، فكل هذا إذا لم يخبر به ويصحّ سنده إلى معصوم؛ فهو مردود على قائله.

وهكذا الأثر المروي عن ابن عباس أنه قال: «في كل أرض من الخلق مثل ما في هذه حتى آدم كآدمكم وإبراهيم كإبراهيمكم» فهذا ذكره ابن جرير [في تفسيره: ١٥٣/٢٨] مختصراً واستقصاه البيهقي في الأسماء والصفات [٣٨٩، ٣٩٠] وهو محمول إن صح نقله عنه على أنّ ابن عباس رضي الله عنه أخذه عن الإسرائيليات والله أعلم.

٩- خلق الجبال

وقال الإمام أحمد: [١٢٤/٣] حدثنا يزيد حدثنا العوام بن حوشب، عن سليمان بن أبي سليمان، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الأرض جَعَلت تَميدُ فخلق الجبالَ فألقاها عليها فاستقرت فتَعَجَّبت الملائكةُ من خلق الجبال فقالت: يا ربِّ هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحَديد. قالت: يا ربِّ فهل من خلقك شيء أشدُّ من الحديد؟ قال: نعم النار. قالت: يا ربِّ فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء. قالت: يا ربِّ، فهل من خلقك شيء أشدُّ من الماء؟ الرِّيح. قالت: يا ربِّ فهل من خلقك شيء أشد من الرِّيح قال: نعم ابن آدم يَتصدَّقُ بيمينِهِ يُخفِيهَا من شِمَالِهِ» تفرّد بإخراجه أحمد.

وقد ذكر أصحاب الهيئة أعداد جبال الأرض في سائر بقاعها شرقاً

وغرباً، وذكروا أطوالها وبعد امتدادها وارتفاعها وأوسعوا القول في ذلك بما يطول شرحه هنا. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

قال ابن عباس وغير واحد: الجُدُد: الطُّرَائِق.

وقال عكرمة وغيره الغَرَابِيبُ: الجبال الطوال السُّود.

وهذا هو الشاهد من الجبال في سائر الأرض تختلف باختلاف بقاعها وألوانها.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الجودي على التعيين وهو جبل عظيم شرقي جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة عند الموصل امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام وارتفاعه مسيرة نصف يوم، وهو أخضر؛ لأن فيه شجراً من البلوط وإلى جانبه قرية يقال لها: قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام في موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسِّرين والله أعلم.

وذكر تعالى طور سيناء وقد ذكر الحافظ البهاء ابن عساكر في كتابه «المستقصى في فضائل المسجد الأقصى» في ترجمة الجبال المقدسة، من طريق عمرو بن بكر، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان عن أبي هريرة قال: أقسم ربنا عزّ وجلّ بأربعة أجبل فقال: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ١ - ٣] فالتين طور ربنا مسجد بيت المقدس، والزيتون طور ربنا، وطور سنين وهذا البلد الأمين جبل مكة وقال قتادة: التين جبل عليه دمشق والزيتون جبل عليه بيت المقدس.

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٣٤٨/٢، ٣٤٩] عن كعب الأحبار أنه قال: أربعة أجبل يوم القيامة: جبل الخليل ولبنان، والطور، والجودي يكون كل واحد منهن يوم القيامة لؤلؤة بيضاء تضيء ما بين السماء والأرض يرجعن إلى بيت المقدس حتى تجعل في زواياه نوراً ويضع عليها كرسيه حتى يقضى بين أهل الجنة والنار ﴿وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ومن طريق الوليد بن مسلم ثنا عثمان بن أبي عاتكة عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: أوحى الله إلى جبل قاسيون أن هب ظلك وبركتك لجبل بيت المقدس، قال: ففعل، فأوحى الله إليه: أما إذا فعلت فإني سأبني لي في حضنك بيتا قال: عبد الرحمن، قال الوليد: في حضنك، أي: في وسطه، وهو هذا المسجد يعني مسجد دمشق أُعبدُ فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاماً ولا تذهب الأيام والليالي حتى أرد عليك ظلك وبركتك قال: فهو عند الله بمنزلة المؤمن الضعيف المتضرع.

وعن خليل بن دعلج أن صفية زوج النبي ﷺ أتت طرف بيت المقدس فصلت فيه وصعدت إلى طور ربنا فصلت فيه وباتت على طرف الجبل فقالت: من هاهنا يتفرق الناس يوم القيامة إلى الجنة وإلى النار.

٩- خلق البحار والأنهار

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ. أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ. وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ١٤-١٨]

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾[الفرقان: ٥٣]

وقال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾[الرحمن: ١٩-٢٠].

فالمراد بالبحرين البحر المالح المر وهو الأجاج، والبحر العذب هو هذه الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار لمصالح العباد قاله ابن جريج وغير واحد من الأئمة [تفسير الطبري: ٢٤/١٩ - ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ. إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ. أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: ٣٢-٣٤]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ. وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣١-٣٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤]

فامتن تعالى على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض وما ينبثق منه في جوانبها الجميع مالح الطعم مُرّ، وفي هذا حكمة عظيمة لصحة الهواء إذ لو كان حلواً لأنتن الجو وفسد الهواء بسبب ما يموت فيه من الحيوانات العظام فكان يؤدي إلى تفاني بني آدم وفساد معايشهم فاقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة. ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن البحر قال: «هو الطُّهور ماؤه الحِلُّ مَيْتَتُهُ» [د (٨٣)، ت (٦٩)، س (٥٩) و(٣٣١) ج (٣٨٦ - ٣٨٨)].

وأما الأنهار فاقتضت الحكمة أن يكون ماؤها حلواً عذباً جارياً فراتاً سائغاً للشاربين. وجعلها جارية يتبعها تعالى في أرض ويسوقها إلى أخرى رزقا للعباد. ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة.

وقد تكلم أصحاب علم الهيئة والتسيير على تعداد البحار والأنهار الكبار وأصول منابعها وإلى أين ينتهي مسيرها بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى، وأنه فاعل بالاختيار والحكمة.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] فيه قولان:

أحدهما: أن المراد به البحر الذي تحت العرش المذكور في حديث الأوعال. وأنه فوق السماوات السبع بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء، وهو الذي ينزل منه المطر قبل البعث فتحيا منه الأجساد من قبورها. وهذا القول هو اختيار الربيع بن أنس.

والثاني: أن البحر اسم جنس يعمّ سائر البحار التي في الأرض وهو قول الجمهور.

واختلفوا في معنى البحر المسجور:

فقيل: المملوء.

وقيل: يصير يوم القيامة ناراً تؤجج فيحيط بأهل الموقف كما ذكرناه في التفسير [٤٠٥/٧] عن عليّ بن أبي طالب وابن عباس وسعيد بن جبير وابن مجاهد وغيرهم.

وقيل: المراد به الممنوع المكفوف المحروس عن أن يطغى فيغمر الأرض ومن عليها فيغرقوا. رواه الوالبي عن ابن عبّاس وهو قول السّديّ وغيره.

ويؤيده الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٤٣/١]: حدثنا يزيد، حدثنا العوام، حدثني شيخ كان مرابطاً بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يُشرف فيها ثلاث مرّات يَستأذن الله عزَّ وجلّ أن ينفضخ عليهم فيكفّه الله عزّ وجلّ».

ورواه إسحاق بن راهويه عن يزيد بن هارون، عن العوّام بن حوشب، حدثني شيخ مرابط قال: خرجت ليلة لحرس لم يخرج أحد من الحرس غيري فأتيت الميناء، فصعدت فجعل يخيل إليّ أن البحر يشرف بحاذي برؤوس الجبال فعل ذلك مراراً وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ليلة إلا والبحر يُشرف ثلاث مرّات يستأذن الله أن ينفضخ عليهم فَيَكُفُّهُ اللّه عزّ وجلّ». في إسناده رجل مبهم والله أعلم.

وهذا من نعمة الله تعالى على عباده أن كفّ شر البحر عن أن يطغى عليهم وسخّره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها إلى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها وهداهم فيه بما خلقه في السماء والأرض من النجوم والجبال التي جعلها لهم علامات يهتدون بها في سيرهم وبما خلق لهم فيه حلية يلبسونها من اللآلئ والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التي لا توجد إلا فيه وبما خلق فيه من الدواب الغريبة وأحلها لهم حتى ميتتها كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة: ٩٦]

وقال النبي ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته».

وفي الحديث الآخر: «أُحِلَّت لنا مَيْتتان ودَمان السَّمَك والجَرَاد والكَبِد والطِّحَال» رواه أحمد [٩٧/٢] وابن ماجه [٣٢١٨ و٣٣١٤] وفي إسناده نظر.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزّار في مسنده [كشف الأستار: (١٦٦٩)]: «وجدت في كتابي عن محمد بن معاوية البغدادي: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه قال «كلّم اللّهُ هذا البحرَ الغربيَّ وكلّم البحرَ الشّرقيَّ فقال للغربيّ: إني حَامل فيك عباداً من عبادي فكيف أنت صانع بهم؟ قال: أغرقهم. قال: يَابسُك في نَواحيك وحَرَمَهُ الحِلية والصَّيد، وكلّم هذا البحرَ الشّرقي فقال: إني حامل فيك عباداً من عبادي فما أنت صانع بهم؟ قال: أحْمِلُهم على يديّ، وأكونُ لهم كالوالدةِ لولَدِها، فأثابه الحِلية والصَّيدَ ثم قال: لا نعلم أحداً رواه عن سهيل إلا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو هو منكر الحديث.

قال: وقد رواه سهيل عن النعمان بن أبي عيّاش عن عبد الله بن عمرو موقوفاً.[الخطيب في تاريخ بغداد: ٢٣٣/١٠]

قلت: الموقوف على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبه فإنه قد كان وجد يوم اليرموك زاملتين مملوءتين كتباً من علوم أهل الكتاب فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود.

فأما المعروف فتفرد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدني قاضيها. قال فيه الإمام أحمد: ليس بشيء، وقد سمعت منه ثم مزّقت حديثه كان كذّاباً وأحاديثه مناكير.

وكذا ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والجوزجاني والبخاري وأبو داود والنسائي وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر.

قال علماء التسيير المتكلمون على العروض والأطوال والبحار والأنهار والجبال والمساحات وما في الأرض من المدن والخراب والعمارات والأقاليم السبعة الحقيقية في اصطلاحهم والأقاليم المتعددة العرفية وما في البلدان والأقاليم من الخواص والنباتات وما يوجد في كل قطر من صنوف المعادن والتجارات قالوا: الأرض مغمورة بالماء العظيم إلا مقدار الربع منها وهو تسعون درجة والعناية الإلهية اقتضت انحسار الماء عن هذا القدر منها لتعيش الحيوانات عليها وينبت الزرع والثمار منها كما قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ. فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ. وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٠-١٣]

قالوا: المعمور من هذا البادي منها قريب الثلثين منه أو أكثر قليلاً. وهو خمس وستون درجة.

قالوا: فالبحر المحيط الغربي ويقال له: أوقيانوس وهو الذي يتاخم بلاد المغرب وفيه الجزائر الخالدات وبينها وبين ساحله عشر درجات مسافة شهر تقريباً وهو بحر لا يمكن سلوكه ولا ركوبه لكثرة هيجه واغتلامه وما فيه من الرياح والأمواج وليس فيه صيد ولا يستخرج منه شيء ولا يسافر فيه لمتجر ولا لغيره وهو آخذ في ناحية الجنوب حتى يسامت الجبال القمر ويقال: جبال القمر التي منها أصل منبع نيل مصر ويتجاوز خط الاستواء، ثم يمتد شرقاً ويصير جنوبي الأرض وفيه هناك جزائر الزّنج وعلى سواحله خراب كثير. ثم يمتد شرقاً وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند. ثم يمتد شرقاً حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة. وهناك بلاد الصين. ثم ينعطف في شرق الصين إلى جهة الشمال حتى يجاوز بلاد الصين. ويسامت سد يأجوج ومأجوج. ثم ينعطف ويستدير على أرض غير معلومة الأحوال. ثم يمتد مغرباً في شمال الأرض ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها ويعطف مغرباً وجنوباً ويستدير على الأرض ويعود إلى جهة الغرب وينبثق من الغربي إلى متن الأرض الزقاق الذي ينتهي أقصاه إلى أطراف الشام من الغرب. ثم يأخذ في بلاد الروم حتى يتصل بالقسطنطينية وغيرها من بلادهم.

وينبعث من المحيط الشرقي بحار أخر فيها جزائر كثيرة، حتى إنه يقال: إن في بحر الهند ألف جزيرة وسبعمائة جزيرة فيها مدن وعمارات سوى الجزائر العاطلة ويقال لها البحر الأخضر فشرقيه بحر الصين وغربيه بحر اليمن وشماله بحر الهند وجنوبيه غير معلوم.

وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبالاً فاصلة بينهما وفيها فجاج تسلك المراكب بينها يسيرها لهم الذي خلقها كما جعل مثلها في البر أيضاً قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[الأنبياء: ٣١].

وقد ذكر بطليموس أحد ملوك الهند في كتابه المسمى بالمجسطي الذي عرب في زمان المأمون، وهو أصل هذه العلوم أن البحار المتفجرة من المحيط الغربي والشرقي والجنوبي والشمالي كثيرة جداً. فمنها ما هو واحد، ولكن يسمى بحسب البلاد المتاخمة له. فمن ذلك بحر القلزم. والقلزم قرية على ساحله قريب من أيلة. وبحر فارس وبحر الخزر وبحر ورنك وبحر الروم

وبحر بنطش وبحر الأزرق، مدينة على ساحله وهو بحر القرم أيضاً ويتضايق حتى يصب في بحر الروم عند جنوبي القسطنطينية وهو خليج القسطنطينية، ولهذا تسرع المراكب في سيرها من القرم إلى بحر الروم وتبطئ إذا جاءت من الإسكندرية إلى القرم لاستقبالها جريان الماء. وهذا من العجائب في الدنيا فإن كل ماء جار فهو حلو إلا هذا وكل بحر راكد فهو ملح أجاج إلا ما يذكر عن بحر الخزر وهو بحر جرجان وبحر طبرستان أن فيه قطعة كبيرة ماء حلواً فراتاً على ما أخبر به المسافرون عنه.

قال أهل الهيئة: وهو بحر مستدير الشكل إلى الطول ما هو. وقيل: إنه مثلث كالقلع وليس هو متصلاً بشيء من البحر المحيط بل منفرد وحده، وطوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة وقيل: أكثر من ذلك، والله أعلم.

ومن ذلك البحر الذي يخرج منه المد والجزر عند البصرة وفي بلاد المغرب نظيره أيضاً يتزايد الماء من أول الشهر ولا يزال في زيادة إلى تمام الليلة الرابعة عشر منه وهو المد. ثم يشرع في النقص وهو الجزر إلى آخر الشهر.

وقد ذكروا تحديد هذه البحار ومبتداها ومنتهاها وذكروا ما في الأرض من البحيرات المجتمعة من الأنهار وغيرها من السيول وهي البطائح.

وذكروا ما في الأرض من الأنهار المشهورة الكبار، وذكروا ابتداءها وانتهاءها ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه وإنما نتكلم على ما يتعلق بالأنهار الوارد ذكرها في الحديث. وقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

ففي الصحيحين [خ (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧) م (١٦٤)] من طريق قتادة عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ لما ذكر سدرة المنتهى قال: «فإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران. فأما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات».

وفي لفظ للبخاري [٧٥١٧]: وعنصرهما أي مادتهما أو شكلهما وعلى صفتهما ونعمتهما وليس في الدنيا مما في الجنة الأسماء.

وفي صحيح مسلم [٢٨٣٩] من حديث عبيد الله بن عمر عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سَيْحَان وجَيْحَان والفرات والنيل كلٌ من أنهار الجنة».

وقال الإمام أحمد: [٢/٢٦٠، ٢٦١] حدثنا ابن نمير ويزيد، أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «فُجِّرت أربعة أنهار من الجنة: الفرات والنيل وسَيْحان وجَيْحان» وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

وكأن المراد والله أعلم من هذا أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة في صفاتها وعذوبتها وجريانها ومن جنس تلك في هذه الصفات ونحوها.

كما قال في الحديث الآخر الذي رواه الترمذي [٢٠٦٦] وصحّحه من طريق سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «العَجْوة من الجنة وفيها شفاء من السُّمِّ» أي: تشبه ثمر الجنة لا أنها مجتناة من الجنة، فإن الحس يشهد بخلاف ذلك، فتعين أن المراد غيره.

وكذا قوله ﷺ: «الحُمّى من فَيح جهنم فأبردُوها بالماء» [خ (٣٢٦٣، ٣٢٦٤، ٥٧٢٥)، م (٢٢٠٩ - ٢٢١٢)] وكذا قوله: «شدّةُ الحر من فَيح جهنَّم» [خ (٥٣٣)، م (٦١٥ -٦١٧)]. وهكذا هذه الأنهار أصل منبعها مشاهد من الأرض.

أما النيل، وهو النهر الذي ليس في أنهار الدنيا له نظير في خفته ولطافته وبعد مسراه فيما بين مبتداه إلى منتهاه فمبتداه من الجبال القمر أي البيض، ومنهم من يقول جبال القمر بالإضافة إلى الكوكب وهي في غربي الأرض وراء خط الاستواء إلى الجانب الجنوبي. ويقال: إنها هي تنبع من بينها عيون. ثم تجتمع من عشر مسيلات متباعدة. ثم تجتمع كل خمسة منها في بحر. ثم تخرج منها أنهار ستة. ثم تجتمع كلها في بحيرة أخرى. ثم يخرج منها نهر واحد هو النيل فيمر على بلاد السودان بالحبشة ثم على النوبة ومدينتها العظمى دمقلة ثم على أسوان ثم يفد على ديار مصر. وقد تحمل إليها من بلاد الحبشة زيادات أمطارها وما اجترف من ترابها وهي محتاجة إليهما معاً لأن مطرها قليل لا يكفي زروعها وأشجارها وتربتها رمال لا تنبت شيئاً حتى يجيء النيل بزيادته وطينه فينبت فيه ما يحتاجون إليه وهي من أحق الأراضي بدخولها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]

ثم يتجاوز النيل مصر قليلاً فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه يقال لها شطنوف فيمر الغربي منهم على رشيد ويصب في البحر المالح.

وأما الشرقي فيفترق أيضاً عند جوجر فرقتين تمر الغربية منهما على دمياط من غربيها ويصب في البحر والشرقية منهما تمر على أشمون طناح فيصب هناك في بحيرة شرقي دمياط. يقال لها بحيرة تنيس وبحيرة دمياط. وهذا بعد عظيم فيما بين مبتداه إلى منتهاه. ولهذا كان ألطف المياه.

قال ابن سينا: له خصوصيات دون مياه سائر الأرض:

فمنها أنه أبعدها مسافة من مجراه إلى أقصاه.

ومنها أنه يجري على صخور ورمال ليس فيه خز ولا طحلب ولا أوحال.

ومنها أنه لا يحضر فيه حجر ولا حصاة وما ذاك إلا لصحّة مزاجه وحلاوته ولطافته.

ومنها أن زيادته تكون في أيام نقصان سائر الأنهار. ونقصانه في أيام زيادتها وكثرتها.

وأما ما يذكره بعض الناس من أن أصل منبع النيل من مكان مرتفع اطلع عليه بعض الناس فرأى هناك هولاً عظيماً وجواري حساناً وأشياء غريبة وأن الذي اطلع على ذلك لا يمكنه الكلام بعد هذا فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين.

وقد قال عبد الله بن لهيعة عن قيس بن الحجّاج، عمن حدثه قال: «لما فتحت مصر أتى أهلُها عمرو بن العاص حين دخل شهر بؤونة من أشهر العجم (القبطية) فقالوا: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها! فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إذا كان لثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام وإن الإسلام يهدم ما كان قبله؛ فأقاموا بؤونة والنيل لا يجري لا قليلاً ولا كثيراً.

وفي رواية: فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى ثلاثة أشهر والنيل لا يجري حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه

عمر: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر:

أما بعد، فإن كنت تجري من قِبَل نفسك فلا تجري وإن كان الله الواحد القهّار هو الذي يُجريك فنسأل الله أن يجريك» فألقى عمرو البطاقة في النيل فأصبح يوم السبت وقد أجرى الله سبحانه النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقطع الله تلك السنّة عن أهل مصر إلى اليوم.

وأما الفرات فأصلها من شمالي أرزن الروم فتمر إلى قرب ملطيه ثم تمر على سميساط. ثم على إلبيرة قبليّها ثم تشرق إلى بالس وقلعة جعبر ثم إلى الرقة ثم إلى الرحبة شماليها ثم إلى عانة ثم إلى هيت ثم إلى الكوفة، ثم تخرج إلى فضاء العراق وتصب في بطائح كبار أي بحيرات وترد إليها وتخرج منها أنهار كبار معروفة تصبُّ في بحر البصرة.

وأما سيحان ويقال له: سيحون أيضا فأوله من بلاد الروم ويجري من الشمال والغرب إلى الجنوب والشرق وهو غربي مجرى جيحان ودونه في القدر وهو ببلاد الأرمن التي تعرف اليوم ببلاد سيس وقد كانت في أول الدولة الإسلامية في أيدي المسلمين فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية وملكوا الشام وأعمالها عجزوا عن صونها من الأعداء فتغلب نقفور الأرمني على هذه البلاد أعني بلاد سيس في حدود الثلاثمائة وإلى يومنا هذا فملكوها. والله المسؤول عودها إلينا بحوله وقوته. ثم يجتمع سيحان وجيحان عند أذنة فيصيران نهراً واحداً. ثم يصبان في بحر الروم بين إياس وطرسوس.

وأما جيحان ويقال له: جيحون أيضا وتسميه العامة جاهان. وأصله في بلاد الروم ويسير في بلاد سيس من الشمال إلى الجنوب وهو نهر يقارب الفرات في القدر ثم يجتمع هو وسيحان عند أذنة فيصيران نهراً واحداً. ثم يصبان في البحر عند إياس وطرسوس والله أعلم.

١٠ـ مخلوقات أخرى

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ. وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد: ٢ـ٤].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ. أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[النمل: ٦ـ١٦].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[النحل: ١٠ـ١٣]

فذكر تعالى ما خلق في الأرض من الجبال والأشجار والثمار والسهول والأوعار وما خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات في البراري والقفار والبحار ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه الأبرار والفجار وما سهل لكل دابة من الرزق الذي هي محتاجة إليه في ليلها ونهارها وصيفها وشتائها وصباحها ومسائها كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[هود: ٦]

وقد روى الحافظ أبو يعلى [التفسير: ٢٣٩/٤] عن محمد بن المثنى عن عبيد بن واقد، عن محمد بن عيسى بن كيسان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله ألف أمّة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر. وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجرّاد فإذا هلك تتابعت مثل النّظام إذا قُطِعَ سِلكُه».

عبيد بن واقد: أبو عباد البصري: ضعّفه أبو حاتم.

وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه وشيخه أضعف منه.

قال الفلاس والبخاري: منكر الحديث.

وقال أبو زرعة: لا ينبغي أن يحدث عنه.

وضعفه ابن حبان والدارقطني وأنكر عليه ابن عدي هذا الحديث بعينه وغيره والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

١١ـ خلق الشمس والقمر والكواكب

قد قدمنا أن خلق الأرض قبل خلق السماء كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٩]

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[فصلت ٩ـ ١٢]

وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ـ ٣٠].

وقد أجبنا عن قوله ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فإن الدحي غير الخلق وهو بعد خلق السماء.

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ. الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ

خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ. وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[الملك: ١-٥]

وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً. وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ [النبأ: ١٢ - ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾[نوح: ١٥-١٦]

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[الطلاق: ١٢]

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾[الفرقان: ٦١-٦٢]

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ. دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾[الحجر: ١٦-١٨]

وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[الذاريات: ٤٧]

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[الأنبياء: ٣٢-٣٣]

وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٣٧-٤٠]

وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأنعام: ٩٦-٩٧]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤].

والآيات في هذا كثيرة جداً وقد تكلمنا على كل منها في التفسير.

والمقصود أنه تعالى يخبر عن خلق السماوات وعظمة اتساعها وارتفاعها وأنها في غاية الحسن والبهاء والكمال والسناء كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾[الذاريات: ٧] أي: الخلق الحسن.

وقال تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك: ٣-٤] أي خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللاً، وهو حسير أي: كليل ضعيف ولو نظر حتى يعيى ويكلّ ويضعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب لأنه تعالى قد أحكم خلقها وزين بالكواكب أفقها كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي: النجوم.

وقيل: محالّ الحرس التي يرمى منها بالشهب لمسترق السمع ولا منافاة بين القولين.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾[الحجر: ١٦-١٨] فذكر أنه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات (الشمس والقمر والنجوم الزاهرات) وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها وهذا زينة معنى.

فقال: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ كما قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى﴾.[الصافات: ٦-٨]

قال البخاري في كتاب بدء الخلق [فتح الباري: ٦/٢٥٩] وقال قتادة: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]خلق هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به.

وهذا الذي قاله قتادة مصرّح به في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ﴾[الملك: ٥] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[الأنعام: ٩٧] فمن تكلف غير هذه الثلاث أي من علم احكام ما تدل عليه حركاتها ومقارناتها في سيرها وأن ذلك يدل على حوادث أرضية فقد أخطأ. وذلك أن أكثر كلامهم في هذا الباب ليس فيه إلا حدس وظنون كاذبة ودعاوى باطلة.

وذكر تعالى أنه خلق سبع سموات طباقاً أي: واحدة فوق واحدة.

واختلف أصحاب الهيئة هل هنّ متراكمات أو متفاصلات بينهن خلاء؟ على قولين:

والصحيح الثاني لما قدمنا من حديث عبد الله بن عميرة عن الأحنف، عن العباس في حديث الأوعال أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال «بينهما مسيرة خمسمائة عام. ومن كلّ سماء إلى سماء خمسمائة سنة وكثفُ كلّ سماء خمسمائة سنة». الحديث بتمامه رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه [تقدم في ص١٤].

وفي الصحيحين (خ (٣٥٧٠، ٧٥١٧)، م (١٦٢ - ١٦٤)) من حديث أنس في حديث الإسراء قال فيه: «ووجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلّم عليه فردّ عليه السلام. وقال: مرحباً وأهلاً بابني نِعْم الابنُ أنت. إلى أن قال: ثمّ عرج إلى السماء الثانية». وكذا ذكر في الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فدل على التفاضل بينها لقوله: «ثم عرج بنا حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح فقيل: من هذا؟» الحديث. وهذا يدل على ما قلناه والله أعلم.

وقد حكى ابن حزم وابن المنادي وأبو الفرج ابن الجوزي وغير واحد من العلماء الإجماع على أن السماوات كرة مستديرة. واستدل على ذلك بقوله ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

قال الحسن: يدورون.

وقال ابن عباس: في فلكة مثل فلكة المغزل.

قالوا: ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع في آخرها من المشرق، كما قال أميّة بن أبي الصّلت.

والشمسُ تطلعُ كلَّ آخرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصبحُ لونها يتورّدُ

ليست بطالعةٍ لهم في رِسْلها ... إلا معذبةً وإلا تُجْلَدُ

فأما الحديث الذي رواه البخاري [٣١٩٩] حيث قال: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذرّ حين غربت الشمس: «تدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجُدَ تحت العرش فتستأذِنُ فيؤذَنُ لها ويوشك أن تسجد فلا يُقبلُ منها وتستأذن فلا يُؤذن لها. يقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾» [يس: ٣٨].

هذا لفظه في بدء الخلق [٣١٩٩] ورواه في التفسير [٤٨٠٢]. وفي التوحيد [٧٤٢٤] من حديث الأعمش أيضا.

ورواه مسلم في الإيمان [١٥٩] من طريق الأعمش ومن طريق يونس بن عبيد

وأبو داود [٤٠٠٢] من طريق الحكم بن عتيبة كلهم عن إبراهيم بن يزيد بن شريك عن أبيه، عن أبي ذرّ به نحوه.

وقال الترمذي [٢١٨٦، ٣٢٢٧]: حسن صحيح.

إذا علم هذا فإنه حديث لا يعارض ما ذكرناه من استدارة الأفلاك التي هي السماوات على أشهر القولين ولا يدل على كُرِّية العرش كما زعمه زاعمون. قد أبطلنا قولهم فيما سلف ولا يدل على أنها تصعد إلى فوق السماوات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش، بل هي تغرب عن أعيننا وهي مستمرة في فلكها الذي هي فيه وهو الرابع فيما قاله غير واحد من علماء التسيير. وليس في الشرع ما ينفيه بل في الحس وهو الكسوفات ما يدل عليه ويقتضيه، فإذا ذهبت فيه حتى تتوسطه وهو وقت نصف الليل مثلا في اعتدال الزمان بحيث يكون بين القطبين الجنوبي والشمالي، فإنها تكون أبعد ما يكون من العرش لأنه مقبّب من جهة وجه العالم وهذا محل سجودها كما يناسبها كما أنها أقرب ما تكون من العرش وقت الزوال من جهتنا، فإذا كانت في محل سجودها استأذنت الرب جل جلاله في طلوعها من المشرق فيؤذن لها فتبدو من جهة الشرق وهي مع ذلك كارهة لعصاة بني آدم أن تطلع عليهم ولهذا قال أمية:

ليست بطالعة لهم في رسلها إلا معذبة والا تجلد

فإذا كان الوقت الذي يريد الله طلوعها فيه من جهة مغربها تسجد على عادتها وتستأذن في الطلوع من عادتها فلا يؤذن لها فجاء أنها تسجد أيضا ثم تستأذن فلا يؤذن لها ثم تسجد فلا يؤذن لها وتطول تلك الليلة كما ذكرنا في التفسير [٥٦٢/٦]، فتقول: يا ربِّ إنَّ الفجر قد اقترب وإنّ المدى بعيد فيقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا جميعاً. وذلك حين ﴿لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وفسروا بذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨].

قيل: لوقتها الذي تؤمر فيه تطلع من مغربها.

وقيل: مستقرّها موضعها الذي تسجد فيه تحت العرش.

وقيل: منتهى سيرها وهو آخر الدنيا.

وعن ابن عباس أنه قرأ «والشمس تجري لا مُسْتَقَرَّ لها» أي ليست تستقر، فعلى هذا تسجد وهي سائرة. ولهذا قال تعالى ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] أي لا تدرك الشمسُ القمر فتطلع في سلطانه ودولته ولا هو أيضاً، ﴿وَلا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي ليس سابقه بمسافة يتأخر ذاك عنه فيها بل إذا ذهب الليل جاء النهار في إثره متعقباً له كما قال في الآية الأخرى ﴿يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان: ٦٢]

أي: يخلف هذا لهذا وهذا لهذا كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم» [خ (١٩٥٤)، م (١١٠٠)] فالزمان المحقق ينقسم إلى ليل ونهار وليس بينهما غيرهما. ولهذا قال تعالى: ﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] أي: يولج من هذا في هذا، أي يأخذ من طول هذا في قصر هذا فيعتدلان كما في أول فصل الربيع يكون الليل قبل ذلك طويلاً والنهارقصيراً فلا يزال الليل ينقص والنهار يتزايد حتى يعتدلا وهو أول الربيع. ثم يشرع النهار يطول ويتزايد والليل يتناقص إلى آخر فصل الربيع، ثم يتراجع الأمر وينعكس الحال فيشرع النهار يتناقص والليل في ازدياد حتى يعتدلا أيضاً في أول فصل الخريف. ثم يشرع الليل يطول ويقصر النهار إلى آخر فصل الخريف. ثم يترجح النهار قليلاً قليلاً ويتناقص الليل شيئاً فشيئاً حتى يعتدلا في أول فصل الربيع كما قدمنا، وهكذا في كل عام. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]

أي: هو المتصرف في ذلك كله، الحاكم الذي لا يخالف ولا يمانع ولهذا يقول في ثلاث آيات عند ذكر السماوات والنجوم والليل والنهار: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] أي العزيز الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فلا يمانع ولا يغالب، العليم بكل شيء، فقدر كل شيء تقديراً على نظام لا يختلف ولا يضطرب.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٤٨٢٦)، م (٢٢٤٦)] من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» وفي رواية «فأنا الدهر أقلب ليله ونهاره».

قال العلماء كالشافعي وأبي عبيد القاسم بن سلام [غريب الحديث: ١٤٥/٢ - ١٤٨] وغيرهما يسب الدهر أي: يقول: فعل بنا الدهر كذا يا خيبة الدهر، أيتم الأولاد، أرمل النساء. قال تعالى: «وأنا الدهر». أي أنا الدهر الذي يعنيه، فإنه فاعل ذلك الذي سنده إلى الدهر والدهر مخلوق، وإنما الذي فعل هذا هو الله الخالق فهو يسب فاعل ذلك ويعتقده الدهر. والله هو الفاعل لذلك، الخالق لكل شيء المتصرف في كل شيء كما قال: «وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره» وكما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦ -٢٧]

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. إِنَّ فِي اخْتِلافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ.﴾ [يونس: ٥-٦] أي: فاوت بين الشمس والقمر في نورهما وفي شكلهما وفي وقتهما وفي سيرهما فجعل هذا ضياء وهو شعاع الشمس برهان ساطع وضوء باهر والقمر نوراً أي: أضعف من

برهان الشمس وجعله مستفاداً من ضوئها وقدره منازل، أي: يطلع أول ليلة من الشهر صغيراً ضئيلاً قليل النور لقربه من الشمس وقلة مقابلته لها، فبقدر مقابلته يكون نوره ولهذا في الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف ما كان في الليلة الأولى فيكون نوره بضعف النور أول ليلة. ثم كلما بعد ازداد نوره حتى يتكامل إبداره ليلة مقابلته إياها من المشرق وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر. ثم يشرع في النقص لاقترابه إليها من الجهة الأخرى إلى آخر الشهر فيستتر حتى يعود كما بدا في أول الشهر الثاني. فيه تعرف الشهور وبالشمس تعرف الليالي والأيام وبذلك تعرف السنون والأعوام ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾[الإسراء: ١٢]

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]

وقد بسطنا القول على هذا كله في التفسير. فالكواكب التي في السماء منها سيارات وهي المتحيرة في اصطلاح علماء التسيير وهو علم غالبه صحيح بخلاف علم الأحكام فإن غالبه باطل ودعوى ما لا دليل عليه وهي سبعة:

القمر في سماء الدنيا وعطارد في الثانية والزهرة في الثالثة والشمس في الرابعة والمريخ في الخامسة والمشتري في السادسة وزحل في السابعة. وبقية الكواكب يسمونها الثوابت وهي عندهم في الفلك الثامن وهو الكرسي في اصطلاح كثير من المتأخرين.

وقال آخرون: بل الكواكب كلها في السماء الدنيا ولا مانع من كون بعضها فوق بعض. وقد يستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] وبقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]

فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون والله أعلم.

وعندهم أن الأفلاك السبعة بل الثمانية تدور بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات في اليوم والليلة دورة كلية من الشرق إلى الغرب، وعندهم أنّ كلّ واحد من الكواكب السيارات يدور على خلاف فلكه من المغرب إلى المشرق. فالقمر يقطع فلكه في شهر والشمس تقطع فلكها وهو الرابع في سنة. فإذا كان السيران ليس بينهما تفاوت وحركاتهما متقاربة كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا ثنتي عشرة مرة وزحل يقطع فلكه وهو السابع في ثلاثين سنة فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلثمائة وستين مرة.

قد تكلموا على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحركاتها وتوسعوا في هذه الأشياء حتى تعدوا إلى علم الأحكام وما يترتب على ذلك من الحوادث الأرضية ومما لا علم لكثير منهم به.

وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور لهم في هذا كلام كثير يطول بسطه، وهم الذين بنوا مدينة دمشق وجعلوا لها أبوابا سبعة وجعلوا على رأس كل باب هيكلاً على صفة الكواكب السبعة. يعبدون كل واحد في هيكله، ويدعونه بدعاء يأثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ وغيرهم. وذكره صاحب كتاب «السر المكتوم» في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم وهو خرافات لا يلتفت إليها وغيره من علماء الحرنانيين فلاسفة حران في قديم الزمان وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة وهم طائفة من الصابئين. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]

وقال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان عليه السلام مخبراً عن بلقيس وجنودها ملكة سبأ في اليمن وما والاها ﴿إِنِّي وَجَدتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ. أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٣ ـ ٢٦]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨ ـ ٥٠]

وقال تعالى: ﴿وَللَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [الإسراء: ٤٤]

والآيات في هذا كثيرة جداً.

ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة في السماوات والأرض هي الكواكب وأشرفهن منظراً وأشرفهن معتبراً الشمس والقمر استدل الخليل على بطلان إلهية شيء منهن. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[الأنعام: ٧٦]

أي الغابرين ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٧ ـ٧٩]

فبين بطريق البرهان القطعي أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شيء منها للإلهية؛ لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة في سيرها لا تحيد عما خلقت له ولا تزيغ عنه إلا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف. وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]

وثبت في الصحيحين [خ (١٠٤٠ ـ ١٠٤٤)، م (٩٠١)] في صلاة الكسوف من حديث ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم من الصحابة

أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته».

وقال البخاري في بدء الخلق [٣٢٠٠]: حدثنا مسدد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا عبد الله الداناج، حدثني أبو سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة». انفرد به البخاري.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار بأبسط من هذا السياق، فقال: حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي، حدثنا يونس بن محمد حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن عبد الله الداناج سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن زمن خالد بن عبد الله القسري في هذا المسجد مسجد الكوفة، وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال: حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشمس والقمر ثوران في النار يوم القيامة» فقال الحسن: وما دينهما؟ فقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: وما دينهما!

ثم قال البزار: لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ولم يرو عبد الله الداناج عن أبي سلمة سوى هذا الحديث.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي من طريق يزيد الرقاشي وهو ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشمس والقمر ثوران عقيران في النار».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد الله الأزدي، حدثنا أبو أسامة عن مجالد، عن شيخ من بجيلة، عن ابن عباس ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾. قال: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فتضرمها ناراً.

فدلت هذه الآثار على أن الشمس والقمر من مخلوقات الله خلقها الله لما أراد. ثم يفعل فيهما ما يشاء، وله الحجة الدافعة والحكمة البالغة فلا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته وقدرته ومشيته النافذة وحكمه الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب.

وما أحسن ما أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في أول كتاب السيرة من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل في خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك.

قال ابن هشام [السيرة: ١/٢٢٧. ديوان أمية ص٣٨، ٣٩] هي لأمية بن أبي الصلت:

إلى اللّه أهدي مدحتي وثنائيا ... وقولا رصيناً لايني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه ... إله ولا ربٌ يكون مدانيا
ألا أيها الإنسان إياك والردى ... فإنك لا تخفي من اللّه خافيا
وإياك لا تجعل مع اللّه غيره ... فإن سبيل الرشد أصبح باديا
حنانيك إنّ الجن كانت رجاءهم ... وأنت إلهي ربنا ورجائيا
رضيت بك اللّهم ربّاً فلن أرى ... أدين إلهاً غيرك اللّه ثانيا
وأنت الذي من فضل منٌ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له: يا اذهب وهارون فادعوا ... إلى اللّه فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له: ألأنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له: ألأنت رفعت هذه ... بلا عمد، أرفق إذاً بك بانيا
وقولا له ألأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبّه في رؤوسه ... وفي ذاك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونسا ... وقد بات في أضعاف حوت لياليا
وإني لو سبحت باسمك ربنا ... لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فرب العباد ألق سيباً ورحمة ... عليّ وبارك في بنيّ ومالیا

فإذا علم هذا فالكواكب التي في السماء من الثوابت والسيارات الجميع مخلوقة خلقها الله تعالى كما قال: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة حسناء فراوداها على نفسها فأبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته، فرفعت كوكباً إلى السماء فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين وإن كان قد أخبر به كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل [تفسير عبد الرزاق: ١/٥٣، ٥٤. ابن جرير ١/٤٥٦، ٤٥٧].

وقد روى الإمام أحمد [٢/١٣٤] وابن حبان في صحيحه [٦١٨٦] في ذلك حديثا رواه أحمد عن يحيى بن بكير عن زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ وذكر القصة بطولها. وفيه «فمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها» وذكر القصة.

وقد رواه عبد الرزاق في تفسيره [١/٥٣] عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار به.

وهذا أصح وأثبت.

وقد روى الحاكم في مستدركه [٢/٢٦٦ مختصراً] وابن أبي حاتم في تفسيره [١/٣٠٥] عن ابن عباس فذكره وقال فيه: وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب. وذكر تمامه.

وهذا أحسن لفظ روي في هذه القصة والله أعلم.

وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار [كشف الأستار (٩٠٣)]: حدثنا محمد بن عبد الملك الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا مبشر بن عبيد عن يزيد بن أسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ.

وحدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر سهيلاً فقال: «كان عشّاراً ظلوماً فمسخه الله شهاباً» ثم قال: لم يروه عن زيد بن أسلم إلا مبشر بن عبيد وهو ضعيف الحديث ولا عن عمرو بن دينار إلا إبراهيم بن يزيد وهو لين الحديث. وإنما ذكرناه على ما فيه من علة لأنا لم نحفظه إلا من هذين الوجهين.

قلت: أما مبشر بن عبيد القرشي فهو أبو حفص الحمصي وأصله من الكوفة. فقد ضعفه الجميع.

وقال فيه الإمام أحمد والدارقطني: كان يضع الحديث ويكذب.

وأما إبراهيم بن يزيد فهو الخوزي وهو ضعيف باتفاقهم.

قال فيه أحمد والنسائي: متروك.

وقال ابن معين: ليس بثقة وليس بشيء.

وقال البخاري: سكتوا عنه.

وقال أبو حاتم وأبو زرعة: منكر الحديث ضعيف الحديث.

ومثل هذا الإسناد لا يثبت به شيء بالكلية. وإذا أحسنا الظن قلنا هذا

من أخبار بني إسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار، ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها والله أعلم.

فصل في الكلام على المجرّة وقوس قزح

قال أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير (١٠٥٩١)]: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن هرقل كتب إلى معاوية وقال: إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عما أسألهم عنه. قال: فكتب إليه يسأله عن المجرة وعن القوس وعن بقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة. قال: فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال: إن هذا الشيء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومي هذا! من لهذا؟ قيل: ابن عباس فطوى معاوية كتاب هرقل فبعث به إلى ابن عباس فكتب إليه «أن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق. والمجرة باب السماء الذي تنشق منه. وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من النهار فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل».

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنه.

فأما الحديث الذي رواه الطبراني [المعجم الكبير (١٧٥٤)]: حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج، حدثنا إبراهيم بن مخلد، حدثنا الفضل بن المختار عن محمد بن مسلم الطائفي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ إني مرسلك إلى قوم أهل كتاب فإذا سئلت عن المجرة التي في السماء فقل: هي لعاب حية تحت العرش»؛ فإنه حديث منكر جداً بل الأشبه أنه موضوع وراويه الفضل بن المختار هذا أبو سهل البصري. ثم انتقل إلى مصر قال فيه أبو حاتم الرازي هو مجهول حدث بالأباطيل.

وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث جدا.

وقال ابن عدي: لا يتابع على أحاديثه لا متنا ولا إسنادا في الكامل في الضعفاء.

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ. وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢-١٣]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

وروى الإمام أحمد [٤٣٥/٥] عن يزيد بن هارون، عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن شيخ من بني غفار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك».

وروى موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم أنه قال: إن نطقه الرعد وضحكه البرق.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام، عن عبيد الله الرازي، عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه وجه: إنسان ووجه ثور ووجه نسر ووجه أسد، فإذا مصع بذنبه فذلك البرق.

وقد روى الإمام أحمد [١٠٠/٢] والترمذي [٣٤٥٠] والنسائي [١٠٧٦٣] والبخاري في كتاب الأدب [الأدب المفرد ٧٢١] والحاكم في مستدركه [٢٨٦/٤] من حديث الحجاج بن أرطاة حدثني أبو مطر عن سالم عن أبيه قال: كان رسول الله إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك».

وروى ابن جرير [في تفسيره ١٢٤/١٣] من حديث ليث عن رجل عن أبي هريرة رفعه: كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده».

وعن علي أنه كان يقول: «سبحان من سبحت له».

وكذا عن ابن عباس والأسود بن يزيد وطاوس وغيرهم.

وروى مالك [الموطأ: ٩٩٢/٢] عن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويقول: «إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض».

وروى الإمام أحمد [٣٥٩/٢] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولما أسمعتهم صوت الرعد».

وروى الطبراني [المعجم الكبير (١١٣٧١)] عن ابن عباس مرفوعاً: «إذا سمعتم الرعدَ فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً».

وكل هذا مبسوط في التفسير ولله الحمد والمنة.

١٣ - خلْق الملائكة وصفاتهم عليهم السلام

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمَاً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقال: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآيات ٢٦ - ٢٩]

وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الشورى: الآية ٥]

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: الآيتان ٧ - ٨]

وقال تعالى: ﴿فَإِن اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: الآية ٣٨]

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: الآيتان ١٩ - ٢٠]

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: الآيات ١٦٤ - ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا

بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ [مريم: الآية ٦٤]

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَاماً كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار ١٠ ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ [المدثر: ٣١]

وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: الآيتان ٢٣ ـ ٢٤]

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: الآية ١]

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً. الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ [الفرقان: الآيتان ٢٥ ـ ٢٦]

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً. يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً﴾ [الفرقان: الآيتان ٢١ ـ ٢٢]

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٩٨]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: الآية ٦]

والآيات في ذكر الملائكة كثيرة جداً يصفهم تعالى بالقوة في العبادة وفي الخلق وحسن المنظر وعظمة الأشكال وقوة الشكل في الصور المتعددة كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ. وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الآيات [هود: الآيات ٧٧ ـ ٧٨].

فذكرنا في التفسير [٦/١٠٩] ما ذكره غير واحد من العلماء من أن الملائكة تبدو لهم في صورة شباب حسان امتحاناً واختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجة، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وكذلك كان جبريل يأتي إلى النبي ﷺ في صفات متعددة فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي وتارة في صورة أعرابي وتارة في صورته التي خلق عليها. له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب كما رآه على هذه الصفة مرتين: مرة منهبطاً من السماء إلى الأرض. ومرة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى. وهو قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: الآيات ٥ ـ ٨]

أي جبريل كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة. منهم ابن مسعود وأبو هريرة وأبو ذر وعائشة: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٩ ـ ١٠] أي إلى عبد الله محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: الآيات ١٣ ـ ١٧].

وكل ذلك المراد به جبريل. وقد ذكرنا في أحاديث الإسراء في سورة سبحان أن سدرة المنتهى في السماء السابعة. وفي رواية في السادسة أي: أصلها وفروعها في السابعة ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾. قيل: غشيها نور الرب جل جلاله.

وقيل: غشيها فراش من ذهب.

وقيل: غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة.

وقيل: غشيها الملائكة مثل الغربان.

وقيل: غشيها من الله أمرٌ فلا يستطيع أحد أن ينعتها. أي من حسنها وبهائها.

ولا منافاة بين هذه الأقوال إذ الجميع ممكن حصوله في حال واحدة.

وذكرنا أن رسول الله ﷺ قال: «ثم رفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها كالقلال».

وفي رواية: «كقلال هجر وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران. فأما الباطنان ففي الجنة. وأما الظاهران فالنيل والفرات» [تقدم].

وتقدم الكلام على هذا في ذكر خلق الأرض وما فيها من البحار والأنهار. وفيه: «ثم رفع لي البيت المعمور وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم» وذكر أنه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور. وذكرنا وجه المناسبة في هذا أن البيت المعمور في السماء السابعة بمنزلة الكعبة في الأرض.

وقد روى سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة أن ابن الكوا سأل علي بن أبي طالب عن البيت المعمور فقال «هو مسجد في السماء يقال: له الضُّراح، وهو بحيال الكعبة من فوقها. حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون فيه أبداً». وهكذا روى عليّ بن ربيعة وأبو الطفيل عن علي مثله [تفسير الطبري: ١٦/٢٧، ١٧].

وقال الطبراني [١٢١٨٥]: أنبأنا الحسن بن علّويه القطان، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار، حدثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة حدثنا ابن جريج عن صفوان بن سليم عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البيت المعمور في السماء يقال له: الضراح وهو على مثل البيت الحرام بحياله لو سقط لسقط عليه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يرونه قط، فإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة». يعني في الأرض.

وهكذا قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع بن أنس والسدي وغير واحد [تفسير الطبري: ١٧/٢٧].

وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: «فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم».

وزعم الضحاك أنه تعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الحن من قبيلة إبليس لعنه الله كان يقول: سدنته وخدامه منهم والله أعلم.

وقال آخرون: في كل سماء بيت يعمره ملائكتها بالعبادة فيه ويفدون إليه بالنوبة والبدل كما يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج في كل عام والاعتمار في كل وقت والطواف والصلاة في كل آن.

قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في أوائل كتابه المغازي: حدثنا أبو عبيد في حديث مجاهد «أن الحرم حرام مناه «يعني قدره من السماوات» السبع والأرضين السبع وأنه رابع أربعة عشر بيتاً في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت لو سقطت سقط بعضها على بعض».

ثم روى مجاهد قال: مناه أي: مقابله وهو حرف مقصور.

ثم قال: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش، عن أبي سليمان مؤذن الحجاج سمعت عبد الله بن عمرو يقول: «إن الحرم محرم في السماوات السبع مقداره من الأرض - وإن بيت المقدس مقدس في السماوات السبع مقداره من الأرض» كما قال بعض الشعراء:

إنّ الذي سَمَكَ السّماءَ بَنَى لنا بَيْتاً دَعائمُهُ أعَزُّ وأطْوَلُ

واسم البيت الذي في السماء الدنيا بيت العزة. واسم الملك الذي هو مقدم الملائكة فيها إسماعيل.

فعلى هذا يكون السبعون ألفاً من الملائكة الذين يدخلون في كل يوم إلى البيت المعمور ثم لا يعودون إليه. «آخر ما عليهم» «أي لا تحصل لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر» يكونون من سكان السماء السابعة وحدها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: الآية ٣١]

وقال الإمام أحمد [١٧٣/٥]: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد عن مورق عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل» فقال أبو ذر: «والله لوددت أني شجرة تعضد».

ورواه الترمذي [٢٣١٢] وابن ماجه [٤١٩٠] من حديث إسرائيل.

وقال الترمذي: حسن غريب ويروى عن أبي ذر [الحاكم في المستدرك: ٥٧٩/٤] موقوفاً.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير (١٧٥١)]: حدثنا حسين بن عرفة المصري حدثنا عروة بن مروان الرقي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً: ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً».

فدل هذان الحديثان على أنه ما من موضع في السماوات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة وهم في صنوف من العبادة. منهم من هو قائم أبداً ومنهم من هو راكع أبداً، ومنهم من هو ساجد أبداً، ومنهم من هو في صنوف أخر والله أعلم بها.

وهم دائمون في عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم الله بها، ولهم منازل عند ربهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: الآيات ١٦٤ - ١٦٦].

وقال ﷺ: «ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربها». قالوا: وكيف يصفون؟ قال: «يُتمونُ الصفوف الأول ويتراصون في الصف» [م: ٤٣٠].

وقال: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت لنا الأرض مسجداً وتربتها لنا طهوراً وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة» [م: ٥٢٢].

وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب جل جلاله صفوفاً كما قال تعالى: ﴿وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [الفجر: الآية ٢٢].

ويقفون صفوفاً بين يدي ربهم عز وجل يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلآئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ [النبأ: الآية ٣٨]

والمراد بالروح هاهنا: بنو آدم؛ قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة.

وقيل: ضرب من الملائكة يشبهون بني آدم في الشكل. قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش.

وقيل: جبريل. قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك.

وقيل: ملك يقال له: الروح بقدر جميع المخلوقات.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ قال هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً.

وقال ابن جرير [٢٢/٣٠]: حدثني محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا روّاد بن الجراح، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن علقمة عن ابن مسعود قال: الروح في السماء الرابعة هو أعظم من السماوات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفا وحده.

وهذا غريب جداً

وقال الطبراني [المعجم الكبير (١١٤٧٦)]: حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصري، حدثنا وهب الله بن رزق أبو هريرة، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثني عطاء عن عبد الله بن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لله ملكا لو قيل له التقم السماوات والأرضين بلقمة واحدة لفعل. تسبيحه: سبحانك حيث كنت».

وهذا أيضاً حديث غريب جداً. وقد يكون موقوفاً.

وذكرنا في صفة حملة العرش عن جابر بن عبد الله قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام».

رواه أبو داود [٤٧٢٧] وابن أبي حاتم ولفظه: «خفق الطير سبعمائة عام».

وقد ورد في صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: الآية ٥] قالوا: كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط وكن سبعاً بمن فيها من الأمم وكانوا قريبا من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدن من الأراضي والمعتملات والعمارات وغير ذلك. رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فهذا هو شديد القوى.

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي خلق حسن وبهاء وسناء، كما قال في الآية الأخرى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: الآية ٤٠، والتكوير: الآية ١٩] أي: جبريل رسول من الله.

﴿كَرِيمٌ﴾ أي حسن المنظر ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي له قوة وبأس شديد ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي له مكانه ومنزلة عالية رفيعة عند الله، ذي العرش المجيد، ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي مطاع في الملأ الأعلى ﴿أَمِينٍ﴾ أي ذي أمانة عظيمة.

ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام الذي ينزل عليهم بالوحي. فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة. وقد كان يأتي إلى رسول الله ﷺ وينزل عليه في صفات متعددة كما قدمنا. وقد رآه على صفته التي خلقه الله عليها مرتين. له ستمائة جناح كما روى البخاري [٤٨٥٧] عن طلق بن غنام عن زائدة الشيباني قال: سألت زرّاً عن قوله ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: الآيتان ٩ - ١٠].

قال حدثنا عبد الله يعني ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى جبريل له

ستمائة جناح.

وقال الإمام أحمد [٣٩٥/١ من طريق اخرى]: حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن جامع بن راشد، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل من الدر والياقوت ما الله به عليم».

وقال أحمد أيضاً [٤٦٠/١]: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: الآية ١٣] قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل الدر والياقوت.»

وقال أحمد [٤٠٧/١]: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا حسين، حدثني عاصم بن بهدلة سمعت شقيق بن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح» فسألت عاصماً عن الأجنحة فأبى أن يخبرني قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب. وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد.

وقال أحمد [٤٠٧/١]: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين، حدثني حصين، حدثني شقيق سمعت ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل في خضر تعلق به الدر». إسناده صحيح.

وقال ابن جرير [تفسير الطبري ٤٩/٢٧]: حدثنا ابن بزيع البغدادي قال: حدثنا إسحاق بن منصور، قال: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: الآية ١١] قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض. إسناد جيد قوي.

وفي الصحيحين [خ (٤٨٥٥)، م (١٧٧)] من حديث عامر الشعبي عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: الآية ٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: الآية ١٣] فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها فقال: «إنما ذاك جبريل لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض سادّاً عِظَمُ خَلْقه ما بين السماء والأرض».

وقال البخاري [٣٢١٨]: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عمر بن ذر «ح» وحدثني يحيى بن جعفر، حدثنا وكيع عن عمر بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال: رسول الله ﷺ لجبريل «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا» قال فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: الآية ٦٤] الآية.

وروى البخاري [١٩٠٢، ٤٩٩٧]: من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير وكان أجود مايكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلَرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وقال البخاري [٣٢٢١]: حدثنا قتيبة، حدثنا الليث عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخر العصر شيئاً فقال له عروة: أما إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله ﷺ فقال عمر: أعلم ما تقول يا عروة قال: سمعت بشير بن أبي مسعود يقول: سمعت أبا مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نزل جبريل فأمني فصليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه» يحسب بأصابعه خمس صلوات.

ومن صفة إسرافيل عليه السلام وهو أحد حملة العرش وهو الذي ينفخ في الصور بأمر ربه نفخات ثلاثاً. أولاهن نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث كما سيأتي بيانه في موضعه من كتابنا هذا بحول الله وقوته وحسن توفيقه. والصور قرن ينفخ فيه. كل دارة منه كما بين السماء والأرض. وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنفخ للبعث، فإذا نفخ تخرج الأرواح تتوهج فيقول الرب جل جلاله: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا فتدخل على الأجساد في قبورها فتدب فيها كما يدب السم في اللديغ فتحيى الأجساد وتنشق عنهم الأجداث، فيخرجون منها سراعاً إلى مقام المحشر، كما سيأتي تفصيله في موضعه.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له!» قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. على الله توكلنا». رواه أحمد [٣٢٦/١] والترمذي [٢٤٣١] من حديث عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري.

وقال الإمام أحمد [٩/٣، ١٠]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن سعد الطائي عن عطية العوفي، عن أبي سعيد قال: ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور فقال: «عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل عليهم السلام».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني [المعجم الكبير (١٢٠٦١)]: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عمر بن أبي ليلى، حدثني أبي عن ابن أبي ليلى، عن الحكم، عن مقسم عن ابن عباس. قال بينا رسول الله ﷺ ومعه جبريل بناحية إذا انشق أفق السماء فأقبل إسرافيل يدنو من الأرض ويتمايل، فإذا ملك قد مثل بين يدي النبي ﷺ فقال: «يا محمد إن الله يأمرك أن تختار بين نبي عبد أو ملك نبي» قال «فأشار جبريل إلي بيده: (أن تواضع) فعرفت أنه لي ناصح فقلت: عبد نبي، فعرج ذلك الملك إلى السماء فقلت: يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلني عن المسألة فمن هذا يا جبريل؟» فقال: هذا إسرافيل عليه السلام خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافاً قدميه لا يرفع طرفه بينه وبين الرب سبعون نوراً ما منها من نور يكاد يدنو منه إلا احترق بين يديه لوح، فإذا أذن الله في شيء من السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر، فإن كان من عملي أمرني به وإن كان من عمل ميكائيل أمره به، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به. «قلت: يا جبريل وعلى أي شيء أنت؟» قال: على الريح والجنود. قلت: «وعلى أي شيء ميكائيل؟» قال: على النبات والقطر «قلت: وعلى أي شيء ملك الموت» قال: على قبض الأنفس وما ظننت أنه نزل إلا لقيام الساعة وما الذي رأيت مني إلا خوفاً من قيام الساعة».

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

في صحيح مسلم [٧٧٠] عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.».

وفي حديث الصور [الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦)] أن إسرافيل أول

من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ في الصور.

وذكر محمد بن الحسن النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة فجوزي بولاية اللوح المحفوظ. حكاه أبو القاسم السهيلي في كتابه (التعريف والأعلام بما أبهم في القرآن من الأعلام) [ص٥٧].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]

عطفهما على الملائكة لشرفهما فجبريل ملك عظيم قد تقدم ذكره.

وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عز وجل ومن أشراف الملائكة المقربين.

وقد قال الإمام أحمد [٣/٢٢٤]: حدثنا أبو اليمان، حدثنا ابن عياش، عن عمارة بن غزنة الأنصاري أنه سمع حميد بن عبيد مولى بني المعلى يقول: «سمعت ثابتاً البناني يحدث عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل: «مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط!» فقال: «ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار».

فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم في القرآن وفي الصحاح هم المذكورون في الدعاء النبوي [م (٧٧٠)] «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل».

فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم.

وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله.

وقد روينا أنه ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقدّرها في موضعها من الأرض وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور للقيام من القبور. والحضور يوم البعث والنشور ليفوز الشكور، ويجازي الكفور، فذاك ذنبه مغفور، وسعيه مشكور. وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور، وهو يدعو بالويل والثبور.

فجبريل عليه السلام يحصل بما ينزل به الهدى. وميكائيل يحصل بما هو موكل به الرزق. وإسرافيل يحصل بما هو موكل به النصر والجزاء.

وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح. وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]

وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم فيتناولها ملك الموت بيده، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه فيلقوها في أكفان تليق بها كما قد بسط عند قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [ابراهيم: ٢٧]

ثم يصعدون بها فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا غلقت دونها وألقي بها إلى الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢]

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أنهم قالوا: إن الأرض بين يدي ملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء [تفسير الطبري: ٢١/٩٧، ٩٨، ٩/٢١٧].

وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الإنسان على حسب عمله إن كان مؤمنا أتاه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب طيبة الأرواح. وإن كان كافراً فبالضد من ذلك. عياذاً بالله العظيم من ذلك.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقري، حدثنا عمرو بن شمر قال: سمعت جعفر بن محمد قال: سمعت أبي يقول: نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ: «يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن» فقال ملك الموت: يا محمد طب نفساً وقر عيناً فإني بكل مؤمن رفيق. واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها».

قال جعفر بن محمد وهو جعفر الصادق بلغني أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلاة فإذا حضر عند الموت، فإذا كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك «لا إله إلا الله محمد رسول الله» في تلك الحال العظيمة.

هذا حديث مرسل وفيه نظر.

وذكرنا في حديث الصور من طريق إسماعيل بن رافع المدني القاص عن محمد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ (الحديث) بطوله. وفيه: «ويأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السماوات وأهل الأرض إلا من شاء الله، فإذا هم قد خمدوا جاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول: يا رب قد مات أهل السماوات والأرض إلا من شئت. فيقول الله وهو أعلم بمن بقي: فمن بقي؟ فيقول: يا ربّ بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقي جبريل وميكائيل. فيقول: ليمت جبريل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول: يا رب يموت جبريل وميكائيل فيقول: اسكت فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي فيموتان، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول: يا رب قد مات جبريل وميكائيل فيقول الله وهو أعلم بمن بقي: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقيت أنا فيقول الله: لتمت حملة عرشي فيموتون ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل.

ثم يأتي ملك الموت فيقول: يا رب قد مات حملة عرشك فيقول الله وهو أعلم بمن بقي: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقيت أنا فيقول الله: أنت خلق من خلقي خلقتك لما رأيت فمت فيموت، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. كان آخراً كما كان أولا».

وذكر تمام الحديث بطوله، رواه الطبراني [الأحاديث الطوال (٣٦)] وابن جرير [في تفسيره: ٢/٣٣٠، ٣٣١، ٢٤/٦١، ٣٠/١٨٦ - ١٨٨] والبيهقي [في البعث والنشور: ٦٦٨، ٦٦٩] ورواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب (الطوالات) وعنده زيادة غريبة وهي قوله: «فيقول الله له أنت خلق من خلقي خلقتك لما أردت فمت موتاً لا تحيى بعده أبداً»

ومن الملائكة المنصوص على أسمائهم في القرآن: **هاروت وماروت في** قول جماعة كثيرة من السلف. وقد ورد في قصتهما وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبها إسرائيليات.

وروى الإمام أحمد [٢/١٣٤] حديثاً مرفوعاً عن ابن عمر وصححه ابن حبان في تقاسيمه [الإحسان (٦١٨٦)]. وفي صحته عندي نظر والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر ويكون مما تلقاه عن كعب الأحبار كما

سيأتي بيانه والله أعلم.

وفيه: «أنه تمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر».

وعن علي وابن عباس وابن عمر أيضاً [تفسير الطبري: ٤٥٦/١] أن الزهرة كانت امرأة وأنهما لما طلبا منها ما ذكر أبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته فارتفعت إلى السماء فصارت كوكباً.

وروى الحاكم في مستدركه [٤٤٢/٢] عن ابن عباس قال: وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب وهذا اللفظ أحسن ما ورد في شأن الزهرة.

ثم قيل: كان أمرهما وقصتهما في زمان إدريس، وقيل: في زمان سليمان بن داود كما حررنا ذلك في التفسير:

وبالجملة فهو خبر إسرائيلي مرجعه إلى كعب الأحبار كما رواه عبد الرزاق في تفسيره [٥٣/١، ٥٤] عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار بالقصة.

وهذا أصح إسناداً وأثبت رجالاً والله أعلم.

ثم قد قيل: إن المراد بقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] قبيلان من الجان، قاله ابن حزم [الفصل: ٢٦١/٣] وهذا غريب وبعيد من اللفظ.

ومن الناس من قرأ وما أنزل على الملكين بالكسر ويجعلهما علجين من أهل فارس، قاله الضحاك [تفسير الطبري: ٤٥٩/١].

ومن الناس من يقول هما ملكان من السماء ولكن سبق في قدر الله لهما ما ذكره من أمرهما إن صح به الخبر ويكون حكمهما كحكم إبليس إن قيل إنه من الملائكة، لكن الصحيح أنه من الجن كما سيأتي تقريره.

ومن الملائكة المسمين في الحديث منكر ونكير عليهما السلام وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر. وقد أوردناها عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

وهما فتانا القبر موكلان بسؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه ويمتحنان البر والفاجر وهما أزرقان أفرقان لهما أنياب وأشكال مزعجة وأصوات مفزعة، أجارنا الله من عذاب القبر وثبتنا بالقول الثابت آمين.

وقال البخاري [٣٢٣١]: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن وهب، حدثني يونس عن ابن شهاب، حدثني عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال «لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا».

ورواه مسلم [١٧٩٥] من حديث ابن وهب به.

١٤- أقسامُ الملائكة

ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقسام:

فمنهم حملة العرش كما تقدم ذكرهم.

ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش. وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾. [النساء: ١٧٢]

ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وقد ذكر الله عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ ـ ٩]

ولما كانت سجاياهم هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة ويدعون كما ثبت في الحديث [م (٢٧٣٢، ٢٧٣٣)] عن الصادق المصدوق أنه قال: «إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثل»

ومنهم سكان السماوات السبع يعمرونها عبادة دائبة ليلاً ونهاراً صباحاً ومساء كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]

فمنهم الراكع دائماً والقائم دائماً والساجد دائماً.

ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

وخازن الجنة ملك يقال له: رضوان جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث.

ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية. ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ. لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧ ـ ٧٨]

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلآئِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ. وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلآئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣٠ ـ ٣١]

ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم كما قال تعالى: ﴿سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ. لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١٠ ـ ١١] الآيات.

قال الوالبي عن ابن عباس: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وهي الملائكة.

وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾. قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما من شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال أبو أمامة: «ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له»

وقال أبو مجلز [تفسير الطبري: ١١٩/١٣]: «جاء رجل إلى علي فقال: إن نفراً من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جُنة حصينة»

ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَاماً كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. [الانفطار ١٠ -١٢]

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان ومسعر عن علقمة بن مرثد عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الجنابة والغائط، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجذم حائط أو بعيره أو ليستره أخوه».

هذا مرسل من هذا الوجه وقد وصله البزار في مسنده [كشف الأستار: ٣١٧] من طريق حفص بن سليمان القارئ. وفيه كلام

عن علقمة عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالاتٍ الغائط والجنابة والغسل. فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذم حائط أو بعيره».

ومعنى إكرامهم أن يستحيى منهم فلا يملي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها فإن الله خلقهم كراماً في خلقهم وأخلاقهم.

ومن كرمهم أنه قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح [خ (٣٢٢٧)، م (٢١٠٦، ٢١٠٧)، ت (٢٨٠٤) أخرجوه دون ذكر الجنب] والسنن [د (٢٢٧) و(٤١٥٢)، س (٢٦١) و(٤٢٩٢)] والمسانيد [أحمد: ٨٣/١، ١٠٧، ١٣٩، ١٥٠] من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب».

وفي رواية [أحمد: ١٦٤/١] عن عاصم بن ضمرة عن علي «ولا بول».

وفي رواية [ت (٢٨٠٥)] رافع عن أبي سعيد مرفوعاً «لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا تمثال».

وفي رواية مجاهد عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو تمثال» [د (٤٨٥٨)، ت (٢٨٠٦)، س (٥٣٨٠)]

وفي رواية ذكوان أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس» [م (٢١١٣)].

ورواه زرارة بن أوفى عنه «لا تصحب الملائكة رفقة معهم جرس» [أحمد: ٣٨٥/٢، ٤١٤].

وقال البزار [كشف الأستار (٣٢١٤)]: حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالفلوسي. حدثنا بيان بن حمران حدثنا سلام عن منصور بن زاذان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن ملائكة الله يعرفون بني آدم «وأحسبه قال» ويعرفون أعمالهم فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا: أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان. وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه. وقالوا: هلك فلان الليلة».

ثم قال البزار: سلام هذا أحسبه سلاّماً المدائني وهو لين الحديث.

وقد قال البخاري [٣٢٢٣]: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الملائكة يتعاقبون ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر. ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم - فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون. وأتيناهم وهم يصلون».

هذا اللفظ في كتاب بدء الخلق بهذا السياق وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الوجه. وقد أخرجاه في الصحيحين [خ (٧٤٢٩)، م (٦٣٢)] في البدء من حديث مالك عن أبي الزناد به.

وقال البزار [كشف الأستار (٣٢٥٢)]: حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي، حدثنا تمام بن نجيح عن الحسن - يعني البصري - عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة».

ثم قال تفرد: به تمام بن نجيح وهو صالح الحديث.

قلت: وقد وثقه ابن معين وضعفه البخاري وأبو حاتم وأبو زرعة والنسائي وابن عدي ورماه ابن حبان بالوضع.

وقال الإمام أحمد: لا أعرف حقيقة أمره.

والمقصود أن كل إنسان له حافظان ملكان اثنان واحد من بين يديه وآخر من خلفه يحفظانه من أمر الله بأمر الله عز وجل. وملكان كاتبان عن يمينه وعن شماله وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال يكتب حسناته، وكاتب الشمال يكتب سيئاته، فأراد صاحب الشمال أن يكتبها، قال له صاحب اليمين: أمهله لعله أن يتوب أو يستغفر. وإذا عمل حسنة، كتبها صاحب اليمين من غير توقف ولا استمار من صاحب الشمال. كما ذكرنا ذلك عند قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ -١٨]

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٣٨٥/١]. حدثنا أسود بن عامر. حدثنا سفيان، حدثنا منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير».

انفرد بإخراجه مسلم [٢٨١٤] من حديث منصور به.

فيحتمل أن هذا القرين من الملائكة غير القرين يحفظ الإنسان وإنما هو موكل به ليهديه ويرشده بإذن ربه إلى سبيل الخير وطريق الرشاد كما أنه قد وكل به القرين من الشياطين لا يألوه جهداً في الخبال والإضلال. والمعصوم من عصمه الله عز وجل وبالله المستعان.

وقال البخاري: [٣٢١١] حدثنا أحمد بن يونس حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن والأغر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاؤوا يستمعون الذكر».

وهكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه وهو في الصحيحين [خ (٩٢٩)، م (٨٥٠)] من وجه آخر. وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ

الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾. [الإسراء: ٧٨]

وقال الإمام أحمد [٤٧٤/٢]: حدثنا أسباط حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ. وحدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. ورواه الترمذي [٣١٣٥] والنسائي [كبرى: ١١٢٩٣] وابن ماجه [٦٧٠] من حديث أسباط.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

قلت: وهو منقطع.

وقال البخاري [٤٧١٧] وقال: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة. ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾.

وقال البخاري [٣٢٣٧]: حدثنا مسدد، حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح».

تابعه شعبة وأبو حمزة وابن داود وأبو معاوية عن الأعمش.

وثبت في الصحيحين [خ (٧٨٠)، م (٤١٠)] أن رسول الله ﷺ قال «إذا أمن الإمام فأمنوا. فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

وفي لفظ [خ (٩٨٠)، م (٤١٠)] «إذا قال الإمام آمين فإن الملائكة تقول في السماء آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

وفي صحيح البخاري [٣٢٢٨] حدثنا إسماعيل، حدثني مالك عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده فقولوا: (اللهم ربنا ولك الحمد) فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه.»

ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث مالك، عن سُمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة [م (٤٠٩)، د (٨٤٨)، ت (٢٦٧)، س (١٠٦٢)].

وقال الإمام أحمد [٢٥١/٢، ٢٥٢]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أو عن أبي سعيد هو شك (يعني الأعمش) قال: قال رسول الله ﷺ «إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلاً عن كتاب الناس، فإذا وجدوا أقواماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى بغيتكم فيجيئون فيحفّون بهم إلى السماء الدنيا فيقول: الله أي شيء تركتم عبادي يصنعون؟ فيقولون: تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك فيقول: وهل رأوني؟ فيقولون: لا فيقول: كيف لو رأوني فيقولون: لو رأوك لكانوا أشد تحميداً وتمجيداً وذكرا. قال: فيقول: فأي شيء يطلبون؟ فيقولون: يطلبون الجنة فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا فيقول: وكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً قال: فيقول: من أي يتعوذون؟ فيقولون من النار فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها هربا وأشد منها خوفاً. قال: فيقول: أشهدكم أني قد غفرت لهم. قال فيقولون: إن فيهم فلاناً الخطاء لم يردهم، إنما جاء لحاجة فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»

وهكذا رواه البخاري [٦٤٠٨] عن قتيبة، عن جرير بن عبد الحميد عن الأعمش به. وقال: رواه شعبة عن الأعمش ولم يرفعه. ورفعه سهيل عن أبيه.

وقد رواه أحمد [٢٥٢/٢، ٣٨٢] عن عفان عن وهيب، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه.

كما ذكره البخاري معلقاً عن سهيل.

ورواه مسلم [٢٦٨٩] عن محمد بن حاتم، عن بهز بن أسد، عن وهب به.

وقد رواه الإمام أحمد [٢٥٢/٢] أيضاً عن غندر عن شعبة عن سليمان (هو الأعمش) عن أبي صالح، عن أبي هريرة ولم يرفعه نحوه كما أشار إليه البخاري رحمه الله.

وقال الإمام أحمد: [٢٥٢/٢] حدثنا أبو معاوية. حدثنا الأعمش وابن نمير. أخبرنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة. ومن يسّر على معسّر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقاً يلتمس به علما سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه». وكذا رواه مسلم [٢٦٩٩] من حديث أبي معاوية.

وقال الإمام أحمد [٩٤/٣]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر، عن أبي إسحاق، عن الأغر (أبي مسلم) عن أبي هريرة وأبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال «ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وتغشّتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده.»

وكذا رواه أيضاً من حديث إسرائيل وسفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق به نحوه [٤٧٤/٢، ٣٣/٣، ٤٩، ٩٢].

ورواه مسلم [٢٧٠٠] من حديث شعبة والترمذي [٣٣٧٨] من حديث الثوري وقال: حسن صحيح.

ورواه ابن ماجه [٣٧٩١] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن آدم عن عمار بن رزيق عن أبي إسحاق بإسناده نحوه. وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة.

وفي مسند الإمام أحمد [١٩٦/٥] والسنن [د (٣٦٤١)، ت (٢٦٨٢)] عن أبي الدرداء مرفوعاً «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع» أي تتواضع له كما قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]

وقال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]

وقال الإمام أحمد [٤٤١/١]: حدثنا وكيع عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض ليبلغوني عن أمتي السلام».

وهكذا رواه النسائي [١٢٨١] من حديث سفيان الثوري وسليمان الأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب به.

وقال الإمام أحمد [١٦٨/٦]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت

الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

ورواه مسلم [٢٩٩٦] عن محمد بن رافع وعبدة بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به.

وكذلك الحديث الذي روى أن للملك لَمّةً بقلب العبد، وللشيطان لمة بقلبه، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمة الشيطان إيعاد بالفقر – وفي رواية: بالشر – وتكذيب بالحق». وكذلك الحديث الذي روى: «إذا أصبح العبد ابتدره الشيطان والملك، فيقول الملك: افتح بخير. ويقول الشيطان: افتح بشر. فإذا ذكر الله وحمده تولاه الملك وطرد عنه الشيطان إلى الليل، فإذا جاء الليل قال الملك: اختِمْ بخير. ويقول الشيطان: اختمْ بشر. فإن خَتَم نهاره بخير تولاه الملك حتى يصبح، وطرد عنه الشيطان». وكذلك إذا خرج العبد من منزله فقال: «بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال له الملك: هُديتَ وكُفيتَ ووُقيتَ. ثم يتنحى عنه الشيطان»..... إلى آخره.

والأحاديث في ذكر الملائكة كثيرة جداً. وقد ذكرنا ما يسره الله تعالى وله الحمد.

١٥ – الخلاف في تفضيل الملائكة على البشر

وقد اختلف الناس في تفضيل الملائكة على البشر على أقوال:

فأكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم.

وأقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه [٣٠٣/٩، ٣٠٤] في ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلساً لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر: «ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم» واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]

ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد فقال عراك بن مالك: «ما أحد أكرم على الله من ملائكته: هم خدمة داريه ورسله إلى أنبيائه» واستدل بقوله تعالى: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]

فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي: «ما تقول أنت يا أبا حمزة؟ فقال: قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ومن يزوره الملائكة» فوافق عمر بن عبد العزيز في الحكم واستدل بغير دليله.

وأضعف دلالة ما صرح به من الآية وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مضمونه أنها ليست مختصة بالبشر. فإن الله قد وصف الملائكة بالإيمان في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وكذلك الجان: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا﴾ [الجن: ١٣] ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾.

قلت: وأحسن ما يستدل به في هذه المسألة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعا وهو أصح قال: «لما خلق الله الجنة قالت الملائكة: يا ربنا اجعل لنا هذه نأكل منها ونشرب، فإنك خلقت الدنيا لبني آدم فقال الله: لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان» [أخرج نحوه البيهقي في «الأسماء والصفات» ٣١٧، وعبد الرزاق في «تفسيره» ٣٨٢/٢].

١٦ – خلق الجان وقصة الشيطان

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ. وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٤ – ١٦]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦ – ٢٧]

وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ قالوا: من طرف اللهب.

وفي رواية من خالصه وأحسنه [تفسير الطبري: ١٢٦/٢٨، ١٢٧].

وقد ذكرنا آنفا من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم» رواه مسلم [٢٩٩٦].

قال كثير من علماء التفسير: خلقت الجن قبل آدم عليه السلام وكان قبلهم في الأرض الجِنُّ والبِنُّ، فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم بسبب ما أحدثوا.

وذكر السدي في تفسيره عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس؛ وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن، وإنما سموا الجن لأنهم خُزان الجنة. وكان إبليس مع ملكه خازناً فوقع في صدره إنما أعطاني الله هذا لمزية لي على الملائكة [تاريخ الطبري: ٨١/١].

وذكر الضحاك عن ابن عباس: أن الجن لما أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء بعث الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور [تاريخ الطبري: ٨٤/١].

وقال محمد بن إسحاق عن خلاد، عن عطاء، عن طاوس عن ابن عباس: كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل. وكان من سكان الأرض ومن أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً وكان من حي يقال لهم: الجن [تاريخ الطبري: ٨٦/١].

وروى ابن أبي حاتم [في تفسيره: ١٢٢/١] عن سعيد بن جبير عنه: كان اسمه عزازيل وكان من أشرف الملائكة من أولي الأجنحة الأربعة.

وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج قال ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة. وكان خازناً على الجنان؛ وكان له سلطان سماء الدنيا. وكان له سلطان الأرض [تاريخ الطبري: ٨١/١].

وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس: كان يسوس ما بين السماء والأرض رواه ابن جرير [تاريخ الطبري: ٨١/١].

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا [تاريخ الطبري: ٨٦/١].

وقال الحسن البصري: لم يكن من الملائكة طرفة عين وأنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر [تفسير الطبري: ٢٦٠/١٥].

وقال شهر بن حوشب وغيره: كان إبليس من الجن الذين طردوهم الملائكة فأسره بعضهم وذهب به إلى السماء. رواه ابن جرير [تاريخ الطبري: ٨٧/١].

قالوا: فلما أراد الله خلق آدم ليكون في الأرض هو وذريته من بعده وصور جثته منها جعل إبليس وهو رئيس الجان وأكثرهم عبادة إذ ذاك وكان اسمه عزازيل يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك.

وقال: أما لئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت علي لأعصينك، فلما ان نفخ الله في آدم من روحه، كما سيأتي، وأمر الملائكة بالسجود له دخل إبليس منه حسد عظيم وامتنع من السجود له وقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فخالف الأمر واعترض على الرب عز وجل وأخطأ في قوله وابتعد من رحمة ربه وأنزل من مرتبته التي كان قد نالها بعبادته وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نار وهم من نور فخانه طبعه في أحوج ما كان إليه ورجع إلى أصله الناري ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٣ - ٧٤]

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠]

فأهبط إبليس من الملأ الأعلى وحرم عليه قدر أن يسكنه فنزل إلى الأرض حقيراً ذليلاً مذؤوماً مدحوراً متوعداً بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس إلا أنه مع ذلك جاهد كل الجهد على إضلال بني آدم بكل طريق وبكل مرصد كما قال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢-٦٥]

وسنذكر القصة مستفاضة عند ذكر خلق آدم عليه السلام.

والمقصود أن الجان خلقوا من النار وهم كبني آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون. ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون كما أخبر تعالى عنهم في سورة الأحقاف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ -٣٢]

وقال تعالى في سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً. وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً. وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً. وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً. وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً. وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً. وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً. وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً. وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً. وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً. وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً. وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً. وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً. وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً. لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ [الجن: ١ - ١٧]

وقد ذكرنا تفسير هذه السورة وتمام القصة في آخر سورة الأحقاف. وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك هنالك. وأن هؤلاء النفر كانوا من جن (نصيبين) وفي بعض الآثار من جن (بصرى) وأنهم مروا برسول الله ﷺ وهو قائم يصلي بأصحابه ببطن نخلة من أرض مكة فوقفوا فاستمعوا لقراءته. ثم اجتمع بهم النبي ﷺ ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها ونهاهم عنها وسألوه الزاد فقال: «كلم عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً وكل روثة علف لدوابكم» [مسلم: ٤٥٠] ونهى النبي ﷺ أن يستنجي بهما وقال «إنهما زاد إخوانكم الجن». ونهى عن البول في السرب لأنها مساكن الجن [أبو داود: ٢٩]. وقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة الرحمن فما جعل يمر فيها بآية ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد. وقد أثنى عليهم النبي ﷺ في ذلك لما قرأ هذه السورة على الناس فسكتوا. فقال: «الجن كانوا أحسن منكم ردّاً ما قرأت عليهم ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد». رواه الترمذي [٣٢٩١] عن جابر وابن جرير [تفسير الطبري: ١٢٤/٢٧] والبزار [كشف الأستار: ٢٢٦٩] عن ابن عمر.

١٧- الخلافُ في جزاء مؤمني الجنّ

وقد اختلف في مؤمني الجن هل يدخلون الجنة؟ أو يكون جزاء طائعهم أن لا يعذب بالنار فقط!.

على قولين: الصحيح أنهم يدخلون الجنة لعموم القرآن. ولعموم قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦ -٤٧]

فامتن تعالى عليهم بذلك، فلولا أنهم ينالونه لما ذكره وعده عليهم من النعم. وهذا وحده دليل مستقل كاف في المسألة والله أعلم.

وقال البخاري: [٣٢٩٦] حدثنا قتيبة عن مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، عن أبيه: أن أبا سعيد الخدري قال له: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»

قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ. انفرد به البخاري دون مسلم.

وأما كافرو الجن فمنهم الشياطين ومقدمهم الأكبر إبليس عدو آدم أبي البشر وقد سلطه هو وذريته على آدم وذريته. وتكفل الله عز وجل بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم. كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠-٢١].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ

الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٤٤]

وقد ذكر تعالى هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وههنا وفي سورة سبحان وفي سورة طه وفي سورة ص. وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه في كتابنا التفسير ولله الحمد. وسنوردها في قصة آدم إن شاء الله.

والمقصود أن إبليس أنظره الله وأخره وأمره الله إلى يوم القيامة محنة لعباده واختباراً منه لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾. [سبأ: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢ -٢٣].

١٨- عرش إبليس

فإبليس لعنه الله حي الآن منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن. وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٧٦] وكان اسمه قبل معصيته العظيمة: عزازيل.

قال النقاش: وكنيته (أبو كردوس) ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد: «ما ترى؟» قال أرى عرشا على الماء فقال له النبي ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك» [خ (١٣٥٤)، م (٢٩٢٥، ٢٩٣٠)] فعرف أن مادة مكاشفته التي كاشفه بها شيطانية مستمدة من إبليس الذي هو يشاهد عرشه على البحر. ولهذا قال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك» أي: لن تجاوز قيمتك الدنية الخسيسة الحقيرة.

والدليل على أن عرش إبليس على البحر الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٣/٣٥٤]: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني ماعز التميمي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «عرش إبليس في البحر يبعث سراياه في كل يوم يفتنون الناس فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للناس».

وقال أحمد [٣/٣٨٤]: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عرش إبليس على البحر يبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة» تفرد به من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [٣/٣٨٨]: حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ لابن صائد: «ما ترى؟». قال: أرى عرشاً على الماء أو قال: على البحر حوله حيات قال ﷺ: «ذاك عرش إبليس». هكذا رواه في مسند جابر.

وقال في مسند أبي سعيد [٣/٩٧]: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا علي بن زيد عن أبي نضرة، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال لابن صائد: «ما ترى؟» قال: أرى عرشا على البحر حوله الحيات. فقال رسول الله ﷺ «صدق ذاك عرش إبليس»

وروى الإمام أحمد [٣/٣٥٤، ٣٦٩] من طريق ماعز التميمي وأبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينهم».

وروى الإمام مسلم [٢٨١٣] من حديث الأعمش عن أبي سفيان، طلحة بن نافع، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة. يجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً. ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله. قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول: نعم أنت».

يروى بفتح النون بمعنى نعم أنت ذاك الذي تستحق الإكرام. وبكسرها أي: نعم منك.

وقد استدل به بعض النحاة على جواز كون فاعل نعم مضمرا وهو قليل. واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج الأول ورجحه ووجهه بما ذكرناه والله أعلم.

وقد أوردنا هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]

يعني أن السحر المتلقى عن الشياطين من الإنس والجن يتوصل به إلى التفرقة بين المتآلفين غاية التآلف المتوادين المتحابين ولهذا يشكر إبليس سعي من كان السبب في ذلك. فالذي ذمه الله يمدحه والذي يغضب الله يرضيه عليه لعنة الله.

١٩- شرُّ الشياطين

وقد أنزل الله عز وجل سورتي المعوذتين مطردة لأنواع الشر وأسبابه وغاياته. ولا سيما سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ. مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾. وثبت في الصحيحين عن أنس [هو عند مسلم (٢١٧٤) ولم يخرجه خ].

وفي صحيح البخاري [٢٠٣٥] عن صفية بنت حيي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي [٤٣٠١]: حدثنا محمد بن بحر، حدثنا عدي بن أبي عمارة، حدثنا زياد النميري، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس».

ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب كان فيه تذكار للناسي كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]

وقال في موسى ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]

وقال تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢] يعني الساقي لما

قال له يوسف ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ نسي الساقي أن يذكره لربه يعني مولاه الملك. وكان هذا النسيان من الشيطان فلبث يوسف في السجن بضع سنين. ولهذا قال بعده: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]

أي؛ تذكر قول يوسف له: اذكرني عند ربك. بعد مدة. وقرئ «بعد أمَهٍ» أي: نسيان. وهذا الذي قلنا من أن الناسي هو الساقي هو الصواب من القولين كما قررناه في التفسير والله أعلم.

قال الإمام أحمد [٥٩/٥]: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ حماره فقلت: تعس الشيطان فقال النبي ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته وإذا قلت: باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب». تفرد به أحمد وهو إسناد جيد.

وقال أحمد [٣٣٠/٢]: حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا الضحاك بن عثمان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشيطان فأبَسَّ به كما يَبِسُّ الرجل بدابته فإذا سكن له زنقه أو ألجمه». قال أبو هريرة وأنتم ترون ذلك.

أما المزنوق فتراه مائلاً كذا لا يذكر إلا الله. وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد [٤٣٩/٢]: حدثنا ابن نمير حدثنا ثور، يعني ابن يزيد، عن مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم».

وقال الإمام أحمد [٢٣٥/١]: حدثنا وكيع عن سفيان، عن منصور، عن ذر بن عبد الله الهمداني، عن عبد الله بن شداد، عن ابن عباس قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به» فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

ورواه أبو داود [٥١١٢] والنسائي [كبرى، ١٠٥٠٤، ١٠٥٠٥] من حديث منصور؛ زاد النسائي والأعمش: كلاهما عن أبي ذر به.

وقال البخاري: [٣٢٧٦] حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول: من خلق ربك، فإذا بلغه فليستعذ بالله وليته». وهكذا رواه مسلم [١٣٤] من حديث الليث ومن حديث الزهري وهشام بن عروة كلاهما عن عروة به.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ -٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾. [النحل: ٩٨ -١٠٠]

وروى الإمام أحمد [٥٠/٣] وأهل السنن [د (٧٧٥)، ت (٢٤٢)] من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه».

وجاء مثله من رواية جبير بن مطعم وعبد الله بن مسعود وأبي أمامة الباهلي [أحمد (٨٠/٤، ٨٣)، د (٧٦٤) و(٧٦٥)، ج (٨٠٧) من رواية جبير، وأخرجه من رواية ابن مسعود: أحمد (٤٠٣/١، ٤٠٤)، ج (٨٠٨)، ومن رواية أبي أمامة: أحمد ٢٥٣/٥].

وتفسيره في الحديث قال: «فهمزه الموتة وهو الخنق الذي هو الصرع. ونفخه الكبر. ونفثه الشعر».

وثبت في الصحيحين [خ (١٤٢) و(٦٣٢٢)، م (٣٧٥)] عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال: «أعوذ بالله من الخبث والخبائث».

قال كثير من العلماء: استعاذ من ذُكران الشياطين وإناثهم

وروى الإمام أحمد [٣٧١/٢] عن سُريج عن عيسى بن يونس، عن ثور، عن الحصين عن أبي سعد الخير وكان من أصحاب عمر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى الغائط فليستتر فإن لم يجد إلا أن يجمع كثيباً فليستدبره، فإن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم من فعل فقد أحسن ومن لا فلا حرج». ورواه أبو داود [٣٥] وابن ماجه [٣٣٧] من حديث ثور بن يزيد به.

وقال البخاري [٦١١٥]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير عن الأعمش، عن عدي بن ثابت قال: قال سليمان بن صرد: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس فجعل أحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد. لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ فقال: إني لست بمجنون. ورواه أيضاً مسلم [٢٦١٠] وأبو داود [٤٧٨١] والنسائي [كبرى (١٠٢٢٤) و(١٠٢٢٥)] من طرق عن الأعمش.

وقال الإمام أحمد [٨٠/٢]: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله». وهذا على شرط الصحيحين بهذا الإسناد وهو في الصحيح [م (٢٠١٩) و(٢٠٢٠)] من غير هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد [٧٧/٦] من حديث إسماعيل بن أبي حكيم، عن عروة، عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أكل بشماله أكل معه الشيطان، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان».

وقال الإمام أحمد [٣٠٣/١]: حدثنا محمد بن جعفر، أنبأنا شعبة عن أبي زياد الطحان، سمعت أبا هريرة يقول عن النبي ﷺ: أنه رأى رجلاً يشرب قائماً فقال له: «قه» قال: لم؟ قال: «أيسرك أن يشرب معك الهر؟». قال: لا قال: «فإنه قد شرب معك من هو شر منه الشيطان». تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أيضاً [٢٨٣/٢]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن رجل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الذي يشرب وهو قائم ما في بطنه لاستقاء».

قال: وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثل حديث الزهري.

وقال الإمام أحمد [٣٤٦/٣]: حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير، أنه سأل جابراً، سمعت النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر

اسم الله حين يدخل وحين يطعم قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا. وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال: أدركتم المبيت. وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء قال: نعم».

وقال البخاري [٣٢٧٢]: حدثنا محمد، حدثنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرز، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرني الشيطان» أو «الشياطين» لا أدري أي ذلك قال هشام.

ورواه مسلم [(٨٢٨) و(٨٢٩)] والنسائي [٥٧٠، وفي الكبرى (١٥٥٠)] من حديث هشام به.

وقال البخاري [٣٢٧٩]: حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق فقال: «ها إن الفتنة ههنا إن الفتنة ههنا، من حيث يطلع قرن الشيطان» هكذا رواه البخاري منفرداً به من هذا الوجه.

وفي السنن [د (٤٨٢١) و(٤٨٢٢)، ج (٣٧٢٢)] أن رسول الله ﷺ نهى أن يجلس بين الشمس والظل.

وقال: «إنه مجلس الشيطان» [أحمد ٣/٤١٣، ج (٣٧٢٢)].

وقد ذكروا في هذا معاني. من أحسنها أنه لما كان الجلوس في مثل هذا الموضع فيه تشويه بالخلقة فيما يرى كان يحبه الشيطان لأن خلقته في نفسه مشوّهة وهذا مستقر في الأذهان. ولهذا قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥] الصحيح أنهم الشياطين لا ضرب من الحيات كما زعمه من زعمه من المفسرين والله أعلم. فإن النفوس مغروز فيها قبح الشياطين وحسن خلق الملائكة وإن لم يشاهدوا. ولهذا قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ وقال النسوة لما شاهدن جمال يوسف ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]

وقال البخاري [٣٢٨٠]: حدثنا يحيى بن جعفر، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا ابن جريج، أخبرني عطاء عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «إذا استجنح» أو «كان جنح الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم وأغلق بابك واذكر اسم الله وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئاً».

ورواه أحمد [٣/٣١٩] عن يحيى عن ابن جريج به؛ وعنده «فإن الشيطان لا يفتح مغلقاً».

وقال الإمام أحمد [٣/٣٠١]: حدثنا وكيع عن فطر عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله: «أغلقوا أبوابكم وخمروا آنيتكم وأوكوا أسقيتكم وأطفئوا سرجكم، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ولا يكشف غطاء ولا يحل وكاء، وإن الفويسقة تضرم البيت على أهله» يعني الفأرة.

وقال البخاري [٣٢٨٣]: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن كريب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه».

وحدثنا الأعمش عن سالم عن كريب عن ابن عباس مثله.

ورواه أيضاً [٣٢٧١] عن موسى بن إسماعيل، عن همام، عن منصور، عن سالم، عن كريب عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أما لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فرزقا ولداً لم يضره الشيطان».

وقال البخاري [٣٢٦٩]: حدثنا إسماعيل، حدثنا أخي عن سليمان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد: يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة. فإن توضأ انحلت عقدة. فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلاّ أصبح خبيث النفس كسلان» هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه.

وقال البخاري [٣٢٩٥]: حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثني ابن أبي حازم، عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن محمد بن إبراهيم، عن عيسى بن طلحة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثاً، فإن الشيطان يبيت على خيشومه»

ورواه مسلم [٢٣٨] عن بشر بن الحكم عن الدراوردي.

والنسائي [٩٠] عن محمد بن زنبور، عن عبد العزيز بن أبي حازم، كلاهما عن يزيد بن الهاد به.

وقال البخاري [٣٢٧٠]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: «ذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليله حتى أصبح قال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه» أو قال «في أذنه».

ورواه مسلم [٧٧٤] عن عثمان وإسحاق كلاهما عن جرير به.

وأخرجه البخاري [١١٤٤] أيضاً والنسائي [كبرى: ١٣٠٢] وابن ماجه [١٣٣٠] من حديث منصور بن المعتمر به.

وقال البخاري [٣٢٨٥]: حدثنا محمد بن يوسف، أنبأنا الأوزاعي، عن يحيى ابن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قضي أقبل، فإذا ثوب بها أدبر، فإذا قضي أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه. فيقول: اذكر كذا وكذا حتى لا يدري أثلاثاً صلى أم أربعاً، فإذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً سجد سجدتي السهو».

هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد [٣/١٥٤]: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا جعفر، يعني الأحمر، عن عطاء بن السائب، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «راصوا الصفوف فإن الشيطان يقوم في الخلل». وقال أحمد [٣/٢٦٠، ٢٨٣]: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يقول «راصوا صفوفكم وقاربوا بينهما وحاذوا بين الأعناق فوالذي نفس محمد بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنه الحذف»

وقال البخاري [٣٢٧٤]: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا يونس، عن حميد بن هلال، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مر بين يدي أحدكم شيء فليمنعه، فإن أبى فليمنعه، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان».

ورواه أيضا مسلم [٥٠٥] وأبو داود [٧٠٠] من حديث سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال به.

وقال الإمام أحمد [٣/٨٢، ٨٣]: حدثنا أبو أحمد، حدثنا مسرّة بن معبد، حدثنا أبو عبيد صاحب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائما يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني.

ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام يصلي

صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لُعَابه بين أصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل».

وروى أبو داود [٦٦٩] منه «فمن استطاع» إلى آخره عن أحمد بن أبي سريج، عن أبي أحمد محمد بن عبد الله بن الزبيري به.

وقال البخاري [٣٢٨٤]: حدثنا محمود، حدثنا شبابة، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه صلى صلاة الصبح فقال: «إن الشيطان عرض لي فشدَّ علي يقطع الصلاة عليّ فأمكنني الله منه» فذكر الحديث.

وقد رواه مسلم [٥٤١] والنسائي [١١٤٤٠] من حديث شعبة به مطولاً.

ولفظ البخاري [٤٨٠٨] عند تفسير قوله تعالى إخبارا عن سليمان عليه السلام أنه قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص الآية ٣٥] من حديث روح وغندر، عن شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتا من الجن تفلت عليَّ البارحة أو- كلمة نحوها - ليقطع عليّ الصلاة فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾» قال روح فرده خاسئاً.

وروى مسلم [٥٤٢] من حديث أبي إدريس عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك» ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» ثلاثا. وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك! فقال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات. ثم قلت: «ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة».

وقال تعالى: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: الآية ٣٣] يعني الشيطان

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: الآية ٦] فالشيطان لا يألو الإنسان خبالاً جهده وطاقته في جميع أحواله وحركاته وسكناته، كما صنف الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً في ذلك سماه "مصائد الشيطان" وفيه فوائد جمة.

وفي سنن أبي داود [١٥٥٢] أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت».

وروينا في بعض الأخبار [مسند أحمد: ٣/٢٩، ٤١] أنه قال: «يا رب وعزتك وجلالك لا أزال اغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

وقال الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٨٦] فوعد الله هو الحق المصدق ووعد الشيطان هو الباطل.

وقد روى الترمذي [٢٩٨٨] والنسائي [١١٠١٥] وابن حبان في صحيحه [الإحسان: ٩٩٧] وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «إن للشيطان لَمَّةً بابن آدم وللملك لمة. فأما لمة الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيب بالحق. وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله. ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان». ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾».

وقد ذكرنا في فضل سورة البقرة أن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وذكرنا في فضل آية الكرسي أن من قرأها في ليلة لا يقربه الشيطان حتى يصبح.

وقال البخاري [٣٢٩٣]: حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك، عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومَه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك».

وأخرجه مسلم [٢٦٩١] والترمذي [٣٤٦٨] وابن ماجه [٣٧٩٨] من حديث مالك. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال البخاري [٣٢٨٦]: أنبأنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال ﷺ «كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب». تفرد به من هذا الوجه.

وقال البخاري [٣٢٨٩]: حدثنا عاصم بن علي، حدثنا ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، فإن أحدكم إذا قال: ها. ضحك الشيطان».

ورواه أحمد [٤٢٨/٢] وأبو داود [٥٠٢٨] والترمذي [٢٧٤٧] وصححه النسائي [١٠٠٤٣] من حديث ابن أبي ذئب به.

وفي لفظ [مسلم (٢٩٩٤، ٢٩٩٥)] «إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع، فإن الشيطان يدخل».

وقال الإمام أحمد [٢٦٥/٢]: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العطاس ويبغض أو يكره التثاؤب فإذا قال أحدكم: هاها، فإنما ذلك الشيطان يضحك من جوفه».

ورواه الترمذي [٢٧٤٦] والنسائي [١٠٠٤٥] من حديث محمد بن عجلان به.

وقال البخاري [٣٢٩١]: حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن أشعث، عن أبيه، عن مسروق قال: «قالت عائشة: سألت النبي ﷺ عن التفات الرجل في الصلاة فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم».

وكذا رواه أبو داود [٩١٠] والنسائي [١١٩٥] من رواية أشعث بن أبي الشعثاء سليم بن أسود المحاربي عن أبيه، عن مسروق به.

وروى البخاري [٣٢٩٢] من حديث الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير، حدثني عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه

فليبصق عن يساره وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره».

وقال الإمام أحمد [٣١٧/٢]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمشينَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده فيقع في حفرة من النار».

أخرجاه [خ (٢٠٧٢)، م (٢٦١٧)] من حديث عبد الرزاق.

٢٠- رجمُ الشياطين

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]

وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى. وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ. دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨]

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ. وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[الشعراء: ٢١٠،٢١٢]

وقال تعالى إخباراً عن الجان: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾ [الجن: ٨،٩].

وقال البخاري [٣٢٨٨]: وقال الليث: حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال، أن أبا الأسود أخبره عن عروة، عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «الملائكة تحدث في العنان - والعنان الغمام - بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كلمة». هكذا رواه في صفة إبليس معلقاً عن الليث به.

ورواه في صفة الملائكة [٣٢١٠] عن سعيد بن أبي مريم، عن الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر، عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة بنحوه.

تفرد بهذين الطريقين دون مسلم.

وروى البخاري في موضع آخر [٧٥٦١] ومسلم [٢٢٢٨] من حديث الزهري عن يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه قال: (قالت عائشة: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال: «إنهم ليسوا بشيء». فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً! فقال ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجني فيَقُرْقِرُها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة». هذا لفظ البخاري.

وقال البخاري [٤٨٠٠]: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان. فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترق السمع. ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض».

ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه. «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا. فيصدَّق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء» انفرد به البخاري.

٢١- القرين

وروى مسلم [٢٢٢٩] من حديث الزهري عن علي بن الحسين زين العابدين، عن ابن عباس، عن رجال من الأنصار، عن النبي ﷺ نحو هذا.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾[الزخرف: ٣٦،٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] الآية.

وقال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ. قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ. مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[ق: ٢٧-٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ. وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[الأنعام: ١١٢، ١١٣]

وقد قدمنا في صفة الملائكة ما رواه أحمد [٣٨٥/١] ومسلم [٢٨١٤] من طريق منصور عن سالم بن أبي الجعد، عن أبيه، واسمه رافع، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير».

وقال الإمام أحمد [٢٥٧/١]: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن قابوس عن أبيه، واسمه حصين بن جندب. وهو أبو ظبيان الجنبي، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين»، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم ولكن الله أعانني عليه فأسلم». تفرد به أحمد وهو على شرط الصحيح.

وقال الإمام أحمد [١١٥/٦] حدثنا هارون، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني أبو صخر، عن يزيد بن قسيط حدثه أن عروة بن الزبير حدثه أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته «أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت: ففرت عليه، قالت: فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «لعلك يا عائشة أغرت»؟ قالت: فقلت: وما لي أن لا يغار مثلي على مثلك! فقال رسول الله ﷺ «أفاخذك شيطانك» قالت: يا رسول الله أو معي شيطان؟ قال: «نعم». قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم». قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم». وهكذا رواه مسلم [٢٨١٥] عن هارون وهو ابن مسعود الأيلي، بإسناده نحوه.

وقال الإمام أحمد [٣٨٠/٢]: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر».

تفرد به أحمد من هذا الوجه؛ ومعنى «لينضي شيطانه»: ليأخذ بناصيته

فيغلبه ويقهره كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه.

٢٢- غواية الشياطين

وقوله تعالى إخباراً عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف الآيتان: ١٦ ـ ١٧].

قال الإمام أحمد [٤٨٣/٣]: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل هو عبد الله بن عقيل الثقفي، حدثنا موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن سبرة بن أبي فاكه، قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ قال: «فعصاه وأسلم» قال: «وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل. فعصاه وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال، فقال: أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال؟» قال: «فعصاه وجاهد». قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم كان حقاً على الله أن يدخله الجنة. وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن كان غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

وقال الإمام أحمد [٢٥/٢]: حدثنا وكيع، حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري، حدثني جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي».

قال وكيع: يعني الخسف.

ورواه أبو داود [٥٠٧٤] والنسائي [٥٥٤٤، ٥٥٤٥] وابن ماجه [٣٨٧١] وابن حبان [الإحسان: ٩٦١] والحاكم [المستدرك: ٥١٧/١] من حديث عبادة بن مسلم به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

٢- كتاب قصص الأنبياء

١- خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: ٣٠،٣٩]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. [الحجرات: ١٣]

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ. قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ. وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ. قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ١١-٢٥].

كما قال في الآية الأخرى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[الحجر: ٢٦،٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً. قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦١ - ٦٥]

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[الكهف: ٥٠]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى. فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى. إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى. فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى. فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى. قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبِعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[طه: ١١٥،١٢٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ

وَخَلَقْتَهُ مِن طِين. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ. قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[ص: ٦٧ - ٨٨].

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن. وقد تكلمنا على ذلك كله في التفسير.

ولنذكر ههنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ والله المستعان.

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾[الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه جهلة المفسرين. قالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ [البقرة: ٣٠] قيل: علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن؛ قاله قتادة [عبد الرزاق في تفسيره: ٤٢/١].

وقال عبد الله بن عمرو: كانت الجنُّ والبنُّ قبل آدم بالفي عام فسفكوا الدماء فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور [ابن ابي حاتم في تفسيره: ١٠٩/١]. وعن ابن عباس نحوه [الحاكم في «المستدرك» ٢٦١/٢].

وعن الحسن ألهموا ذلك.

وقيل: لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ فقيل: أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له: السجل. رواه ابن أبي حاتم [تفسيره: ١١٢/١] عن أبي جعفر الباقر.

وقيل: لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالبا ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد. فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فيها نحن لا نفتر ليلاً ولا نهاراً.

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي: أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون، أي سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء ثم بين لهم شرف آدم عليهم في العلم فقال ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

قال ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وفي رواية: علمه اسم الصحفة والقدر حتى الفسوة والفسية [ابن أبي حاتم في تفسيره ١١٥/١، تفسير الطبري: ٢١٥/١].

وقال مجاهد: علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء.

وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد.

وقال الربيع: علمه أسماء الملائكة.

وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته.

والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما [انظر الأقوال كلها «تفسير الطبري»: ٢١٥/١، ٢١٦].

وذكر البخاري [٤٤٧٦] هنا ما رواه هو ومسلم [١٩٣] من طريق سعيد وهشام عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء» وذكر تمام الحديث.

ثم عرضهم على الملائكة ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

قال الحسن البصري: لما أراد الله خلق آدم قالت الملائكة: لا يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه فابتلوا بهذا وذلك قوله ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

وقيل غير ذلك كما بسطناه في التفسير [١٠٥/١].

قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] أي سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك كما قال ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء﴾ [البقرة: ٢٥٥]

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] أي: أعلم السر كما أعلم العلانية.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ ما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فهذا ما أبدوه [البقرة: ٣٠] وبقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ المراد بهذا الكلام إبليس وما أسرَّه وكتمه في نفسه من الكبر والعداوة لآدم عليه السلام، قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدي والضحاك والثوري واختاره ابن جرير [تفسيره: ٢٢٢/١].

وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قولهم لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه.

قوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤] هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

فهذه أربع تشريفات: خَلْقُه له بيده الكريمة، ونفخه فيه من روحه، وأمره الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء.

ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى وتناظرا كما سيأتي «أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء». وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم وكما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال في الآية الأخرى. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١١-١٢]

قال الحسن البصري: قاس إبليس وهو أول من قاس.

وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس. رواهما ابن جرير [تفسيره: ١٣١/٨].

ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه

أشرف من آدم فامتنع من السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود.

والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار. ثم هو فاسد في نفسه، فإن الطين أنفع وخير من النار؛ لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو؛ والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق.

ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه؛ ولهذا أمر الملائكة بالسجود له كما قال ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٥].

استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الإلهي ومعاندة الحق في النص على آدم على التعيين وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً، وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى في سورة سبحان ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً. قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾. [الإسراء: ٦١-٦٥].

وقال في سورة الكهف ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] أي خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره، وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته النارية الخبيثة احوج ما كان إليها، فإنه مخلوق من نار كما قال: وكما قدمنا في «صحيح مسلم» [٢٩٩٦] عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم»

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط.

وقال شهر بن حوشب: كان من الجن فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار، وكان إبليس ممن أسر فاخذوه معهم إلى السماء فكان هناك. فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه.

وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون. كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا.

قال ابن عباس: وكان اسمه عزازيل.

وفي رواية عنه: الحارث.

قال النقاش: وكنيته أبو كردوس.

قال ابن عباس: وكان من حي من الملائكة يقال لهم الجن وكانوا خزان الجنان وكان من أشرفهم وأكثرهم علماً وعبادة، وكان من أولي الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطاناً رجيماً.

وقال في سورة ص ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ [٧١ - ٨٥].

وقال في سورة الأعراف ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [١٦ - ١٧] أي بسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم كل مرصد ولآتينهم من كل جهة منهم، فالسعيد من خالفه والشقي من اتبعه.

كما قال الإمام أحمد [٤٨٣/٣]: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل، هو عبد الله بن عقيل الثقفي، حدثنا موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن سبرة بن أبي الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم باطرقه» وذكر الحديث كما قدمناه في صفة إبليس.

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم.

أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات؟ وهو قول الجمهور.

أو المراد بهم ملائكة الأرض. كما رواه ابن جرير [١٨٥/٢٣] من طريق الضحاك عن ابن عباس. وفيه انقطاع. وفي السياق نكارة وإن كان بعض المتاخرين قد رجحه، ولكن الأظهر من السياقات الأول ويدل عليه الحديث «وأسجد لك ملائكته» [م (٢٦٥٢) وأصله عند البخاري (٣٤٠٩)] وهذا عموم أيضاً والله أعلم.

وقوله تعالى لإبليس ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣] و﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨] دليل على أنه كان في السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته وتشبه بالملائكة في الطاعة والعبادة ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه فاهبط إلى الأرض مذؤوماً مدحوراً.

وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال في الأعراف: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ. وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٨-١٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى. فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى. إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٦-١١٩].

وسياق هذه الآيات يقتضي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة لقوله ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وهذا قد صرح به ابن إسحاق بن يسار وهو ظاهر هذه الآيات.

ولكن حكى السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس. وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا: أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وَحْشاً ليس له فيها زوج يسكن

إليها فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة. خلقها الله من ضلعه. فسألها من أنت؟ قالت: امرأة قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء قالوا: ولم كانت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي [تفسير الطبري: ٢٢٩/١].

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه لحماً.

ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾ [النساء: ١] الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٩] الآية [تفسير الطبري: ٢٢٤/٤، ٢٢٥] وستتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وفي الصحيحين [خ (٣٣٣١)، م (١٤٦٨)] من حديث زائدة عن ميسرة الأشجعي، عن أبي حازم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً» لفظ البخاري.

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩]

فقيل: هي الكرم.

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبي وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس والسدي في رواية عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قال: وتزعم يهود أنها الحنطة.

وهذا مروي عن ابن عباس والحسن البصري ووهب بن منبه وعطية العوفي وأبي مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبي ليلى.

قال وهب: والحبة منه ألين من الزبد وأحلى من العسل.

وقال الثوري عن أبي حصين، عن أبي مالك ﴿وَلا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩] هي النخلة.

وقال ابن جريج عن مجاهد: هي التينة.

وبه قال قتادة وابن جريج.

وقال أبو العالية: كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي في الجنة حدث [انظر تفسير الطبري: ٢٣١/١ ـ ٢٣٣].

وهذا الخلاف قريب. وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها. ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن.

وإنما الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي أسكنها آدم: هل هي في السماء أو في الأرض هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه

والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى.

وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام «علام أخرجتنا ونفسك من الجنة» الحديث كما سيأتي الكلام عليه [سيأتي بطرقه ص٥٧ ـ ٦٠].

وروى مسلم في صحيحه [١٩٥] من حديث أبي مالك الأشجعي، واسمه: سعد بن طارق، عن أبي حازم سلمة بن دينار، عن أبي هريرة وأبي مالك عن ربعي عن حذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم» وذكر الحديث بطوله. وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى وليست تخلو عن نظر.

وقال آخرون: بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة؛ ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى.

وهذا القول محكي عن أبي بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة واختاره ابن قتيبة في «المعارف» [ص٥١] والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره، وأفرد له مصنفاً على حدة. وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله. ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الري في تفسيره [تفسير الرازي: ٣/٣] عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصبهاني؛ ونقله القرطبي في تفسيره [٣٠٢/١] عن المعتزلة والقدرية.

وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب وممن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في «الملل والنحل» [٨٢/٤ ـ ٨٣] وأبو محمد بن عطية في تفسيره [٢٣٦/١] وأبو عيسى الرماني في تفسيره وحكى عن الجمهور الأول وأبو القاسم الراغب والقاضي الماوردي في تفسيره فقال: واختلف في الجنة التي أسكناها يعني آدم وحواء على قولين:

أحدهما أنها جنة الخلد.

الثاني: جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها الله دار جزاء.

ومن قال بهذا اختلفوا على قولين:

أحدهما: أنها في السماء لأنه أهبطهما منها؛ وهذا قول الحسن.

والثاني: أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار. وهكذا قول ابن جبير وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم، والله أعلم بالصواب من ذلك. هذا كلامه.

فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة وأشعر كلامه أنه متوقف في المسألة.

ولهذا حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال: هذه الثلاثة التي أوردها الماوردي. ورابعها الوقف ورجّح القول الأول، والله أعلم. وحكي القول بأنها في السماء وليست جنة المأوى عن أبي علي الجبائي.

وقد أورد أصحاب القول الثاني سؤالاً يحتاج مثله إلى جواب فقالوا: لا شك أن الله سبحانه وتعالى طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية وأمره بالخروج عنها والهبوط منها، وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته وإنما هو أمر قدري لا يخالف ولا يمانع ولهذا قال: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً﴾ [الأعراف: ١٨] وقال ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] وقال: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤] والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة، وأياً ما كان فمعلوم أنه ليس له الكون بعد هذا في المكان الذي طرد عنه وأبعد منه لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز.

قالوا: ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه

بقوله له ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

وبقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢] الآية

وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما.

وقد أجيبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها أو أنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء. وفي الثلاثة نظر. والله أعلم.

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة: ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد في الزيادات [١٣٦/٥] عن هدبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن البصري، عن عُتَي، هو ابن ضمرة السعدي، عن أبي بن كعب قال: «إن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من عنب الجنة، فانطلق بنوه ليطلبوه له، فلقيتهم الملائكة فقالوا: أين تريدون يا بني آدم؟ فقالوا: إن أبانا اشتهى قطفاً من عنب الجنة. فقالوا لهم: ارجعوا فقد كفيتموه؛ فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه. وقالوا: هذه سنتكم في موتاكم» وسيأتي الحديث بسنده. وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام.

قالوا: فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التي كان فيها آدم التي اشتهى منها القطف ممكناً لما ذهبوا يطلبون ذلك، فدل على أنها في الأرض لا في السماء والله تعالى أعلم.

قالوا: والاحتجاج بأن الألف واللام في قوله: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهني مسلّم، ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام، فإن آدم خلق من الأرض ولم ينقل أنه رفع إلى السماء وخلق ليكون في الأرض، وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]

قالوا: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧] فالألف واللام ليس للعموم ولم يتقدم معهود لفظي، وإنما هي للمعهود الذهني الذي دل عليه السياق وهو البستان.

قالوا: وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء بل هو كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨] الآية، وإنما كان في السفينة حين استقرت على «الجودي» ونضب الماء عن وجه الأرض، أمر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركاً عليه وعليهم.

وقال الله تعالى: ﴿اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] الآية.

وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير.

قالوا: ولا مانع بل هو الواقع أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى﴾ [طه: ١١٨] أي لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعري.

﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾ [طه: ١١٩] أي لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس. ولهذا قرن بين هذا وهذا وبين هذا وهذا لما بينهما من المقابلة.

فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نهي عنها أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعي والنكد والابتلاء والاختبار والامتحان واختلاف السكان ديناً وأخلاقاً وأعمالاً وقصوداً وإرادات وأقوالاً وأفعالاً كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] ولا يلزم من هذا أنهم كانوا في السماء كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ [الإسراء: ١٠٤] ومعلوم أنهم كانوا فيها لم يكونوا في السماء.

قالوا: وليس هذا القول مفرّعاً على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم ولا تلازم بينهما، فكل من حكي عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح كما سيأتي إيرادها في موضعها، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] أي: عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] أي: من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد وذلك بما وسوس لهما وزينه في صدورهما كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

يقول: ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين أي: ولو أكلتما منها لصرتما كذلك

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١] أي: حلف لهما على ذلك ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] كما قال في الآية الأخرى ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]

أي: هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم واستمررت في ملك لا يبيد ولا ينقضي؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع.

والمقصود أن قوله ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ التي إذا أكلت منها خلدت وقد تكون هي الشجرة التي قال الإمام أحمد [٤٦٢/٢]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن أبي الضحاك، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها شجرة الخلد».

وكذا رواه أيضاً [٤٥٥/٢] عن غندر وحجاج عن شعبة.

ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده [٢٥٤٧] عن شعبة أيضاً به.

قال غندر: قلت لشعبة: هي شجرة الخلد؟ قال: ليس فيها هي. تفرد به الإمام أحمد.

وقوله ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]

كما قال في [طه: ١٢١] ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهي التي حَدَتْهُ على أكلها، والله أعلم.

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري [٣٣٣٠]: حدثنا بشر بن محمد، حدثنا عبد الله، أنبأنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها».

تفرد به من هذا الوجه وأخرجاه في الصحيحين [خ (٣٣٩٩)، م

(١٤٧٠)] من حديث عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، به.

ورواه أحمد [٢/٣٠٤، ٣١٥، ٣٤٩] ومسلم [١٤٧٠] عن هارون بن معروف، عن أبي وهب، عن عمرو بن حارث عن أبي يونس عن أبي هريرة به.

وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها، فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام وليس فيها ذكر لإبليس، فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر.

وفيها: أنهما كانا عريانين.

وكذا قال وهب بن منبه كان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها [تفسير الطبري: ٨/١٤٣].

هذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم وتحريف وخطأ في التعريب، فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يكاد يتيسر لكل أحد ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيداً ولا يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً؛ فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنى.

وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧] فهذا لا يرد لغيره من الكلام، والله تعالى أعلم.

وقال ابن أبي حاتم [في تفسيره: ١/١٢٩]: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن عز وجل: يا آدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء».

وقال الثوري عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] قال: ورق التين [تفسير الطبري: ٨/١٤٢].

وهذا إسناد صحيح إليه، وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب وظاهر الآية يقتضي أعم من ذلك، وبتقدير تسليمه فلا يضر والله تعالى أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٧/٤٠٤] من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن بن ذكوان، عن الحسن البصري، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ستين ذراعاً كثير الشعر موارى العورة، فلما أصاب الخطيئة في الجنة بدت له سوأته فخرج من الجنة فلقيته شجرة فأخذت بناصيته فناداه ربه: أفراراً مني يا آدم؟ قال: بل حياء منك والله يا رب مما جئت به».

ثم رواه [تاريخ دمشق: ٧/٤٠٥] من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن عُتَي بن ضمرة، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ بنحوه.

وهذا أصح فإن الحسن لم يدرك أبياً.

ثم أورده أيضاً [تاريخ دمشق: ٧/٤٠٤] من طريق خيثمة بن سليمان الأطرابلسي، عن محمد بن عبد الوهاب أبي قرصافة العسقلاني، عن آدم بن أبي إياس، عن شيبان، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بنحوه.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ. قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. [الأعراف ٢٢ ـ ٢٣]

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة وتذلل وخضوع واستكانة وافتقار إليه تعالى في الساعة الراهنة، وهذا السر ما سرى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأخراه.

﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف ٢٤] وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس قيل والحية معهم، أمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونهم متعادين متحاربين.

وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات وقال «ما سالمناهن منذ حاربناهن» [أحمد: ١/٢٣٠، ٢/٢٤٧، ٤٣٢، ٥٢٠، أبو داود (٥٢٤٨)].

وقوله في سورة [طه: ١٢٣] ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ هو أمر لآدم وإبليس وما تناسل منهما عداوة مستمرة، واستتبع آدم حواء وإبليس الحية.

وقيل: هو أمر لهم بصيغة التثنية كما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء ٧٨]

والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدع ومدعى عليه قال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة ٣٦ ـ ٣٩]

فقال بعض المفسرين: المراد بالإهباط الأول: الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا.

وبالثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض.

وهذا ضعيف لقوله في الأول ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ فدل على أنهم اهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول والله أعلم.

والصحيح أنه كرره لفظاً وإن كان واحداً وناط مع كل مرة حكماً فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم، وبالثاني الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد، ومن خالفه فهو الشقي، وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الحكيم.

وروى الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٧/٤٠٩] عن مجاهد قال: أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره، فنزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول: العفو العفو، فقال الله سبحانه: فراراً مني؟ قال: بل حياء منك يا سيدي

وقال الأوزاعي عن حسان، هو ابن عطية: «مكث آدم في الجنة مائة عام.

وفي رواية: ستين عاماً. وبكى على الجنة سبعين عاما وعلى خطيئته سبعين عاما وعلى ولده حين قتل أربعين عاما» رواه ابن عساكر.

وقال ابن أبي حاتم [التفسير: ١٣٢/١]: «حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن سعيد، عن ابن عباس قال: أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال له: «دحنا» بين مكة والطائف».

وعن الحسن قال: «أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستميسان من البصرة على أميال وأهبطت الحية بأصبهان».

رواه ابن أبي حاتم أيضاً [التفسير: ١٣٢/١].

وقال السدي: «نزل آدم بالهند ونزل معه بالحجر الأسود وبقبضة من ورق الجنة، فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك» [تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٣/١].

وعن ابن عمر قال: «أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة». رواه ابن أبي حاتم أيضاً [التفسير: ١٣١/١].

وقال عبد الرزاق [التفسير: ٤٣/١ ـ ٤٤]: قال معمر: أخبرني عوف عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى الأشعري قال: وإن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

وقال الحاكم في مستدركه [٥٤٢/٢]: أنبأنا أبو بكر بن بالويه عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمرو عن زائدة، عن عمار بن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس»

ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وفي صحيح مسلم [٨٥٤] من حديث الزهري عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها»

وفي الصحيح من وجه آخر«وفيه تقوم الساعة».

وقال أحمد [٥٤٠/٢]: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، عن أبي عمار، عن عبد الله بن فروخ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعه فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة» وإسناده على شرط مسلم.

فأما الحديث الذي رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤١٣/٧] من طريق أبي القاسم البغوي:

حدثنا محمد بن جعفر الوركاني، حدثنا سعيد بن ميسرة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هبط آدم وحواء عريانين جميعاً عليهما ورق الجنة، فأصابه الحر حتى قعد يبكي ويقول لها: يا حواء قد آذاني الحر! قال: فجاءه جبريل بقطن وأمرها أن تغزل وعلمها وأمر آدم بالحياكة وعلمه أن ينسج».

قال: «كان آدم لم يجامع امرأته في الجنة حتى هبط منها للخطيئة التي أصابتهما بأكلهما من الشجرة».

قال: «وكان كل واحد منهما ينام على حدة، ينام أحدهما في البطحاء والآخر من ناحية أخرى حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتي أهله».

قال: «وعلمه كيف يأتيها، فلما أتاها جاءه جبريل فقال: كيف وجدت امرأتك؟ قال: صالحة».

فإنه حديث غريب ورفعه منكر جداً. وقد يكون من كلام بعض السلف؛ وسعيد بن ميسرة هذا هو: أبو عمران البكري البصري. قال فيه البخاري: منكر الحديث، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات. وقال ابن عدي: مظلم الأمر

وقوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة ٣٧] قيل: هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

روي هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [تفسير الطبري: ٢٤٣/١ ـ ٢٤٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «قال آدم عليه السلام: أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم» فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]

وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: «الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم» [تفسير الطبري: ٢٤٤/١ ـ ٢٤٥].

وروى الحاكم في مستدركه [٥٤٥/٢] من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]

قال: قال آدم: «يا رب ألم تخلقني بيدك. قيل له: بلى. ونفخت في من روحك؟ قيل له: بلى، وعطستُ فقلتَ: يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك قيل له: بلى، وكتبت علي أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى. قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم.

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الحاكم أيضاً [المستدرك: ٦١٥/٢] والبيهقي [الدلائل: ٤٨٨/٥] وابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٣٧/٧] من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي» فقال الله: «فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟ فقال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك».

قال البيهقي: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف والله أعلم.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١ـ١٢٢]

٢ ـ احتجاج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام

قال البخاري [٤٧٣٨]: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حاج موسى عليهما السلام فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم. قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه

أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني أو قدره علي قبل أن يخلقني.- قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى»

وقد رواه مسلم [٢٦٥٢] عن عمرو الناقد والنسائي [كبرى: ١١٣٢٩] عن محمد بن عبد الله بن يزيد، عن أيوب بن النجار به.

قال أبو مسعود الدمشقي: ولم يخرجا عنه في الصحيحين سواه [انظر تحفة الأشراف: ١١/٦٥].

وقد رواه أحمد [٢/٣١٤] عن عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة.

ورواه مسلم [٢٦٥٢] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به.

وقال الإمام أحمد [٢/٢٦٤]: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن أبو شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة فقال له آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه تلومني على أمر قدّر علي قبل أن أخلق!».

قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى، حجّ آدم موسى» مرتين.

قلت: وقد روى هذا الحديث البخاري [٣٤٠٩] ومسلم [٢٦٥٢] من حديث الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحوه.

وقال الإمام أحمد [٢/٣٩٨]: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: قال «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة قال: «فقال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه تلومني على عمل لم أعمله كتبه الله علي قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: «فحج آدم موسى».

وقد رواه الترمذي [٢١٣٤] والنسائي [١١٤٤٣] جميعا عن يحيى بن حبيب بن عربي عن معتمر بن سليمان، عن أبيه عن الأعمش به.

قال الترمذي: وهو غريب من حديث سليمان التيمي عن الأعمش.

قال: وقد رواه بعضهم عن الأعمش عن أبي صالح عن هريرة، وقال: وقد رواه بعضهم عن أبي صالح، عن أبي سعيد.

قلت: هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده [كشف الأستار: ٢١٤٧، ٢١٤٨] عن محمد بن مثنى، عن معاذ بن أسد، عن الفضل بن موسى، عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد.

ورواه البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن علي الفلاس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أو أبي سعيد، عن النبي ﷺ فذكر نحوه.

وقال أحمد [٢/٢٤٨]: حدثنا سفيان عن عمرو، سمع طاوساً سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه» وقال مرة: «برسالته وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة». قال: «حج آدم موسى، حج آدم موسى، حج آدم موسى»

وهكذا رواه البخاري [٦٦١٤] عن علي بن المديني: حدثنا سفيان قال: حفظناه من عمرو عن طاوس قال: سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال: «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى» هكذا ثلاثاً.

قال سفيان: حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ مثله.

وقد رواه الجماعة [خ (٦٦١٤)، م (٢٦٥٢)، د (٤٧٠١)، س (كبرى: ١١١٨٧)، ج (٨٠)] إلا ابن ماجه من عشر طرق عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال أحمد [٢/٤٦٤]: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد، عن عمار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لقي آدم موسى فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك الجنة ثم فعلت؟ فقال: أنت موسى الذي كلمك الله واصطفاك برسالته وأنزل عليك التوراة أنا أقدم أم الذكر؟ قال: لا بل الذكر؛ فحج آدم موسى».

قال أحمد [٢/٤٦٤]: وحدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ وحميد عن الحسن، عن رجل قال حماد: أظنه جندب بن عبد الله البجلي، عن النبي ﷺ قال: «لقي آدم موسى» فذكر معناه. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أحمد [٢/٣٩٢]: حدثنا حسين، حدثنا جرير، هو ابن حازم، عن محمد، هو ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقي آدم موسى فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته ثم صنعت ما صنعت؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي كلمه الله وأنزل عليه التوراة؟. قال: نعم. قال: فهل تجده مكتوباً علي قبل أن أخلق؟ قال نعم». قال: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»

وكذا رواه حماد بن زيد عن أيوب، وهشام عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رفعه.

وكذا رواه علي بن عاصم عن خالد. وهشام عن محمد بن سيرين. وهذا على شرطهما من هذه الوجوه [تاريخ دمشق: ٧/٤٤٨، ٤٤٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني أنس بن عياض، عن الحارث بن أبي ذُباب، عن يزيد بن هرمز، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى. فقال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك؟. قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيّاً؟ فبكم وجدت الله كتب التوراة؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟! قال: قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى».

قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ

وقد رواه مسلم [٢٦٥٢] عن إسحاق بن موسى الأنصاري، عن أنس بن عياض، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز والأعرج، كلاهما عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال أحمد [٢/٢٦٨]: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم

وموسى فقال موسى لآدم: يا آدم أنت الذي أدخلت ذريتك النار. فقال آدم: يا موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأنزل عليك التوراة، فهل وجدت أن أهبط؟. قال: نعم» قال: «فحجه آدم»

وهذا على شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه.

وفي قوله «أدخلت ذريتك النار» نكارة.

فهذه طرق هذا الحديث عن أبي هريرة.

رواه عنه حميد بن عبد الرحمن وذكوان أبو صالح السمان وطاوس بن كيسان وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وعمار بن أبي عمار ومحمد بن سيرين وهمام بن منبه ويزيد بن هرمز وأبو سلمة بن عبد الرحمن.

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده [٢٤٣] من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

حدثنا الحارث بن مسكين المصري، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة فأراه آدم عليه السلام. فقال: أنت آدم؟. فقال له آدم: نعم قال: أنت الذي نفخ الله فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك الأسماء كلها؟.. قال: نعم. قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب فلم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟. قال: نعم. قال: تلومني على أمر قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبل؟» قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»

ورواه أبو داود [٤٧٠٢] عن أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهب به.

قال أبو يعلى [٢٤٤]: وحدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعي، حدثنا عمران. عن الرديني بن أبي مجلز، عن يحيى بن يعمر، عن ابن عمر، عن عمر قال أبو محمد أكثر ظني أنه رفعه. قال: «التقى آدم وموسى فقال موسى لآدم: أنت أبو الناس أسكنك الله جنته وأسجد لك ملائكته. قال آدم: يا موسى أما تجده علي مكتوباً؟. قال: فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»

وهذا الإسناد أيضاً لا بأس به والله أعلم.

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث [ص٥٨] عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد. ورواية الإمام أحمد له عن عفان عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن رجل. قال حماد: أظنه جندب بن عبد الله البجلي، عن النبي ﷺ: «لقي آدم موسى» فذكر معناه.

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث:

فرده قوم من القدرية لما تضمن من إثبات القدر السابق.

واحتج به قوم من الجبرية وهو ظاهر لهم بادي الرأي حيث قال: «فحج آدم موسى» لما احتج عليه بتقديم كتابه وسيأتي الجواب عن هذا.

وقال آخرون: إنما حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له

وقيل: إنما حجه لأنه أكبر منه وأقدم.

وقيل: لأنه أبوه.

وقيل: لأنهما في شريعتين متغايرتين.

وقيل: لأنهما في دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمونه.

والتحقيق: أن هذا الحديث روي بألفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعنى. وفيه نظر.

ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم: أنا لم أخرجكم، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة والذي رتب ذلك وقدره وكتبه عليَّ قبل أن أخلق هو الله عز وجل فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إلي أكثر مما أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة، وإنما كان هذا من قدر الله وصنعه وله الحكمة في ذلك؛ فلهذا حج آدم موسى.

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند لأنه متواتر عن أبي هريرة رضي الله عنه وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقاناً.

ثم هو مروي عن غيره من الصحابة كما ذكرنا. ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً فهو بعيد من اللفظ والمعنى. وما فيهم من هو أقوى مسلكاً من الجبرية.

وفيما قالوه نظر من وجوه.

أحدها: أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب منه فاعله.

الثاني: أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، وقد سأل الله في ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ [القصص: ١٦]؛ الآية.

الثالث: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد لانفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود، ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار، وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة؛ فلهذا قال من قال من العلماء بأن جواب آدم إنما كان احتجاجا بالقدر على المصيبة لا المعصية والله تعالى أعلم بالصواب، وهو حسبي ونعم الوكيل.

٣- الأحاديث الواردة في خلق آدم

قال الإمام أحمد [٤/٤٠٠]: حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثني قسامة بن زهير عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك».

ورواه أيضاً [٤/٤٠٦] عن هوذة عن عوف عن قسامة بن زهير، سمعت الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك».

وكذا رواه أبو داود [٤٦٩٣] والترمذي [٢٩٥٥] وابن حبان في صحيحه [الإحسان (٦١٦٠)] من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن قسامة بن زهير المازني البصري، عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس. وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: «فبعث

اللّه عز وجل جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض: أعوذ باللّه منك أن تنقص مني أو تشينني فرجع ولم يأخذ وقال: رب إنها عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ باللّه أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به فَبَلٌ التراب حتى عاد طيناً لازباً، واللازب: هو الذي يلزق بعضه ببعض. ثم قال للملائكة ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص ٧١ - ٧٢] فخلقه اللّه بيده لئلا يتكبر إبليس عنه فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعاً إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة، فذلك حين يقول ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ويقول: لأمر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه.

فلما بلغ الحين الذي يريد اللّه عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة: قل الحمد للّه فقال: الحمد للّه فقال له اللّه: رحمك ربك؛ فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، وذلك حين يقول اللّه تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر ٣٠]» وذكر تمام القصة [تفسير الطبري: ١/٢٠٣].

ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات:

فقال الإمام أحمد [٣/١٥٢]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لما خلق اللّه آدم تركه ما شاء أن يدعه فجعل إبليس يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلْقٌ لا يتمالك».

وقال ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٦١٦٥)]: حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك أن رسول اللّه ﷺ قال: «لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال: الحمد للّه رب العالمين، فقال له تبارك وتعالى: يرحمك اللّه».

وقال الحافظ أبو بكر البزار [لم نجده في «كشف الأستار» وأخرجه بنحوه مطولاً الترمذي (٣٣٦٨)]: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن حدثنا حبان بن هلال، حدثنا مبارك بن فضالة، عن عبيد اللّه، عن حبيب، عن حفص، هو ابن عاصم بن عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب، عن أبي هريرة رفعه قال: «لما خلق اللّه آدم عطس فقال: الحمد للّه فقال له ربه: رحمك ربك يا آدم».

وهذا الإسناد لا بأس به ولم يخرجوه.

وقال عمر بن عبد العزيز: «لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم إسرافيل فأثابه اللّه أن كتب القرآن في جبهته» رواه ابن عساكر

وقال الحافظ أبو يعلى [٦٥٨٠]: حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا عمرو بن محمد عن إسماعيل بن رافع، عن المقبري، عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن اللّه خلق آدم من تراب ثم جعله طيناً ثم تركه، حتى إذا كان حماً مسنوناً خلقه وصوره ثم تركه، حتى إذا كان صلصالاً كالفخار» قال: «فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم. ثم نفخ اللّه فيه من روحه فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه اللّه رحمة ربه فقال اللّه: يرحمك ربك. ثم قال اللّه: يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم [السلام عليكم] فانظر ماذا يقولون؟ فجاء فسلم عليهم فقالوا: وعليك السلام ورحمة اللّه وبركاته. فقال: يا آدم هذا تحيتك وتحية ذريتك قال: يا رب وما ذريتي؟ قال: اختر يدي يا آدم قال: أختار يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين، وبسط كفه، فإذا من هو كائن من ذريته في كف الرحمن فإذا رجال منهم أفواههم النور، فإذا رجل يعجب آدم نوره قال: يا رب من هذا؟ قال: ابنك داود قال: يا رب فكم جعلت له من العمر؟ قال: جعلت له ستين قال: يا رب فأتم له من عمري حتى يكون له من العمر مائة سنة؛ ففعل اللّه ذلك وأشهد على ذلك، فلما نفد عمر آدم بعث اللّه ملك الموت فقال آدم: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال له الملك: أو لم تعطها ابنك داود فجحد ذلك، فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته»

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار والترمذي [٣٣٦٨] والنسائي في «اليوم والليلة» [١٠٤٦] من حديث صفوان بن عيسى عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وقال النسائي: هذا حديث منكر.

وقد رواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي سعيد عن عبد اللّه بن سلام.

وقد رواه أبو حاتم بن حبان في «صحيحه» [الإحسان (٦١٦٧)] فقال: حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لما خلق اللّه آدم ونفخ فيه الروح، عطس فقال: الحمد للّه، فحمد اللّه بإذن اللّه، فقال له: يرحمك ربك يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة - إلى ملأ منهم جلوس - فسلّم عليهم فقال: السلام عليكم فقالوا: وعليكم السلام ورحمة اللّه، ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم. وقال اللّه ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطهما فإذا فيهما آدم وذريته فقال: أي رب ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك وإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه وإذا فيهم رجل أضوؤهم - أو: من أضوئهم لم يكتب له إلا أربعون سنة، قال: يا رب: ما هذا؟ قال: ابنك داود. وقد كتب اللّه عمره أربعين سنة قال: أي رب! زدْ في عمره قال: ذاك الذي كُتِبَ له قال: فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال: أنت وذاك أسكن الجنة؛ فسكن الجنة ما شاء اللّه، ثم أهبط منها، وكان آدم يعدُّ لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم: قد عجلتَ قد كتب لي ألف سنة قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة؛ فجحد آدمُ فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته. فيومئذ أمر بالكتاب والشهود». هذا لفظه.

وقال الترمذي [٣٠٧٦]: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لما خلق اللّه آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟

قال: هؤلاء ذريتك؛ فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أي رب من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة.

فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال فجحد فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته وخطئ آدم فخطئت ذريته».

ثم قال الترمذي: حسن صحيح. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

ورواه الحاكم في مستدركه [٣٢٥/٢] من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة مرفوعاً فذكره، وفيه: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك؛ وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم: يا رب لم فعلت هذا بذريتي؟ قال: كي تشكر نعمتي». ثم ذكر قصة داود. وستأتي من رواية ابن عباس أيضاً.

وقال الإمام أحمد في مسنده [٤٤١/٦]: حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا أبو الربيع، عن يونس بن ميسرة، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم. فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي. وقال للذي في كفه اليسرى: إلى النار ولا أبالي».

وقال ابن أبي الدنيا [كتاب الشكر: ١٦٥]: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا الحكم بن سنان، عن حوشب، عن الحسن قال: «خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فألقوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلي. فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدي؟ قال: يا آدم إني أردت أن أشكر»

وهكذا روى عبد الرزاق [في تفسيره: ٢٤٢/٢] عن معمر، عن قتادة، عن الحسن بنحوه.

وقد قال البخاري [٣٣٢٦]: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً. ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة واستمع ما يُحيُّونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

وهكذا رواه البخاري في كتاب الاستئذان [٦٢٢٧] عن يحيى بن جعفر. ومسلم [٢٨٤١] عن محمد بن رافع، كلاهما عن عبد الرزاق، به.

وقال الإمام أحمد [٥٣٥/٢]: حدثنا روح، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «كان طول آدم ستين ذراعاً في سبع أذرع عرضاً». انفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد [٢٥١/١]: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم، إن أول من جحد آدم! إن الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلاً يزهر قال: أي رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قال: أي رب كم عمره؟ قال: ستون عاماً قال: أي رب زد في عمره قال: لا إلا أن أزيده من عمرك؛ وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عاماً. فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة.

فلما احتضر آدم أتته الملائكة لتقبضه، قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً. فقيل: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال: ما فعلت؛ وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة».

وقال أحمد [٢٩٩/١]: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم - قالها ثلاث مرات - إن الله عز وجل لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه، فرأى فيهم رجلاً يزهر فقال: أي رب زد في عمره قال: لا إلا أن تزيده أنت من عمرك؛ فزاده أربعين سنة من عمره. فكتب الله تعالى عليه كتاباً وأشهد عليه الملائكة.

فلما أراد أن يقبض روحه قال: بقي من أجلي أربعون سنة فقيل له: إنك قد جعلتها لابنك داود» قال: «فجحد» قال: «فأخرج الله الكتاب وأقام عليه البينة فأتمها لداود مائة سنة وأتم لآدم عمره ألف سنة».

تفرد به أحمد؛ وعلي بن زيد في حديثه نكارة.

ورواه الطبراني [في الكبير (١٢٩٢٨)] عن علي بن عبد العزيز، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس وغير واحد عن الحسن قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم» ثلاثاً وذكره.

وقال الإمام مالك بن أنس في موطئه [٣٩٨/٢، ٨٩٩] عن زيد بن أبي أنيسة: أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أخبره عن مسلم بن يسار الجهني، أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة، وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار».

وهكذا رواه الإمام أحمد [٤٤/١، ٤٥] وأبو داود [٤٧٠٣] والترمذي [٣٠٧٥] والنسائي [١١١٩٠] وابن جرير [تاريخه: ١٣٥/١] وابن أبي حاتم وأبو حاتم. ابن حبان في صحيحه [الإحسان ٦١٦٦] من طرق عن الإمام مالك به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ومسلم بن يسار لم يسمع عمر.

وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة، زاد أبو حاتم: وبينهما نعيم بن ربيعة.

وقد رواه أبو داود [٤٧٠٤] عن محمد بن مصفى، عن بقية، عن عمر بن جُعثم، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية؛ فذكر الحديث.

قال الحافظ الدارقطني [العلل: ٢٢١/٢، ٢٢٢]: وقد تابع عمر بن جُعثم أبو فروة يزيد بن سنان الرهاوي عن زيد بن أبي أنيسة قال: وقولهما أولى

بالصواب من قول مالك رحمه الله.

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم قسمين أهل اليمين وأهل الشمال وقال «هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي».

فأما الإشهاد عليهم واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية فلم يجئ في الأحاديث الثابتة.

وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه هناك. وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها. فمن أراد تحريره فليراجعه ثم والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٧٢/١]: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير، يعني ابن حازم، عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه. ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُواْ﴾ إلى قوله ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣]

فهو بإسناد جيد قوي على شرط مسلم.

رواه النسائي [١١١٩١] وابن جرير [في تفسيره: ١١٠/٩، ١١١] والحاكم في مستدركه [٥٤٤/٢] من حديث حسين بن محمد المروذي به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر، فروي عنه مرفوعاً وموقوفاً.

وكذا روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفا.

وهكذا رواه العوفي والوالبي والضحاك وأبو جمرة عن ابن عباس قوله.

وهذا أكثر وأثبت والله أعلم.

وهكذا روي عن عبد الله بن عمر موقوفاً ومرفوعاً والموقوف أصح [انظر الأقوال بجميع طرقها تفسير الطبري: ١١٠/٩ - ١١٦].

واستأنس القائلون بهذا القول وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور بما:

قال الإمام أحمد [١٢٧/٣، ١٢٩]: حدثنا حجاج، حدثني شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي» أخرجاه [خ (٣٣٣٤)، م (٢٨٠٥)] من حديث شعبة به.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية والتي بعدها.

قال: فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فخلقهم ثم صورهم، ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهد عليهم أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية.

قال: فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن لا تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا. اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً ينذرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتابي.

قالوا: نشهد أنك ربنا وآلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك، فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا رب لو سويت بين عبادك فقال: إني أحببت أن أشكر.

ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾ [الأحزاب: ٧] وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي ذلك قال ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ [النجم].

وفي ذلك قال ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف ١٠٢]

رواه الأئمة: عبد الله بن أحمد [١٣٥/٥] وابن أبي حاتم وابن جرير [في تفسيره: ١١٥/٩] وابن مردويه في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر.

وروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والسدي وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث [تفسير الطبري: ١١٥/٩ - ١١٧]

وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم امتثلوا كلهم الأمر الإلهي وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً.

وقد قال الإمام أحمد [٤٣٣/٢ - ٤٣٤]: حدثنا وكيع ويعلى ومحمد ابنا عبيد قالوا: حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار».

ورواه مسلم [٨١] من حديث وكيع وأبي معاوية عن الأعمش، به.

ثم لما أسكن آدم الجنة التي أسكنها سواء كانت في السماء أو في الأرض على ما تقدم من الخلاف فيه أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام يأكلان منها رغداً حيث شاءا، فلما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض. وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطه منها.

واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة: فقيل: بعض يوم من أيام الدنيا وقد قدمنا ما رواه مسلم [٢٧٨٩] عن أبي هريرة مرفوعاً: «وخلق آدم في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة» وتقدم أيضاً حديثه عنه وفيه (يعني) يوم الجمعة«خلق آدم وفيه أخرج منها» [٨٥٤].

فإن كان اليوم الذي خلق فيه فيه أخرج وقلنا: إن الأيام الستة كهذه الأيام فقد لبث بعض يوم من هذه. وفي هذا نظر، وإن كان إخراجه في غير اليوم الذي خلق فيه أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك، واختاره ابن جرير [تاريخه: ١٧/١] فقد لبث هناك مدة طويلة.

قال ابن جرير [تاريخه: ١١٨/١، ١١٩]: ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة، والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فمكث مصوراً طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة، وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر، والله تعالى أعلم.

وقد روى عبد الرزاق [المصنف: ٩٠٩٠] عن هشام بن حسان، عن

سوار خبر عطاء بن أبي رباح: أنه كان لما أهبط رجلاه في الأرض ورأسه في السماء فحطه الله إلى ستين ذراعاً [قوله: «فحطه.... ذراعاً» أخرجها في تفسيره ٣٤/٢] [تاريخ الطبري: ١٢٤/١]. وقد روى عن ابن عباس نحوه.

وفي هذا نظر لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» [خ (٣٣٢٦)، م (٢٨٤١)]. وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ١٢٤/١] عن ابن عباس: «إن الله قال: يا آدم إن لي حرماً بحيال عرشي فانطلق فابن لي فيه بيتاً فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي؛ وأرسل الله له ملكا فعرفه مكانه وعلمه المناسك؛ وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك».

وعنه [تاريخه: ١٢٨/١، ١٢٩]: «أن أول طعام أكله آدم في الأرض أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة فقال: ما هذا؟ قال: هذا من الشجرة التي نهيت عنها فأكلت منها فقال: ما أصنع بهذا؟ قال: ابذره في الأرض فبذره، وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف فنبتت فحصده ثم درسه ثم ذرّاه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد؛ وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن جزّاه ثم غزلاه، فنسج آدم له جبة ولحواء درعاً وخماراً.

واختلفوا هل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد:

فقيل: لم يولد لهما إلا في الأرض.

وقيل: بل ولد لهما فيها، فكان قابيل وأخته ممن ولد بها والله أعلم.

وذكروا أنه كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التي ولدت معه والآخر بالأخرى وهلم جراً ولم يكن تحل أخت لأخيها الذي ولدت معه.

٤- قصة ابني آدم قابيل وهابيل

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة ٢٧ - ٣١]

قد تكلمنا على هذه القصة في سورة المائدة في التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد.

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك.

فذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل. وأخت قابيل أحسن فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى فأمرهما أن يقربا قرباناً، وذهب آدم ليحج إلى مكة واستحفظ السماوات على بنيه فأبين والأرضين والجبال فأبين فتقبل قابيل بحفظ ذلك.

فلما ذهب آدم قربا قربانهما فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال: إنما يتقبل الله من المتقين [تفسير الطبري: ١٨٨/٦ - ١٩٣].

وروي عن ابن عباس من وجوه أخر، وعن عبد الله بن عمرو.

وقال عبد الله بن عمرو: وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده [تفسير الطبري: ١٨٨/٦ - ١٩٣].

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشراً لتقريبهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه.

فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به فقال له: تقبل منك ولم يتقبل مني فقال: إنما يتقبل الله من المتقين. فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله.

وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته.

وقيل: بل خنقه خنقا شديدا وعضا كما تفعل السباع فمات والله أعلم.

وقوله له لما توعده بالقتل: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ دل على خلق حسن وخوف من الله تعالى وخشية منه وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت في الصحيحين [خ (٦٨٧٥)، م (٢٨٨٨)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

وقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩] أي إني أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى إذ قد عزمت على ما عزمت عليه.

﴿أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: تتحمل إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك؛

قاله مجاهد والسدي وابن جرير وغير واحد

وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل كما قد توهمه بعض الناس، فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك [تفسيره: ١٩٣/٦].

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب» فلا أصل له ولا يعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً، ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل، كما ثبت به الحديث الصحيح [م (٢٥٨١)] في سائر المظالم والقتل من أعظمها والله أعلم. وقد حررنا هذا كله في التفسير ولله الحمد.

وقد روى الإمام أحمد [١٨٥/١] وأبو داود [٤٢٥٧] والترمذي [٢١٩٤] عن سعد بن أبي وقاص أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي» قال: أفرأيت إن دخل

علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني قال: «كن كابن آدم».

ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً وقال: «كن كخير ابني آدم».

وروى مسلم [لم يخرجه م] وأهل السنن [د (٤٢٦١)، ج (٣٩٥٨)] إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا.

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد [٣٨٣/١، ٤٣٠]: حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا: حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل».

ورواه الجماعة [خ (٦٨٦٧)، م (١٦٧٧)، ت (٢٦٧٣)، س (٣٩٩٦)، ج (٢٦١٦)] سوى أبي داود من حديث الأعمش به.

وهكذا روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وإبراهيم النخعي: أنهما قالا مثل هذا سواء [تفسير الطبري: ١٩٤/٦].

ويجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب، فالله أعلم بصحة ذلك.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧٧/٥] في ترجمة أحمد بن كثير وقال: إنه كان من الصالحين: أنه رأى النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء؛ فأجابه إلى ذلك وصدقه في ذلك رسول الله ﷺ وقال: إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس.

وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعي والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة.

وقال آخرون: حمله مائة سنة ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين.

قال السدي بإسناده عن الصحابة: أخوين فتقاتلا، فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله عمد إلى الأرض فحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه، فلما رآه يصنع ذلك ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ [المائدة: ٣١] ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه.

وذكر أهل التواريخ والسير: أن آدم حزن على ابنه هابيل حزناً شديداً وأنه قال في ذلك شعراً، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد [تاريخ الطبري: ١٤٥/١]:

تغيرتِ البلادُ ومَن عليها ... فَوجهُ الأرضِ مغبرٌّ قبيحُ

تغيَّرَ كلُّ ذي لونٍ وطعمٍ ... وقلَّ بشاشةُ الوجهِ المليحِ

فأجيب آدم:

أبا هابيلَ قد قُتلا جميعاً ... وصارَ الحيُّ كالميتِ الذبيحِ

وجاء بشرةٌ قد كان منها ... على خوفٍ فجاء بها يصيحِ

وهذا الشعر فيه نظر، وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاماً يتحزن به بلغته، فألفه بعضهم إلى هذا، وفيه إقواء والله أعلم.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة هابيل من تاريخه القصة بتمامها وأورد هذا الشطر بسنده من طريق أبي بكر الخطيب بسنده إلى عبد العزيز بن الرماح عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما قتل ابن آدم أخاه قال آدم عليه السلام:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه الصبيح

قتل قابيل هابيلا أخاه ... فوا أسفا على الوجه المليح

قال: فأجابه أبليس لعنه الله.

تنح عن البلاد وساكنيها ... فبي الأرض ضاق بل الفسيح

وكنت بها وزوجك في رخاء ... وقلبك من ورى الدنيا مريح

فما انفكت مكابدتي ومكري ... إلى أن فاتك الثمن الربيح

فلولا رحمة الجبار أضحي ... بكفك من جنان الخلد ريح

هكذا أورد بن عساكر ولم ينبه على نكارته ولا عرابته وكان خليقاً وجديراً بذلك.

وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلاً به وتعجيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم» [أحمد: ٣٦/٥ من حديث أبي بكرة].

وذكر إسحاق بن بشر الكاهلي في كتاب المبتدأ فبعث الله ملكاً فضم رجله اليمنى إلى إليته اليسرى ورجله اليسرى إلى إليته اليمنى ثم علقه في عين الشمس وتماط سبع حظاير من حظاير النار فإذا كان أيام الصيف كان من أشد الناس حراً وإذا كان أيام الشتاء كان من أشد الناس زمهريراً فعذبه الله بذلك ثمانين سنة ثم ألقاه إلى الأرض وعليه تلك الحظاير، وأوحى الله إلى الأرض أن أخفي به قال، فأخذته الأرض إلى كعبيه فقال: يا رب ارحمني فقال تعالى: إنما أرحم كل رحيم خذيه، فأخذته إلى ركبتيه ثم أخذته إلى وسطه فقال يا رب إن كنت عصيتك فقد عصاك منه هو خير مني، أبي وقد خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وأسكنته جنتك قال: فكيف رأيتني فعلت به؟ أخرجته من ملكوت السماء إلى هوان الأرض ثم قال: خذيه فأخذته إلى صدره فقال: يا رب إن آدم أخبرني أنك خلقت مائة رحمة فقسمت منها رحمة واحدة بين خلقك وادخرت تسعة وتسعين في خزائن عرشك فإذا كان يوم القيامة ضممت هذه إلى تلك فرحمت بها عبادك حتى إن إبليس الأبالسة ليتطاول لها رجاء أن تناله منها شيء، فلا يجتني منها، فقال الله كيف أرحمك ولم ترحم أخاك وقال للأرض. خذيه فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة].

٥- ذريةُ آدم

والذي رأيته في الكتاب [سفر التكوين، الأصحاح ١٦/٤] الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة أن الله عز وجل أجله وأنظره، وأنه سكن في أرض (نود) في شرقي عدن وهم يسمونه (قينن) وأنه ولد له خنوخ ولخنوخ عندر ولعندر محوايل ولمحوايل متوشيل ولمتوشيل لامك وتزوج هذا امرأتين: عدا وصلا فولدت (عدا) ولدا اسمه (إبل) وهو أول من سكن القباب واقتنى المال، وولدت أيضاً (توبل) وهو أول من اتخذ في

ضرب الونج والصنج وولدت (صلا) ولدا اسمه توبلقين وهو أول من صنع النحاس والحديد وبنتاً اسمها (نعمى).

وفيها أيضاً أن آدم طاف على امرأته فولدت غلاماً ودعت اسمه (شيث) وقالت: من أجل أنه قد وهب لي خلفاً من هابيل الذي قتله قابيل وولد لشيث أنوش.

قالوا: وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائة وثلاثين سنة وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمس سنين وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين. وولد له بنون وبنات غير أنوش.

فولد لأنوش (قينان) وله من العمر تسعون سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة، وولد له بنون وبنات، فلما كان عمر قينان سبعين سنة ولد له مهلاييل وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وأربعين سنة وولد له بنون وبنات، فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له (يرد) وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة وولد له بنون وبنات.

فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون سنة ولد له (خنوخ) وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات.

فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له (متوشلخ) وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات، فلما كان لمتوشلخ مائة وسبع وثمانون سنة ولد له (لامك) وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنتين وثمانين سنة وولد له بنون وبنات.

فلما كان للامك من العمر مائة واثنتان وثمانون سنة ولد له (نوح) وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمساً وتسعين سنة. وولد له بنون وبنات، فلما كان لنوح خمسمائة سنة ولد له بنون (سام وحام ويافث).

هذا مضمون ما في كتابهم صريحاً [سفر التكوين: الأصحاح الرابع والخامس].

وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم في ذلك، والظاهر أنها مقحمة فيها. ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير. وفيها غلط كثير كما سنذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه [١٤٥/١] عن بعضهم أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً، قاله ابن إسحاق، وسماهم والله تعالى أعلم.

وقيل: مائة وعشرين بطناً في كل واحد ذكر وأنثى أولهم قابيل وأخته قليما. وآخرهم عبد المغيث وأخته أمة المغيث.

ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا وامتدوا في الأرض ونموا كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ [الحجرات: ١٣]، الآيات.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾ [النساء: ١] الآية.

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعين ألف نسمة [انظر تاريخ الطبري: ١٦٧/١، ومروج الذهب ٤٨/١] والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف ١٨٩، ١٩٠] الآيات.

فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم، ثم استطرد إلى الجنس وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء، بل لما جرى ذكر الشخص استطرد إلى الجنس كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء، وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١١/٥]:

حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره».

وهكذا رواه الترمذي [٣٠٧٧] وابن جرير [تفسيره: ١٤٦/٩] وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم عند هذه الآية من سورة الأعراف وأخرجه الحاكم في مستدركه [٥٤٥/٢] كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم. ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه.

فهذه علة قادحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي وهذا أشبه والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات.

وهكذا روي موقوفاً على ابن عباس. والظاهر أن هذا متلقىً عن كعب الأحبار ومَن دونه والله أعلم.

وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا. فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره والله أعلم.

وأيضاً فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً.

والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبي ﷺ خطأ والصواب وقفه والله تعالى أعلم. وقد حررنا هذا في كتابنا التفسير [٥٢٧/٣ - ٥٣١] ولله الحمد.

٦- آدمُ أبو البشر (مزاياه)

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا. فإن آدم أبو البشر الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته.

وقد روى ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٣٦١)] عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير». قلت: يا رسول الله من كان أولهم. قال: «آدم». قلت: يا رسول الله نبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً».

وقال الطبراني [في الكبير (١١٣٦١)]: حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا نافع بن هرمز، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل الملائكة: جبريل، وأفضل النبيين آدم، وأفضل الأيام يوم الجمعة، وأفضل الشهور شهر رمضان، وأفضل الليالي ليلة القدر، وأفضل النساء مريم بنت عمران».

وهذا إسناد ضعيف، فإن نافعاً أبا هرمز هذا كذبه ابن معين وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم والله أعلم.

وقال كعب الأحبار [ابن عساكر: ٣٨٩/٧]: ليس أحد في الجنة له لحية إلا آدم. لحيته سوداء إلى سرته. وليس أحد يكنى في الجنة إلا آدم كنيته في الدنيا أبو البشر وفي الجنة أبو محمد.

وقد روى ابن عدي [الكامل في الضعفاء: ١٣٦٨/٤] من طريق شيخ ابن أبي خالد عن حماد بن سلمة، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: «أهل الجنة يدعون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد».

ورواه ابن عدي أيضاً [الكامل في الضعفاء: ٢٣٠٣/٦] من حديث علي بن أبي طالب، وهو ضعيف من كل وجه، والله أعلم.

وفي حديث الإسراء الذي في الصحيحين [خ (٣٤٩) و(٣٣٤٢)، م (١٦٣)] «أن رسول الله ﷺ لما مر بآدم وهو في السماء الدنيا قال له: «مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح» قال: «وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى. فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه. فإذا نظر قبل أهل اليمين وهم أهل الجنة ضحك وإذا نظر قبل أهل الشمال وهم أهل النار بكى

هذا معنى الحديث.

وقال أبو بكر البزار: حدثنا محمد المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان، عن الحسن قال: كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده.

وقال بعض العلماء في قوله ﷺ: «فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن» [م (١٦٢)].

قالوا: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام. وهذا مناسب. فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء.

وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عمرو أيضاً موقوفاً ومرفوعاً «إن الله تعالى لما خلق الجنة قالت الملائكة: يا ربنا اجعل لنا هذه فإنك خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون. فقال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان» [حديث ابن عمرو المرفوع أخرج نحوه البيهقي في الأسماء والصفات (٣١٧) من حديث عروة بن رويم الأنصاري وأخرج الموقوف ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٢)].

وقد ورد الحديث المروي في الصحيحين [خ (٣٣٢٦)، م (٢٦١٢) و(٢٨٤١)] وغيرهما من طرق أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم على صورته». وفي غير الصحيحين: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن عز وجل» [البيهقي «الأسماء والصفات» ص٢٩١] وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها والله أعلم

[وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد ربه بن صالح القرشي الدمشقي يروي عن. مكحول وغيره، وعن الوليد ومسروق الماطاطري وسليمان بن عبد الرحمن وهشام بن عمار، وهشام بن خالد وروى من طريق هشام بن عمار عنه سمع عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله عن النبي ص قال: لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة: يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال الله: لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان». وقد روى عثمان بن سعيد الدارمي مثله عن عبد الله بن عمرو وموقوفاً فالله أعلم].

٧- وفاة آدم ووَصيّته إلى ابنه شيث

ومعنى: «شيث»: هبة الله وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل.

قال أبو ذر في حديثه [الإحسان (٣٦١)] عن رسول الله ﷺ: «إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف. على شيث خمسين صحيفة».

قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك [تاريخ الطبري: ١٥٢/١، ١٥٣].

قال: ويقال: إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث. وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا والله أعلم.

ولما توفي آدم عليه السلام وكان ذلك يوم الجمعة جاءته الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عز وجل من الجنة. وعزوا فيه ابنه ووصيه شيث عليه السلام.

قال ابن إسحاق: وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن [تاريخ الطبري: ١٥٢/١، ١٥٣].

وقد قال عبد الله ابن الإمام أحمد [١٣٦/٥]: حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن عُتَي، هو ابن ضمرة السعدي، قال: رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أبي بن كعب. فقال: إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أي بني إني أشتهي من ثمار الجنة.

قال: فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون، أو ما تريدون وأين تطلبون؟ قالوا: أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة فقالوا لهم: ارجعوا فقد قُضي قضاء أبوكم فجاؤوا، فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم فقال: إليك عني، فإني إنما أتيت من قبلك فخلي بيني وبين ملائكة ربي عز وجل، فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه. ثم دخلوا قبره فوضعوه في قبره. ثم حثوا عليه. ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنتكم.

إسناد صحيح إليه.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٥٨/٧] من طريق شيبان بن فروخ عن محمد بن زياد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «كبّرت الملائكة على آدم أربعاً، وكبر أبو بكر على فاطمة أربعاً، وكبر عمر على أبي بكر أربعاً، وكبر صهيب على عمر أربعاً».

قال ابن عساكر: ورواه غيره عن ميمون فقال: عن ابن عمر.

واختلفوا في موضع دفنه:

فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط منه في الهند.

وقيل: بجبل أبي قبيس بمكة.

ويقال: إن نوحاً عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في

تابوت فدفنهما ببيت المقدس.

حكى ذلك ابن جرير [تاريخه: ١٦١/١].

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٥٨/٧] عن بعضهم أنه قال: رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس. وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة.

واختلف في مقدار عمره عليه السلام: فقدمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً [مسند أحمد: ٢٩٩/١]: «أن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة».

وهذا لا يعارضه ما في التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة؛ لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود إذا خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم.

وأيضا فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما في الحديث فإن ما في التوراة إن كان محفوظاً محمول على مدة مقامه في الأرض بعد الإهباط وذلك تسعمائة وثلاثون سنة شمسية وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة، ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير [تاريخه: ١١٩/١] وغيره فيكون الجميع ألف سنة.

وقال عطاء الخراساني: لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام. رواه ابن عساكر [تاريخ دمشق: ٤٥٩/٧]

فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام. وكان نبيا بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه [الإحسان (٣٦١)] عن أبي ذر مرفوعاً: «أنه أنزل عليه خمسون صحيفة».

فلما حانت وفاته أوصى إلى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده ثم بعده ولده قينن. ثم من بعده ابنه مهلاييل وهو الذي تزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة، وأنه أول من قطع الأشجار وبنى المدائن والحصون الكبار. وأنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى. وأنه قهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها وأنه قتل خلقاً من مردة الجن والغيلان، وكان له تاج عظيم وكان يخطب الناس ودامت دولته أربعين سنة.

فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده خنوخ وهو إدريس عليه السلام على المشهور، والله سبحانه وتعالى أعلم.

٨- إدريس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً. وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ [مريم ٥٦ - ٥٧]

فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية وهو خنوخ، هذا وهو في عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب. وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين [تاريخ الطبري: ١٧١/١ مختصراً].

وقد قال طائفة من الناس إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل فقال: «إنه كان نبي يخط به، فمن وافق خطه فذاك» [م (٥٣٧)، د (٩٣٠)].

ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك ويسمونه هرمس الهرامسة ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ هو كما ثبت في الصحيحين [خ (٣٢٠٧)، م (١٦٢)] في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مرّ به وهو في السماء الرابعة.

وقد روى ابن جرير [تفسيره: ٩٦/١٦] عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن جرير بن حازم، عن الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له: ما قول الله تعالى لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه إني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم (لعله من أهل زمانه) فأحب أن يزداد عملاً فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إلي كذا وكذا، فكلّم ملك الموت فليؤخّرني حتى أزداد عملاً، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس فقال: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهري فقال ملك الموت: فالعجب بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض، فقبض روحه هناك فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾.

ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها. وعنده: فقال لذلك الملك: سل لي ملك الموت: كم بقي من عمري؟ فسأله وهو معه: كم بقي من عمره؟ فقال: لا أدري حتى أنظر، فنظر فقال: إنك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس، فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر.

وهذا من الإسرائيليات وفي بعضه نكارة!.

وقول ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى [تفسير الطبري: ٩٦/١٦]. إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففي هذا نظر، وإن أراد أنه رفع حيّاً إلى السماء ثم قبض هناك فلا ينافي ما تقدم عن كعب الأحبار، والله أعلم.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾: رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك.

والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصح وهو قول مجاهد وغير واحد [تفسير الطبري: ٩٧/١٦].

وقال الحسن البصري ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ قال: إلى الجنة.

وقال قائلون: رفع في حياة أبيه «يرد ابن مهلاييل» [تاريخ الطبري: ١٧٠/١] والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل في زمان بني إسرائيل.

قال البخاري: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء: أنه لما مر به عليه السلام قال له: «مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح» ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح.

قالوا: فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قال له. وهذا لا يدل ولا

بد على ذلك لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيداً. أو لعله قاله له على سبيل المضم والتواضع ولم يتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أولي العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

٩- قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام.

كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير [تاريخ الطبري: ١٧٤/١] وغيره.

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه [الإحسان (٦٩١٠)]:

حدثنا محمد بن عمر بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه، حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام، سمعت أبا سلام، سمعت أبا أمامة: أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: «نعم مكلم». قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون».

قلت: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه.

وفي صحيح البخاري [هو في المستدرك للحاكم ٤٤٢/٢، ٥٤٦. ولم يخرجه البخاري] عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام».

فإن كان المراد بالقرن: مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام.

وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب: أن قابيل وبنيه عبدوا النار، والله أعلم.

وإن كان المراد بالقرن: الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧] وقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢] وقال تعالى: ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ [الفرقان: ٣٨] وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم: ٧٤].

وكقوله عليه السلام: «خير القرون قرني» الحديث [خ (٦٤٢٩)، م (٢٥٣٥)].

فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة. فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم.

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة [خ (٣٣٤٠)]. وكان قومه يقال لهم بنو راسب فيما ذكره ابن جرير [تاريخ الطبري: ١٧٤/١، ١٧٩] وغيره.

واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث:

فقيل: كان ابن خمسين سنة.

وقيل: ابن ثلاثمائة وخمسين سنة.

وقيل: ابن أربعمائة وثمانين سنة. حكاها ابن جرير [تاريخ الطبري: ١٧٩/١] وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف انجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز.

ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت وأنزل فيه سورة كاملة.

فقال في سورة الأعراف ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالَ الْمَلأ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ﴾ [الأعراف ٥٩ - ٦٤]

وقال في سورة يونس ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ. فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس ٧١ - ٧٣]

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ. فَقَالَ الْمَلأ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ. وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ. وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ. وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ. وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ. وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ. حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ. وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لا

عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ. قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود ٢٥ - ٤٩]

وقال تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء ٧٦، ٧٧]

وقال تعالى في سورة «قد أفلح المؤمنون» ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ. فَقَالَ الْمَلأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لأَنزَلَ مَلآئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ. فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون ٢٣ - ٣٠]

وقال تعالى في سورة الشعراء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ. قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء ١٠٥ - ١٢٢]

وقال تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت ١٤، ١٥]

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ. سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الصافات ٧٥ - ٨٢]

وقال تعالى في سورة اقتربت ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ. فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ. وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر ٩ - ١٧]

وقال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ. يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً. فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً. مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً. وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً. لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً. قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً. وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً. وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً. مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً. وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً. رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ [نوح ١ - ٢٨].

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في التفسير وسنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرقة ومما دلت عليه الأحاديث والآثار.

وقد جرى ذكره أيضاً في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه، فقال تعالى في سورة النساء ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً. رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء ١٦٣ - ١٦٥].

وقال في سورة الأنعام ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام ٨٣ - ٨٧] الآيات.

وتقدمت قصته في الأعراف.

وقال في سورة براءة ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]

وتقدمت قصته في يونس وهود.

وقال في سورة إبراهيم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ

فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم ٩]

وقال في سورة سبحان ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣]

وقال فيها أيضاً ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ [الإسراء: ١٧]

وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت.

وقال في سورة الأحزاب ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾ [الأحزاب: ٧]

وقال في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ. وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ﴾ [ص ١٢ - ١٤]

وقال في سورة غافر ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ. وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر]

وقال في سورة الشورى شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى في سورة ق ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق ١٢ - ١٤].

وقال في الذاريات ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

وقال في النجم ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم: ٥٢]

وتقدمت قصته في سورة ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]

وقال تعالى في سورة الحديد ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]

وقال تعالى في سورة التحريم ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام رواه البخاري [أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٤٤٢، ٥٤٦، وتقدم ص٧٠]. وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف.

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام وكان سبب ذلك ما رواه البخاري [٤٩٢٠] من حديث ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ [نوح: ٢٣] قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت.

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد [خ (٤٩٢٠)].

وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٢٩/٩٩].

وقال ابن جرير في تفسيره [٢٩/٩٨، ٩٩]: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال: ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان «ود» أكبرهم وأبرهم به.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا يعقوب عن أبي المطهر قال: ذكروا عند أبي جعفر، هو الباقر، وهو قائم يصلي يزيد بن المهلب قال: فلما انفتل من صلاته قال: ذكرتم يزيد بن المهلب أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير اللّه. قال: ذكر وَدّاً قال: كان رجلاً صالحاً وكان محبباً في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم. فصور لهم مثله.

قال: فوضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه. فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله؛ ليكون له في بيته فتذكرونه؟. قالوا: نعم قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالاً مثله فاقبلوا فجعلوا يذكرونه به. قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به.

قال: وتناسلوا ودرس أمرُ ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون اللّه أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد غير اللّه وَدٌّ الصنم الذي سموه وداً.

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس. وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم ثم عبدت بعد ذلك من دون اللّه عز وجل. ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جدا قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير [٨/٢٦١، ٢٦٢] وللّه الحمد والمنة.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (٤٢٧)، م (٥٢٨)] عن رسول اللّه ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأيتها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرنا من حسنها وتصاوير فيها قال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند اللّه عز وجل».

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها بعث اللّه عبده ورسوله نوحاً عليه السلام يدعو إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه، فكان أول رسول بعثه اللّه إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين [خ (٣٣٤٠)، م (١٩٤)] من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك اللّه بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة،

ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؛ فيقول: ربي قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل؟ فيقول: ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي».

وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح.

فلما بعث الله نوحاً عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن لا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً، وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]

وقال فيه وفي إبراهيم ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] أي: كل نبي من بعد نوح فمن ذريته. وكذلك إبراهيم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

وقال تعالى ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولهذا قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]

وقال: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦].

وقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]

وقال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أن اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ. يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً. فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً. مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ [نوح ١٢ - ١٤] الآيات الكريمات.

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا فلم ينجع فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم ﴿قَالَ الْمَلأ مِن قَوْمِهِ﴾ أي: السادة الكبراء منهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠] أي لست كما تزعمون من أني ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين، أي الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢] وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً أي: فصيحاً ناصحاً أعلم الناس بالله عز وجل.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] تعجبوا أن يكون بشراً رسولاً وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم. وقد قيل: إنهم كانوا من أفناد الناس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل: «وهم أتباع الرسل» [خ (٧)، م (١٧٧٣)] وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق.

وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية، وهذا الذي ذمُّوهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضي الله عنهم، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر.

ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحاً للصِّدِّيق: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر، فإنه لم يتلعثم» [سيرة ابن هشام: ٢٥٢/] ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضاً سريعة من غير نظر ولا روية؛ لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي الله عنهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه وقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» [م (٢٣٨٧)، احمد: ١٤٤/٦] رضي الله عنه.

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به. ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] أي: لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود ٢٧، ٢٨]

وهذا تلطف في الخطاب معهم وترفق بهم في الدعوة إلى الحق كما قال تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وهذا منه يقول لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أي: النبوة والرسالة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: انغضبكم بها ونجبركم عليها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أي: ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم إن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي وأبقى مما تعطونني أنتم.

وقوله ﴿وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿أَنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ﴾ أي: فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله عز وجل؛ ولهذا قال ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠].

ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف.

﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء

اللّه ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ يعني من أتباعه ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند اللّه يوم القيامة اللّه أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قالوا في الموضع الآخر ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[الشعراء ١١١ - ١١٥]

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم.

وكان كلما انقرض جيل وصّوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته. وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه أن لا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقي وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق؛ ولهذا قال ﴿وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٧] ولهذا قالوا ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود ٣٢، ٣٣] أي إنما يقدر على ذلك اللّه عز وجل فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر، بل هو الذي يقول للشيء: كن فيكون ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] أي من يرد اللّه فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية. وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن وتسلية له عمّا كان منهم إليه ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي لا يسوأنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال، دعا عليهم دعوة غضب فلبّى اللّه دعوته وأجاب طلبته، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات ٧٥، ٧٦]

وقال تعالى: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ١١٧ - ١١٨]

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]

وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً. وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٥ - ٢٧]

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم، فعند ذلك أمره اللّه تعالى أن يصنع الفلك؛ وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها.

وقدم اللّه تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه، فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ.وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ أي يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضاً أن يكون جاءهم من اللّه رسول.

كما قال البخاري [٣٣٣٩]: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يجيء نوح عليه السلام وأمته فيقول اللّه عز وجل: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته؛ فتشهد أنه قد بلغ» وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣] والوسط: العدل.

فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن اللّه قد بعث نوحاً بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ولم يَدَع شيئاً مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به ولا شيئاً مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذّرهم منه.

وهكذا شأن جميع الرسل حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم، كما قال البخاري [٣٣٣٧]: حدثنا عبدان، حدثنا عبد اللّه، عن يونس، عن الزهري قال سالم: قال ابن عمر: قام رسول اللّه ﷺ في الناس فأثنى على اللّه بما هو أهله. ثم ذكر الدجال فقال: «إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه. لقد أنذره نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن اللّه ليس بأعور»

وهذا الحديث في الصحيحين [خ (٣٣٣٨)، م (٢٩٣٦)] أيضاً من حديث شيبان بن عبد الرحمن، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً ما حدث به نبي قومه، إنه أعور وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، والتي يقول عليها الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه» لفظ البخاري.

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب اللّه له أمره أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة، ثم نجره في مائة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، فاللّه أعلم [تاريخ الطبري: ١/١٨٠ - ١٨٣].

قال محمد بن إسحاق عن الثوري: وكانت من خشب الساج. وقيل: من الصنوبر [تاريخ الطبري: ١/١٨٠ - ١٨٣].

وهو نص التوراة.

قال الثوري: وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً، وعرضها خمسين ذراعاً، وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤاً أزور يشق الماء.

وقال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين ذراعاً.

وهذا الذي في التوراة على ما رأيته.

وقال الحسن البصري: ستمائة في عرض ثلثمائة.

وعن ابن عباس: ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ذراع.

وقيل: كان طولها ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وكانت ثلاث طبقات. كل واحدة عشرة أذرع. فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٦ -٢٧] أي بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك لنرشدك إلى الصواب في صنعتها.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله أي: أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم، أي إلا من كان كافراً، فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد وأمره أن لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذي قد حتمه عليهم الفعّال لما يريد كما قدمنا بيانه قبل.

والمراد بالتنور عند الجمهور: وجه الأرض؛ أي: نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار.

وعن ابن عباس: التنور عين في الهند.

وعن الشعبي: بالكوفة.

وعن قتادة: بالجزيرة.

وقال علي بن أبي طالب: المراد بالتنور: فلق الصبح وتنوير الفجر؛ أي إشراقه وضياؤه؛ أي عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين [تاريخ الطبري: ١/١٨٦، ١٨٧].

وهذا قول غريب.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]

هذا أمر ثانٍ عند حلول النقمة بهم، أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

وفي كتاب أهل الكتاب: أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ومما لا يؤكل زوجين: ذكراً وأنثى؛ وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق: ﴿اثْنَيْنِ﴾ إن جعلنا ذلك مفعولاً به. وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول به محذوف، فلا تنافي والله أعلم.

وذكر بعضهم ويروى عن ابن عباس: أن أول ما دخل من الطيور الدُّرَّة، وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار. ودخل إبليس متعلقاً بذنب الحمار [تفسير الطبري: ١٢/٣٦، ٣٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه: وكيف نطعم؟ أو كيف تطعمن المواشي ومعنا الأسد، فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت في الأرض. ثم شكوا الفارة فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها».

هذا مرسل.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [المؤمنون: ٢٧] أي من استجبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه يام الذي غرق كما سيأتي بيانه

﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي: واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال الله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة، والترغيب والوعد أخرى.

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة:

فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم.

وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً.

وقيل: كانوا عشرة.

وقيل: إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام الذي انخزل وانعزل وسلك غير عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل [انظر الأقوال جميعها: تفسير الطبري: ١٢/٤٢، ٤٣].

وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هي نص في أنه قد ركب معه من غير أهله طائفة ممن آمن به كما قال ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]

وقيل: كانوا سبعة.

وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم وهم حام وسام ويافث ويام، وتسميه أهل الكتاب كنعان وهو الذي قد غرق و«عابر» وقد مات قبل الطوفان. قيل: إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها

وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك أو أنها أنظرت ليوم القيامة والظاهر الأول لقوله: ﴿لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦]

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩] أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ. لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾ [الإسراء: ٨٠]

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ودو عقاب اليم مع كونه غفوراً رحيماً لا يرد بأسه عن القوم المجرمين كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا

به وعبدوا غيره.

قال الله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٠ - ١٣] والدسر: المسامير. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] أي: بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤].

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ١/١٨٩] وغيره: أن الطوفان كان في ثالث عشر من شهر آب في حمارة القيظ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي السفينة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل الأرض خمسة عشر ذراعاً وهو الذي عند أهل الكتاب.

وقيل: ثمانين ذراعاً.

وعم جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها. ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف. ولا صغير ولا كبير.

قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم: كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم تكن بقعة في الأرض إلا ولها مالك وحائز

رواهما ابن أبي حاتم.

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢- ٤٣] وهذا الابن هو «يام» أخو سام وحام ويافث.

وقيل: اسمه «كنعان». وكان كافراً عاملاً غير صالح، فخالفاً أباه في دينه ومذهبه فهلك مع من هلك. هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

أي: لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل، أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أي: نقص عما كان ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤] أي: وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم.

﴿وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] أي نودي عليهم بلسان القدرة بعداً لهم من الرحمة والمغفرة

كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢٢]

وقال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: ٨٢]

وقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥-١٧]

وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً. وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٥-٢٧].

وقد استجاب الله تعالى وله الحمد والمنة دعوته فلم يبق منهم عين تطرف.

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما [تفسير الطبري: ١٢ - ٣٥] من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن فائد مولى عبد الله بن أبي رافع، أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره، أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ قال: «فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي» قال رسول الله ﷺ: «مكث عليه السلام في قومه ألف سنة (يعني إلا خمسين عاماً) وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها ثم جعلها سفينة، ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر كيف تجري؟ قال: سوف تعلمون.

فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديدا خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي».

وهذا حديث غريب.

وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة. وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفاً متلقى عن مثل كعب الأحبار والله أعلم.

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين دياراً فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج ابن عنق ويقال: بن عناق كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى.

ويقولون: كان كافرا متمرداً جبارا عنيداً.

ويقولون: كان لغير رشدة بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا، وأنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس وأنه كان يقول لنوح وهو في السفينة: ما هذه القصيعة التي لك ويستهزئ به.

ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلثاً، إلى غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها. ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول.

أما المعقول: فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان ولا يهلك عوج بن عنق، ويقال: عناق، وهو

أظلم وأطغى على ما ذكروا!

وكيف لا يرحم الله منهم أحداً ولا أم الصبي ولا الصبي ويترك هذا الدعي الجبار العنيد الفاجر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا؟!

وأما المنقول: فقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦] وقال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦] ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما في الصحيحين [خ (٣٣٢٦)، م (٢٨٤١)] عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤] أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن، أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك وهلم جراً إلى يوم القيامة.

وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها! فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وهم الخونة الكذبة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة! وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقاً من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء والله أعلم.

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ووجه السؤال: أنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق؟

فأجيب بأنه ليس من أهلك، أي الذين وعدت بنجاتهم، أي أما قلنا لك: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [هود: ٤٠] فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأن سيغرق بكفره؛ ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان.

ثم قال تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر «جبل الجودي». وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور، وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾[هود: ٤٨] أي: اهبط سالماً مباركاً عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد، أي من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحدٍ مِمَّنْ كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقباً سوى نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينتسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: «سام وحام ويافث».

قال الإمام أحمد [٥/٩]: حدثنا عبد الوهاب عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن عن سمرة أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم».

ورواه الترمذي [٣٢٣١] عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً نحوه.

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر [القصد والأمم: ص١٠، ١١] وقد روى عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ مثله [تاريخ الطبري: ٢٠٩/١].

قال: والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام.

ثم روي من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب أنه قال: «ولد نوح ثلاثة: سام ويافث وحام، وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة، فولد سام: العرب، وفارس والروم. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وولد حام: القبط والسودان والبربر.

قلت: وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده [كشف الأستار: ٢١٨]: حدثنا إبراهيم بن هانئ وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا: حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي، حدثني أبي عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد لنوح سام وحام ويافث، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم. وولد ليافث: يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم. وولد لحام القبط والبربر والسودان»

ثم قال: لا نعلم يروى مرفوعاً إلا من هذا الوجه. تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه، وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه. ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلاً ولم يسنده وإنما جعله من قول سعيد.

قلت: وهذا الذي ذكره أبو عمر هو المحفوظ عن سعيد قوله.

وهكذا روي عن وهب بن منبه مثله [تاريخ الطبري: ٢٠١/١] والله أعلم.

ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرة لا يعتمد عليه.

وقد قيل: إن نوحاً عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان، وإنما ولد له قبل السفينة «كنعان» الذي غرق و«عابر» مات قبل الطوفان.

والصحيح أن أولاده الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة.

وقد ذكر أن «حاماً» واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته، فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان.

وقيل: بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه، فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته [سفر التكوين، الأصحاح: ٢١/٩ ـ ٢٦].

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير [تفسير الطبري: ٣٥/١٢] من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى بن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: وضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب. فقال له عيسى عليه السلام: هكذا هلكت! قال: لا ولكني مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة، فمن ثم شبت.

قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير. فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل؛ فغمزه فوقع منه خنزير

وخنزيرة فأقبلا على الروث، ولما وقع الفأر يخرز السفينة بقرضه أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى: كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت.

قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت.

قال فقالوا: يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا قال: كيف يتبعكم من لا رزق؟! له. قال: فقال له: عد بإذن الله فعاد تراباً.

وهذا أثر غريب جداً.

وروى علباء بن أحمر عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم وأنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً، وأن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها إلى «الجودي» فاستقرت عليه فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها العربية وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم.

وقال قتادة وغيره: ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب، فساروا مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودي شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم [تاريخ الطبري: ١٩٠/١].

وقد روى ابن جرير [تفسيره: ٤٧/٢] خبراً مرفوعاً يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك.

وقال الإمام أحمد [٣٥٩/٢]: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شيل، عن أبي هريرة قال: مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال: «ما هذا من الصوم؟» فقالوا: هذا اليوم الذي نجا الله موسى وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي، فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل فقال النبي ﷺ: «أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم». وقال لأصحابه: «من كان منكم أصبح صائماً فليتم صومه، ومن كان منكم قد أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه».

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح [خ (٢٠٠٤)] من وجه آخر والمستغرب ذكر نوح أيضاً والله أعلم.

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها وطحنوا الحبوب يومئذ واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لما ابهارّت من الضياء بعدما كانوا في ظلمة السفينة؛ فكل هذا لا يصح فيه شيء وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر، وكان استواء الفلك فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشر ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤوس الجبال.

فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه فلم يجد لرجليها موضعاً فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضت سبعة أيام، ثم أرسلها لتنظر له فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض.

ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك [تفسير الطبري: ٤٨/١٢، ٤٩].

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب.

قال ابن إسحاق: وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]

وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحاً قائلاً له: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التي معك ولتنموا ولتكثروا في الأرض، فخرجوا وابتنى نوح مذبحاً لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قرباناً إلى الله عز وجل، وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض. وجعل تذكار الميثاق إليه القوس الذي في الغمام وهو قوس قزح الذي قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الغرق [المعجم الكبير (١٠٥٩١)].

قال بعضهم: فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر، أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة.

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان واعترف به آخرون منهم وقالوا: إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا. قالوا: ولم نزل نتوارث الملك كابراً عن كابر من لدن كيومرث - يعنون آدم - إلى زماننا هذا [تاريخ الطبري: ١٩٢/١ وفيه عنده «جومرت» بدلاً من «كيومرث»].

وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عبّاد النيران وأتباع الشيطان

وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسماوات

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان، وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله أحداً من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم.

١٠- ذكر شيء من أخبار نوح نفسه عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣].

قيل: إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.

وقال الإمام أحمد [١١٧/٣]: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بردة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله

ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»

وكذا رواه مسلم [٢٧٣٤] والترمذي [١٨١٦] والنسائي [كبرى (٦٨٩٩)] من حديث أبي أسامة.

والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية، فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجّبا

ذكر صومه عليه السلام:

وقال ابن ماجه [١٧١٤]: «باب صيام نوح عليه السلام»: حدثنا سهل بن أبي سهل، حدثنا سعيد بن أبي مريم، عن ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة، عن أبي فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر إلا يوم الفطر ويوم الأضحى».

هكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه.

وقد قال الطبراني [عزاه الهيثمي في المجمع ٣/١٩٥، وذكره ابن عساكر في مختصره ٢٦/٢١٤]: حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج، حدثنا عمرو بن خالد الحراني، حدثنا ابن لهيعة عن أبي قبّان عن يزيد بن رباح أبي فراس، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر صام الدهر وأفطر الدهر».

ذكر حجّة نوح عليه السلام:

وقال الحافظ أبو يعلى [هو عند أحمد ١/٢٣٣]: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي عن زمعة، هو ابن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادي عسفان قال: «يا أبا بكر أي واد هذا؟» قال: هذا وادي عسفان قال: «لقد مر بهذا الوادي نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر، خطمهم الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يحجون البيت العتيق».

فيه غرابة.

١١- وصيته لولده عليه الصلاة السلام

قال الإمام أحمد [٢/١٦٩، ١٧٠]: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن الصقعب بن زهير، عن زيد بن أسلم، قال حماد: أظنه عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية وعليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال: «ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس - أو قال يريد أن يضع كل فارس ابن فارس - ورفع كل راع ابن راع».

قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: «ألا أرى عليك لباس من لا يعقل». ثم قال: «إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصّ عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهنّ لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر» قال: قلت (أو) قيل: يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ قال: «أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا». قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: «سفه الحق وغمص الناس».

وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

ورواه أبو القاسم الطبراني [ذكره الهيثمي في المجمع ٤/٢٢٠ وعزاه إلى أحمد والطبراني] من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «كان في وصية نوح لابنه: أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين،» فذكر نحوه.

وقد رواه أبو بكر البزار [كشف الأستار (٣٠٦٩)] عن إبراهيم بن سعيد، عن أبي معاوية الضرير، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ بنحوه.

والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أحمد والطبراني، والله أعلم.

ويزعم أهل الكتاب أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ستمائة سنة. وقدمنا عن ابن عباس مثله وزاد: وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة [تاريخ الطبري: ١/١٧٩، ١٨٠].

وفي هذا القول نظر. ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض، فإن القرآن يقتضي أن نوحاً مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك

فإن كان ما ذكر عن ابن عباس محفوظاً من أنه بعث وله أربع مائة وثمانون سنة، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة.

وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير [لم نعثر عليه فيهما] والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً: أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام.

وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بني بسبب ذلك وأوقفت عليه أوقات فيما ذكر، والله أعلم بالصواب.

١٢- موضع قبر نوح

إن قال قائل: هل ورد في تعيين قبر نوح عليه الصلاة والسلام شيء من الآثار؟ فالجواب نعم ورد في ذلك حديث مرسل وأورده الإمام أبو محمد بن جرير الطبري في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] عزو فإنه قال وقيل: أن الأرض التي ذكرها الله في هذه الآية هي مكة. حدثنا أبو حميد حدثنا جرير عن عطاء عن ابن سابط اسمه عبد الرحمن أن النبي ﷺ قال: «دحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت وهي أول من طاف به وهي الأرض التي قال الله

تعالى: ﴿فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]» وقال النبي: «إذا هلك قومه ونجت هو والصالحون أتاها هو ومن معه فيتعبدوا الله بها حتى يموتوا فإن قبر هود ونوح وصالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام».

ورواه الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخه من طريق أبي البرتي عن المفضل بن محمد عن عبد الله بن أبي غسان عن جرير عن عطاء، عن عبد الرحمن بن سابط قال: إن قبر نوح، وهود، وشعيب، وصالح بين زمزم وبين الركن والمقام. فجعله موقوفاً على ابن سابط من كلامه.

وفي.. في موضع آخر قبر نوح عليه السلام غيره ومداره على عطاء بن السائب الخراساني وفيه ضعف. ولو صح هذا لأفادنا ضعف ما يتداوله أهل هذه الأمصار من أن نوحاً صلوات الله وسلامه عليه مقبور بهذه البلدة التي اشتهر اضافتها إليه وهي كرك نوح وهي بأرض البقاع غربي دمشق وكذلك ما يزعمه بعض من صنف في فضائل الشام من أن هوداً عليه السلام مقبور في الحائط القبلي من جامع دمشق قريباً من المأذنة الشرقية. وثم علامة عليه تعرف، وقيل: أن قبر هود عليه السلام بحضرموت. رواه البخاري في تاريخه الكبير من حديث ابن إسحاق:

١٣- بناء المسجد الحرام وذكر المساجد الثلاث

حدثني محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي عن أبي الطفيل سمعت علياً يقول ذلك في كلام طويل ذكره في ترجمة محمد هذا ولو صح هذا الخبر المتقدم أيضاً لدل أن مكة والبيت عمرا قبل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وقد نقل ذلك بعض المفسرين عن عبد الله بن عباس وغيره ولكن بلا إسناد ولا يصح وهو مخالف لظاهر الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] وكذا قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وهذا سياق الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عباس في قصة بناء إبراهيم عليه السلام البيت الحرام.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج] الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧] وليس المراد بأنه أول بناء وضع على وجه الأرض كما يقوله من زعم أن آدم من أول من وضعه أو أن الملائكة أول من بناه، وإنما المراد أنه أول بيت وضع مباركاً للعبادة وهذا معنى ما رواه شعبة وأبو عوانة عن سماك عن خالد بن عرعرة عن علي ﷺ. وهكذا قال الحسن البصري ومطر الوراق وسعيد بن جبير وهو الذي رجحه ابن جرير في تفسيره، وهو الذي لا شك فيه لأن الحال في قوله: ﴿مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] دال على ذلك كأنه قال: أول بيت وضع على البركة: أي حال كونه مباركاً للذي ببكة، وهذا لا ينفي أن يكون وضع قبله بيوت كثيرة للمسلمين وغير ذلك فدل ذلك على أن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى المسجد الحرام.

وفي الصحيحين عن أبي ذر ﷺ قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أولا: قال: «المسجد الحرام»: قلت ثم أي؟ قال: «مسجد بيت المقدس» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». فظهر لك من سياق الآيات المذكورة مع هذا الحديث أن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى المسجد الحرام وهذا أشهر من أن يحتاج إلى بسط أكثر من هذا ولهذا أشكل هذا الحديث على كثير من العلماء لما رأوا أن إبراهيم هو أول من بنى المسجد الحرام.

وفي سنن النسائي، وصحيح أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمه الله إن سليمان بن داود بني مسجد بيت المقدس. وفي حديث أبي ذر أن بينهما أربعين سنة وقد علم كل أحد أن بين سليمان وإبراهيم أزيد من ذلك بأكثر من ألف سنة. فشرع أبو حاتم محمد بن حبان البستي يوهن حديث أبي ذر المذكور فأخطأ في صنيعه ذلك، لأنه مخرج في الصحيحين بإسناد لا يشك في صحته والإشكال الذي وقف عليه سأذكر حله إن شاء الله تعالى. فرد حديث أبي ذر هذا كما ذكرت لك وقد أخرج في صحيحه حديثه المطول الذي تفرد به إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني الدمشقي وقد تكلم فيه الأئمة وكذبه أبو زرعة الرازي وغيره رحمهم الله. وفيه ما في الأول وزيادة، فهذا تناقض والإشكال ليس بلازم قطعاً فإنه ليس في الحديث أن سليمان عليه السلام هو ابتدأ بناء بيت المقدس. قيل: أنه بناه وقد كان بيت المقدس قبل ذلك كهفاً ومؤثلا لبني إسرائيل قبله وقد كانوا بعد خروجهم من التيه وموت هارون ثم موسى عليهما السلام آووا إلى بيت المقدس ونصبوا على الصخرة قبة العهد التي كان الله أمر موسى عليه السلام بصنعتها، فكانوا يصلون إليها في التيه، ثم لما نصبت على الصخرة استمروا يصلون إليها فلما ذهبت استمروا يصلون إلى الصخرة وهذا مضمون ما ذكره غير واحد من أئمة العلماء.

وقد رواه أبو داود في كتاب الناسخ والمنسوخ وخروجهم من التيه كان مع يوشع بن النون خليفة موسى عليه السلام في النبوة صلوات الله وسلامه عليهما.

فدل هذا كله على أن البيت المقدس كان موجوداً قبل نبي الله سليمان عليه السلام والحديث ليس يدل على أنه ابتدأ بناءه قطعاً فهو محمول على أنه جدد مصالحه أو بناه بناء مستأنفاً على هيأة لم تكن. فإن قيل: فمن أول من وضعه؟ فالجواب قد ذكر غير واحد من الأئمة من علماء هذه الأمة أن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه هو الذي بناه أولا وهذا هو الذي يزعمه أهل الكتاب وهو صحيح لأنه قد دل عليه تاريخ الحديث المذكور عن أبي ذر في الصحيحين والخبر الكتابي إذ شهد الشرع بصحته قبل.

فإن قيل: حديث أبي ذر دل على أن المسجد الحرام قبل بيت المقدس بأربعين سنة فسلمنا أن إبراهيم هو الذي وضع البيت الحرام لما تقدم فلم قلت أن يعقوب هو الذي وضع بيت المقدس؟ لم لا يجوز أن يكون وضعه غيره بعد بناء إبراهيم المسجد بأربعين سنة؟ فالجواب: دلت قرائن على صدق ذلك، وذلك أن يعقوب عليه السلام ولد في حياة إبراهيم كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] ويعقوب كنا مقيماً بأرض بيت المقدس بعد موت إبراهيم وما كان أحد في ذلك الحين يضع مسجداً لله غيره وغير أبيه إسحاق لأن أحداً لم يكن نبياً ذلك الحين غيرهما ولا يفتت أحد على الأنبياء في استباق الخيرات، بل هم أسبق البشر في ذلك ولم يقل أحد أن الذي وضعه إسحاق فلزم أنه يعقوب عليه السلام، وأيضاً فإن هذه المساجد الثلاث وهي: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد رسول الله ﷺ بالمدينة إنما شرفت على سائر مساجد الأرض لأن كل واحد منها بناه نبي، ولهذا: «لا تشد الرحال بالسفر الطويل إلى مسجد معين من الأرض يراد التقرب بإعمال المطي إليه إلا إلى هذه

المساجد الثلاثة، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال. قال رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس».

ورواه مسلم أيضاً عن أبي سعيد الخدري وفي بعض ألفاظه: «لا تشدوا الرحال» بصيغة النهي واللفظ الأول خبر لفظاً وهو نهي معنى وهذا معلوم.

ورواه النسائي وغيره من حديث أبي هريرة عن أبي نصرة عن النبي ﷺ ولهذا جاء في تضعيف ثواب الصلاة في هذه المساجد الثلاثة على غيرها من المساجد أحاديث كثيرة في الصحاح وغيرها ولها أحكام تمتاز بها عن غيرها من المساجد كثيرة لو تقصيناها لطال الفصل والله سبحانه وتعالى أعلم.

١٤- قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ويقال: إن هوداً هو عابر بن شالخ بن سام بن نوح.

ويقال: هود بن عبد الله بن رياح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. ذكره ابن جرير [تاريخه: ٢١٦/١].

وكان من قبيلة يقال لهم: عاد بن عوص بن سام بن نوح وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل وكانت باليمن من عُمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها: «الشحر» واسم واديهم «مغيث».

وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦، ٧] أي عاد إرم وهم عاد الأولى.

وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه.

وأما عاد الأولى فهم عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٧، ٨] أي مثل القبيلة. وقيل: مثل العمد. والصحيح الأول كما بيناه في التفسير.

ومن زعم أن إرم مدينة تدور في الأرض، فتارة في الشام، وتارة في اليمن، وتارة في الحجاز، وتارة في غيرها فقد أبعد النجعة وقال ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه.

وفي صحيح ابن حبان [الإحسان (٣٦١)] عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: «منهم أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر».

ويقال: إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية.

وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها.

وقال غيره: أول من تكلم بها نوح.

وقيل: آدم وهو الأشبه. وقيل غير ذلك والله أعلم.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام: العرب العاربة وهم قبائل كثيرة: منهم عاد. وثمود. وجرهم. وطسم. وجديس. وأميم. ومليل. وعملاق. وعبيل. وجاسم. وقحطان. وبنو يقطن. وغيرهم.

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة. وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان. وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

والمقصود أن عاداً وهم عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان. وكان أصنامهم ثلاثة: صدٌ وصمودٌ وهرا.

فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال الله تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم في سورة الأعراف ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ. قَالَ الْمَلأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ. أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاء اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٧٢]

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ. يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ. وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ. قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ. وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٠ - ٦٠]

وقال تعالى في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بعد قصة قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ. فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ. وَقَالَ الْمَلأ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ. أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ. هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ. إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ. قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٤١]

وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ

الْعَالَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَـٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٤٠]

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥ - ١٦]

وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١ - ٢٥]

قال تعالى في الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ - ٤٢].

وقال تعالى في النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَىٰ. وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ. وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ. وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ. فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٥]

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ. تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٨ - ٢٢]

وقال في الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨]

وقال في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤]

وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير، ولله الحمد والمنة.

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفي سورة ص وفي سورة ق

ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار.

وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان. وذلك بين في قوله لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش.

وقال في المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١] وهم قوم هود على الصحيح.

وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ [المؤمنون: ٤١].

قالوا: وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].

وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة، فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات. ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود.

والمقصود أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين عتاة متمردين في عبادة الأصنام فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] أي هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧] أي ليس الأمر كما تظنون ولاما تعتقدون ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨] والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلَّغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم لا يبتغي منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلاً بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه والنصح لخلقه، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه؛ ولهذا قال: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١] أي: ما لكم عقل تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق، وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع؛ ولهذا قال مؤمن يس: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢١ - ٢٢].

وقال قوم هود له فيما: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٤] يقولون: ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه، وعندنا إنما أصابك هذا لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥]

وهذا تحدّ منه لهم وتبرُّؤ من آلهتهم وتنقص منه لها وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضر وأنه جماد حكمها حكمه وفعلها فعله. فإن كانت كما

تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا بريء منها لاعن لها: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ أنتم وهي جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين، فإني لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] أي أنا متوكل على الله ومتأيد به وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه فلست أبالي مخلوقاً سواه ولست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه.

وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهاً، فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قوله: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]

وهكذا قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ. وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٣]

﴿وَقَالَ الْمَلأ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ. أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٥].

استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً، وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً. قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكاً رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥]

لهذا قال لهم هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] أي ليس هذا بعجيب، فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ. هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ. إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥ ـ ٣٩] استبعدوا المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً وقالوا ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ أي: بعيد بعيد هذا الوعد ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي: يموت قوم ويحيا آخرون. وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع وأرض تبلع.

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة؛ وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣]

وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩] يقول لهم أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيماً هائلاً كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾[الفجر: ٦ـ٨] فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام.

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهي تنتقل في البلاد فقد غلط وأخطأ وقال ما لا دليل عليه.

وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] قيل: هي القصور. وقيل: بروج الحمام. وقيل: مآخذ الماء ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعماراً طويلة.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٠ ـ ١٣٥]

وقالوا فيما مما قالوا ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] أي أجئتنا لنعبد الله وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه. فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك.

كما قالوا: ﴿قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٨].

أما على قراءة فتح الخاء واللام فالمراد به اختلاق الأولين، أي أن هذا الذي جئت به إلا اختلاق منك وأخذته من كتب الأولين [تفسير الطبري: ٩٧/١٩]. هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين.

وأما على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين، أي إن هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا ولن نتحول عنه ولا نتغير ولا نزال متمسكين به.

ويناسب كلا القراتين الأولى والثانية قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] أي قد استحقيتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي لم ينزل على ماذهبتم إليه دليلاً ولا برهاناً وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم في الباطل، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذي لا يرد ونكاله الذي لا يصد.

وقال تعالى ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْداً

لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]

وقال تعالى ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢ - ٢٥]

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلاً كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

وكقوله: ﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُوا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٨ - ٦٠].

وكقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

وقال تعالى ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٣٩ - ١٤٠]

وأما تفصيل إهلاكهم فلما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين مستتين فطلبوا السقيا فرأوا عارضاً في السماء وظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤] أي من وقوع العذاب وهو قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] ومثلها في الأعراف.

وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار قال: فلما أبو إلا الكفر بالله عز وجل أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك. قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخيبري.

قال: فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر تغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه في شهر. فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعراً يعرّض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنياهم به فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يصبحنا غماما
فيسقي أرض عاد إنّ عادا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم عيامى
وإن الوحش يأتيهم جهاراً ... ولا يخشى لعاديّ سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلاما

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاؤوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم وهو قيل ابن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب فقال: اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد: اخترت رمادا رمدّداً لا تبقي من عاد أحداً. لا والداً تترك ولا ولداً. إلا جعلته همداً إلا بني اللوذية المهدا.

قال: وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال: ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة.

قال: وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا فيقول تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤ - ٢٥] أي تهلك كل شيء أمرت به.

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها مهد، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مهد؟ قالت: رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، والحسوم الدائمة، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك.

قال: واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود وتلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة. وذكر تمام القصة [تفسير الطبري: ٢١٧/٨ - ٢٢٠، وتاريخه: ٢١٩/١ - ٢٢٤].

وقد روى الإمام أحمد [٤٨٢/٣] حديثاً في مسنده يشبه هذه القصة فقال: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي، حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل، عن الحارث وهو ابن حسان ويقال: ابن يزيد البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وبلالٌ متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً قال: فجلست. قال: فدخل منزله أو قال: رحله فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت فسلمت فقال: «هل كان بينكم وبين بني تميم شيء»؟ فقلت: نعم. قال: وكانت لنا الدبرة عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب فأذن لها فدخلت فقلت: يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً فاجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت. قالت: يا رسول الله، فإلى أين تضطر مضرك؟ قال: فقلت: إن مثلي ما قال الأول: (معزى حملت حتفها) حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي حضماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد قال: «هيه وما وافد عاد؟»: وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه.

قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وفداً لهم يقال له قيل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما

مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة فنادى: اللّهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاديه. اللّهم اسق عاداً ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود فنودي منها: اختر. فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودي منها: خذها رماداً رمدداً لا تبقي من عاد أحداً قال فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا. قال أبو وائل وصدق: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد.

وهكذا رواه الترمذي [٣٢٧٤] عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به.

ورواه النسائي [كبرى (٨٦٠٧) مختصراً] من حديث سلام أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة.

ومن طريقه رواه ابن ماجه [٢٨١٦ من طريق عاصم بن بهدلة ولم يذكر أبا وائل].

وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير [تفسيره: ٨/٢٢٠، ٢٢١، وتاريخه: ١/٢١٧، ٢١٨] وغيره.

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكراً لمكة ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جرهم عندهم كما سيأتي وعاد الأولى قبل الخليل وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى لا يشبه كلام المتقدمين. وفيه أن في تلك السحابة شرر نار وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر.

وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين: هي الباردة والعاتية الشديدة الهبوب ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ [الحاقة: ٧] أي كوامل متتابعات [تفسير الطبري: ٢٩/٤٩]. قيل: كان أولها الجمعة. وقيل: الأربعاء ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أي في يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

ومن قال: إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن فإنه قال في الآية الأخرى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦] ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤومة، وهذا لا يقوله أحد وإنما المراد في أيام نحسات، أي: عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤٢] أي التي لا تنتج خيراً فإن الريح المفردة لا تثير سحاباً ولا تلقح شجراً بل هي عقيم لا نتيجة خير لها؛ ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية.

وقد ثبت في الصحيحين [خ (١٠٣٥)، م (٩٠٠)] من حديث شعبة عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور».

وأما قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] فالظاهر أن عاداً هذه هي عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى. ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية. ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها.

وأما قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشئ في الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر، فإذا هو سحاب عذاب اعتقدوه رحمة، فإذا هو نقمة رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤] أي من العذاب، ثم فسره بقوله ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]

يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحداً بل تتبعهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا: من أشد منا قوة؟ سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهو الريح العقيم.

ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقي منهم، فأرسلها الله عليهم شرراً ناراً كما ذكره غير واحد، ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس، حدثنا ابن فضل عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة».

وقد رواه الطبراني [المعجم الكبير (١٢٤١٦)] عن عبدان بن أحمد، عن إسماعيل بن زكريا الكوفي، عن أبي مالك، عن مسلم الملائي، عن مجاهد وسعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم فحملتهم البدو إلى الحضر، فلما رآها أهل الحضر قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا وكان أهل البوادي فيها فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا» قال: «عتت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب».

قلت: وقال غيره: خرجت بغير حساب.

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر. ثم اختلف فيه على مسلم الملائي وفيه نوع اضطراب والله أعلم.

وظاهر الآية أنهم رأوا عارضاً والمفهوم منه لغةً: السحاب كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري إن جعلناه مفسراً لهذه القصة.

وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه [٨٩٩] حيث قال: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ: «إذا

عصفت الريح قال: اللّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» قالت: وإذا تخيّلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سري عنه فعرفت ذلك عائشة، فسألته فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾[الأحقاف: ٢٤].

رواه الترمذي [٣٤٤٩] والنسائي [١٠٧٧٦، ٠٧٧٧] وابن ماجه [٣٨٩١] من حديث ابن جريج.

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد [٦٦/٦]: حدثنا هارون بن معروف، أنبأنا عبد الله بن وهب، أنبأنا عمرو، وهو ابن الحارث، أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. وقالت: كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر. وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية! فقال: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب. قد عذب قوم نوح بالريح. وقد رأى قوم عاد العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا».

وهكذا رواه مسلم [٨٩٩] عن هارون ابن معروف.

وأخرجه البخاري [٤٨٢٨] وأبو داود [٥٠٩٨] من حديث ابن وهب.

فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً.

فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية. وتكون بقية السياقات في القرآن خبراً عن عاد الأولى والله أعلم بالصواب. وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام.

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن [المستدرك: ٥٦٤/٢].

وذكر آخرون أنه بدمشق وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام والله أعلم.

١٥- قصة صالح نبي ثمود عليه الصلاة والسلام

وهم قبيلة مشهورة يقال لهم: ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك. وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتي بيانه، وكانوا بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبد الله ورسوله صالح بن عُبيد بن ماسخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئاً، فآمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا بقتله وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاء اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. قَالَ الْمَلأ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣ - ٧٩]

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ. قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ. وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ. فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ. فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ. وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِّثَمُودَ﴾[هود: ٦١ - ٦٨]

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ. وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ. فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠ - ٨٤].

وقال سبحانه وتعالى في سورة سبحان ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾ [الإسراء: ٥٩]

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ. قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ. فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. [الشعراء: ١٤١ - ١٥٩]

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ. قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ. وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ. قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ

يَعْلَمُونَ. وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٥ ـ ٥٣]

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧، ١٨]

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ. فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ. أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ. سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ. إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ. وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ. فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٣٢]

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا. إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا. وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥]

وكثيراً ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود كما في سورة براءة وإبراهيم والفرقان وسورة ﴿ص﴾ وسورة ﴿ق﴾ و﴿النجم﴾ و﴿الفجر﴾.

ويقال: إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ. أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: ٨ ـ ٩] الآية.

الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ولا اعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى عليه السلام. وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير مستقصاً ولله الحمد والمنة.

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم، وكيف نجى الله نبيه صالحاً عليه السلام ومن آمن به، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام.

وقد قدمنا أنهم كانوا عرباً وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم؛ ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها، أي: أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو الخالق الرزاق فهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١] أي: أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾. قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا﴾ [هود: ٦١ـ ٦٢] أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٢، ٦٣] وهذا تلطف منه لهم في العبارة ولين الجانب وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه، ماذا يكون عذركم عند الله؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته وأنا لا يمكنني هذا؛ لأنه واجب علي ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وقالوا له أيضاً: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أي من المسحورين، يعنون: مسحوراً لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الأنداد.

وهذ القول عليه الجمهور إن المراد بالمسحرين: المسحورين.

وقيل ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي ممن له سَحْرٌ. وهي الرئة كأنهم يقولون: إنما أنت بشر له سَحْر؛ والأول أظهر؛ لقولهم بعد هذا ﴿مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٤٥] وقولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤] سألوه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥ـ ١٥٦] وقال: ﴿قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح ـ عليه السلام ـ فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعتروا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة كوماء عشراء على الوجه الذي طلبوا أو على الصفة التي نعتوا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً، فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم. ولهذا قال ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي: جحدوا بها ولم يتبعوا

الحق بسببها أي أكثرهم.

وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو بن مخلاة بن لبيد بن جواس. وكان من رؤسائهم وهم بقية الأشراف بالإسلام فصدهم ذؤاب بن عمر بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صمعر بن جلهس ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة وكان من أشرافهم فهم بالإسلام فنهاه أولئك فمال إليهم فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له: مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه الله شعراً:

وكانت عصبة من آل عمرو ... إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً ... فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً ... وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر ... تولوا بعد رشدهم ذئابا

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم كقوله بيت الله وعبد الله ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] أي دليلاً على صدق ما جئتكم به ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوماً بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم؛ ولهذا قال: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [القمر: ٢٧] أي اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ [القمر: ٢٧] أي انتظر ما يكون من أمرهم ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧] على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨].

فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع وكان أحمر أزرق قصيراً وكان يقال: إنه ولد زانية ولد على فراش سالف وهو من رجل يقال له: صيبان. وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم؛ فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم.

وذكر ابن جرير [٨/٢٢٦ - ٢٢٩] وغيره من علماء المفسرين: أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما: صدوق بنت المحيا بن زهير بن المحيا، وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة واسم الأخرى: عنيزة بنت غنم بن مجلز وتكنى أم عثمان وكانت عجوزاً كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هو عقر الناقة فله أي بناتها شاء، فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] وسعوا في بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم في ذلك، فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها كمن لها مصدع فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها وجاء النساء نساء القبيلة في قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم فابتدرهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقبها. وهو فصيلها. فصعد جبلاً منيعاً ورغا ثلاثاً.

وروى عبد الرزاق [تفسيره: ٢/٢٣١] عن معمر، عمن سمع الحسن أنه قال: يا رب أين أمي؟ ثم دخل في صخرة فغاب فيها ويقال: بل اتبعوه فعقروه أيضاً قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي: احذروها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا. وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.

قال الإمام أحمد [١/١٧٤]: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام - هو أبو عروة - عن أبيه عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢]: «انبعث لها رجل عارمٌ عزيز منيع في رهطه: مثل أبي زمعة».

أخرجاه [خ (٤٩٤٢)، م (٢٨٥٥)] من حديث هشام به.

عارم أي شهم عزيز، أي: رئيس منيع، أي: مطاع في قومه.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن محمد بن خثيم عن محمد بن كعب، عن محمد بن خثيم عن يزيد، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟» قال: بلى قال: «رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعني لحيته» [سيرة ابن هشام: ١/٦٠٠].

رواه ابن أبي حاتم.

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين:

أحدهما: الشرط عليهم في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤] وفي آية: ﴿عظِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٥٦] وفي الأخرى ﴿أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] والكل حق.

والثاني استعجالهم على ذلك.

ومنها أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علماً جازماً ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم.

قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف لعنه الله فعرقبها فسقطت إلى الأرض ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها، فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات؛ فلهذا قال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] أي غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد، بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩] أي لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ثم

نجحدنّ قتله وننكرنّ ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه. ولهذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣] وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل.

ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل. وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى يومان من الأجل.

ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل، فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أي جهة يأتيهم العذاب.

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ جُثّاً لا أرواح فيها ولا حراك بها. قالوا: ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة بنت السلق. ويقال لها الزُّرَيعة وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء، فلما شربت ماتت. قال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٦٨] أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء ﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨] أي نادى عليهم لسان القدر بهذا.

قال الإمام أحمد [٣/٢٩٦]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها. وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة، أهمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «هو أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».

وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة والله أعلم.

وقد قال عبد الرزاق أيضاً [تفسيره: ٢/٢٣٢].

قال معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية، أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود كان في حرم الله، فمنعه حرم الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب» فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن.

قال عبد الرزاق [تفسيره: ٢/٢٣٢] قال معمر: قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف.

هذا مرسل من هذا الوجه. وقد جاء من وجه آخر متصلاً، كما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة [لم نجده] عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبي بجير سمعت عبد الله بن عمرو، سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال: «إن هذا قبر أبي رغال. وهو أبو ثقيف. وكان من ثمود وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب. إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه» فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن.

وهكذا رواه أبو داود [٣٠٨٨] من طريق محمد بن إسحاق به.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله: هذا حديث حسن عزيز.

قلت: تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ولا يعرف إلا بهذا الحديث، ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أمية.

قال شيخنا: فيحتمل أنه وهم في رفعه وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه والله أعلم.

قلت: لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضاً شاهد له. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] أي: لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان، والذي وجب علي من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد.

وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل، فقال: «يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» [خ (٣٩٨٠)، م (٩٣٢)].

قال لهم فيما قال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم» فقال له عمر: يا رسول الله تخاطب أقواماً قد جيفوا! فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون» وسيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

ويقال: إن صالحاً عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات [تاريخ الطبري: ١/٢٣٢].

قال الإمام أحمد [١/٢٣٢]: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «يا أبا بكر أي واد هذا؟» قال: وادي عسفان، قال: «لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خُمر خطمها الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق». إسناد حسن.

وقد تقدم في قصة نوح عليه السلام من رواية الطبراني [لم يروه الطبراني] وفيه نوح وهود وإبراهيم.

١٦- ذكر مرور النبي ﷺ بوادي الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد [١١٧/٢]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرية، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم فأمرهم رسول الله ﷺ فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا قال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم».

وقال أحمد أيضاً [١٧٤/٢]: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

أخرجاه في الصحيحين [خ (٤٣٣)، م (٢٩٨٠)] من غير وجه.

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين.

وفي رواية: «فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم». صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الإمام أحمد [٢٣١/٤]: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبي كبشة الأنباري، عن أبيه واسمه: عمرو بن سعد ويقال: عامر بن سعد رضي الله عنه قال: لما كان في غزوة تبوك فسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس: «الصلاة جامعة» قال: فأتيت النبي ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم»؛ فناداه رجل: نعجب منهم يا رسول الله قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً». إسناد حسن ولم يخرجوه.

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم فنحتوا لهم بيوتاً في الجبال.

وذكروا أن صالحاً عليه السلام لما سألوه آية فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة أمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء، وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب، فبعثوا القوابل في البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتله فكانوا على ذلك دهراً طويلاً، وانقرض جيل وأتي جيل آخر.

فلما كان في بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله في الرياسة فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة وهو قدار بن سالف فلم تمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجديه فيهم فنشأ نشأة سريعة فكان يشب في الجمعة كما يشب غيره في شهر، حتى كان من أمره أن خرج مطاعاً فيهم رئيساً بينهم فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانية من أشرافهم وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام.

فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة وبلغ ذلك صالحاً عليه السلام وجاءهم باكياً عليها فتلقوه يعتذرون إليه ويقولون: إن هذا لم يقع عن ملأ منا وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا.

فيقال: إنه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها فذهبوا وراءه فصعد جبلاً هناك، فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير وبكى الفصيل حتى سالت دموعه. ثم استقبل صالحاً عليه السلام ودعا ثلاثاً فعندها قال صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفراً ثم تحمر وجوههم في الثاني وفي اليوم الثالث تسود وجوههم.

فلما كان في اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأخذتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين.

وفي بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم كما قدمنا، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل.

١٧- قصّة إبراهيم الخليل عليه الصلاة السلام

هو إبراهيم بن تارخ «٢٥٠» بن ناحور «١٤٨» بن ساروغ «٢٣٠» بن راغو «٢٣٩» بن فالغ «٢٣٩» ابن عابر «٤٦٤» بن شالخ «٤٣٣» بن أرفخشد «٤٣٨» بن سام «٦٠٠» بن نوح عليه السلام.

هذا نص أهل الكتاب في كتابهم وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كما ذكروه من المدد وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته.

وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه [تاريخ دمشق: ١٦٥/٦] عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب المبتدأ أن اسم أم إبراهيم أميلة. ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة.

وقال الكلبي [طبقات ابن سعد: ٤٦/١]: اسمها بونا بنت كرنبا بن كوثى من بني أرفخشد بن سام بن نوح.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٧٣/٦] من غير وجه عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان.

قالوا: ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران وولد لهاران لوط.

وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل. وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٦٤/٦] بعد ما روى من طريق هشام بن عمار، عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول، عن ابن عباس قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها: برزة في جبل يقال له: قاسيون.

ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل. وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام.

قالوا: فتزوج إبراهيم سارة، وناحور ملكا ابنة هاران يعنون بابنة أخيه.

قالوا: وكانت سارة عاقراً لا تلد.

قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن ابنه لوط بن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين فنزلوا حران فمات

فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة؛ وهذا يدل على أنه لم يولد بحران وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل وما والاها.

ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين. وهي بلاد بيت المقدس فاقاموا بحران وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً وكانوا يعبدون الكواكب السبعة.

والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال. ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ويعملون لها أعياداً وقرابين.

وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام، وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال، فإن الله سبحانه وتعالى أتاه رشده في صغره وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] أي: كان أهلاً لذلك.

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ. أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ. وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ. فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ١٦-٢٧]

ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وكان أول دعوته لأبيه وكان أبوه ممن يعبد الأصنام لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً. يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً. قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً. قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً. وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾. [مريم: ٤١ - ٤٨].

يذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة. وأحسن إشارة بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه فكيف تغني عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر.

ثم قال منبهاً على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سناً من أبيه ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ [مريم: ٤٣] أي: مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك، فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ولا أخذها عنه بل تهدده وتوعده قال ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] قيل: بالمقال. وقيل: بالفعال.

﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ [مريم: ٤٦] أي واقطعني وأطل هجراني فعندها قال له إبراهيم ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧] أي لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذى بل أنت سالم من ناحيتي وزاده خيراً فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ [مريم: ٤٧].

قال ابن عباس وغيره [تفسير الطبري: ٩٢/١٦]: أي لطيفاً بعني في أن هداني لعبادته والإخلاص له ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ [مريم: ٤٨].

وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته. فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال البخاري [٣٣٥٠]: حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثني أخي عبد الحميد عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم: يارب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» هكذا رواه في قصة إبراهيم منفرداً.

وقال في التفسير [خ ٤٧٦٨]: وقال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة.

وهكذا رواه النسائي [كبرى ١١٣٧٥] عن أحمد بن حفص بن عبد الله، عن أبيه، عن إبراهيم بن طهمان به.

وقد رواه البزار؟ من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه. وفي سياقه غرابة.

ورواه أيضاً من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون: تارخ بالخاء المعجمة فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر.

وقال ابن جرير [تفسيره: ٢٤٤/٧] والصواب أن اسمه: آزر. ولعل له اسمين علمين أو أحدهما لقب والآخر علم؛ وهذا الذي قاله محتمل والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّـا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّـي فَلَمَّا أَفَـلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَـنَّ مِـنَ الْقَـوْمِ الضَّـالِّينَ. فَلَمَّـا رَأَى الشَّـمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّـا أَفَلَـتْ قَـالَ يَـا قَـوْمِ إِنِّـي بَـرِيءٌ مِّمَّـا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَـافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَـاءَ رَبِّـي شَـيْئاً وَسِـعَ رَبِّـي كُـلَّ شَـيْءٍ عِلْماً أَفَـلا تَتَذَكَّرُونَ. وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَـا لَـمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُـونَ. الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُـمُ الأَمْـنُ وَهُـم مُّهْتَـدُونَ. وَتِلْـكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّـن نَّشَـاء إِنَّ رَبَّـكَ حَكِـيمٌ عَلِيمٌ﴾. [الانعام: ٧٥-٨٣]

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة مـن الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مـع اللّه عـز وجـل لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة تطلع تارة وتأفل أخرى، فتغيبُ عـن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليـه خافيـة بـل هـو الدائم الباقي بلا زوال لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب. قيل: هو الزهرة لذلك ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها. ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَـرِ وَاسْجُدُوا للّـهِ الَّـذِي خَلَقَهُـنَّ إِن كُنتُـمْ إِيَّـاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام: ٧٨] أي: طالعة. ﴿قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَـرِيءٌ مِّمَّـا تُشْـرِكُونَ. إِنِّـي وَجَّهْـتُ وَجْهِـيَ لِلَّـذِي فَطَـرَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفـاً وَمَـا أَنَـا مِـنَ الْمُشْرِكِينَ. وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَـافُ مَـا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الأنعام: ٧٨-٨٠] أي لَست أبالي في هذه الآلهة التي تعبدونها من دون اللّه فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل بل هي مربوبة مسخرة كـالكواكب ونحوها أو مصنوعة منحوتة منجورة.

والظاهر أن موعظته هـذه في الكواكـب لأهـل حـران فإنهم كـانوا يعبدونها، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج مـن السـرب لما كان صغيراً كما ذكـره ابـن إسـحاق [تاريخ الطبري: ٢٣٤/١] وغيره وهـو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولا سيما إذا خالفت الحق.

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام وهم الذين نـاظرهم في عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَـا اتَّخَذْتُـم مِّن دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً مَّـوَدَّةَ بَيْنِكُـمْ فِـي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا ثُـمَّ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ يَكْفُـرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]

قال في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيـمَ رُشْـدَهُ مِن قَبْـلُ وَكُنَّـا بِـهِ عَالِمِينَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَـا عَـاكِفُونَ. قَـالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ. قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ. قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. وَتَاللّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُـونَ. قَـالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُـمْ يُقَـالُ لَـهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْـتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَـا إِبْرَاهِيـمُ. قَـالَ بَـلْ فَعَلَـهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا فَاسْـأَلُوهُمْ إِن كَـانُوا يَنطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُـمَّ نُكِسُـوا عَلَـى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ. قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّـهِ مَـا لا يَنفَعُكُـمْ شَـيْئاً وَلا يَضُرُّكُـمْ. أُفٍّ لَّكُـمْ وَلِمَـا تَعْبُـدُونَ مِـن دُونِ اللّـهِ أَفَـلا تَعْقِلُونَ. قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَـا يَـا نَـارُ كُونِـي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَـرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠]

وقال في سورة الشعراء: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَـاكِفِينَ. قَـالَ هَـلْ يَسْـمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَـا آبَاءنَا كَذَلِـكَ يَفْعَلُـونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُـونَ. فَإِنَّهُمْ عَـدُوٌّ لِّـي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْـقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَـعُ أَن يَغْفِـرَ لِـي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ. رَبِّ هَبْ لِي حُكْمـاً وَأَلْحِقْنِـي بِالصَّـالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٣]

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ. أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللّهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّـي سَـقِيمٌ. فَتَوَلَّـوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ. فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُـمْ لا تَنطِقُـونَ. فَـرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ. فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ. قَالَ أَتَعْبُـدُونَ مَـا تَنْحِتُـونَ. وَاللّـهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ. قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ. فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٨٣-٩٨]

يخبر اللّه تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها فقال: ﴿مَا هَـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] أي معتكفون عندها وخاضعون لهـا قـالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] ما كان حجتهـم إلا صنيع الآبـاء والأجداد وما كانوا عليه من عبادة الأنداد.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤] كمـا قـال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ. أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللّهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧].

قال قتادة [تفسير الطبري: ٧٠/٢٢] فما ظنكـم بـه أنـه فـاعل بكـم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وقال لهم: ﴿قَـالَ هَـلْ يَسْـمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُـونَ. أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤] سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئا، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسـلافهم ومـن هـو مثلهـم في الضـلال مـن الآبـاء الجهال؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُـونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعـوه مـن الأصنام لأنـه تبرأ منها وتنقص بها فلو كانت تضر لضرته أو تؤثر لأثرت فيـه ﴿قَـالُوا أَجِئْتَنَـا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥] يقولون هذا الكلام الـذي تقولـه لنا وتنقص به آلهتنا وتطعن بسببه في آبائنا تقولـه محقـاً جـاداً فيـه أم لاعبـاً ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. وَتَاللّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ

الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]. يعني بل أقول لكم ذلك جاداً محقّاً وإنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ربكم ورب كل شيء فاطر السماوات والأرض الخالق لهما على غير مثال سبق فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم.

قيل: إنه قال هذا خفية في نفسه [تفسير الطبري: ١٧/٣٧].

وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال: إني سقيم كما قال تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.[الصافات: ٨٨-٨٩] عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة.

فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو في بلدهم ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾. أي: ذهب إليها مسرعاً مستخفياً فوجدها في بهو عظيم وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها ﴿فَقَالَ﴾ لها على سبيل التهكم والازدراء ﴿أَلا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣] لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدوم في يده كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً﴾ [الأنبياء: ٥٨] أي حطاماً؛ كسرها كلها ﴿إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

قيل: إنه وضع القدوم في يد الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار [تفسير الطبري: ١٧/٣٨، ٣٩].

فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩]

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] أي يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها فهو المقيم عليها والكاسر لها.

وعلى قول ابن مسعود أي يذكرهم بقوله ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] أي: في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه، وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه كما قال موسى عليه السلام لفرعون ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

فلما اجتمعوا وجاؤوا به كما ذكروا ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢- ٦٣].

قيل: معناه هو الحامل لي على تكسيرها وإنما عرض لهم في القول ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤] أي: فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا: إنكم أنتم الظالمون أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

قال السدي [تفسير الطبري: ١٧/٤٢]: أي ثم رجعوا إلى الفتنة، فعلى هذا يكون قوله إنكم أنتم الظالمون أي في عبادتها.

وقال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، أي: فاطرقوا ثم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] أي: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها! فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ. أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧] كما قال: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾[الصافات: ٩٤].

قال مجاهد [تفسير الطبري: ٢٢/٧٤]: يسرعون.

قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] أي كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وسواء كانت «ما» مصدرية أو بمعنى الذي، فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة، فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم وهذا باطل، فالآخر باطل للتحكم إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ. فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧-٩٨] عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الرب جل جلاله وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠] وذلك أنهم شرعوا يجمعوا حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم.

ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط.

ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له: هيزن وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة [تفسير الطبري: ١٧/٤٣].

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك [تفسير الطبري: ١٧/٤٥].

فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفا ثم ألقوه منه إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل كما روى البخاري [٤٥٦٣] عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد حين قيل له ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤] الآية.

وقال أبو يعلى حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي جعفر الرازي، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك».

وذكر بعض السلف [ذكر هذا وما يليه الطبري في تفسيره ١٧/٤٤، ٤٥] أن جبريل عرض عليه في الهواء فقال: ألك حاجة فقال: أما إليك فلا.

ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال: جعل ملك المطر

يقول: متى أومر فأرسل المطر، فكان أمر الله أسرع ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]

قال علي بن أبي طالب: أي لا تضريه.

وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال ﴿وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ لأذى إبراهيم بردها.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ولم يحرق منه سوى وثاقه.

وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شيء غيره.

وقال السدي: كان معه أيضاً ملك الظل. وصار إبراهيم عليه السلام في مثل الجونة حوله النار وهو في روضة خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ولا هو يخرج إليهم.

فعن أبي هريرة أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال: نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وروى ابن عساكر [تاريخ دمشق: ١٨٤/٦] عن عكرمة: أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته: يا بني إني أريد أن أجيء إليك فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك فقال: نعم! فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار. فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت.

وعن المنهال بن عمرو [تفسير الطبري: ٤٤/٧] أنه قال: أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً، وأنه قال: ما كنت أياماً ولياليَّ أطيب عيشاً إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها، صلوات الله وسلامه عليه، فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يغلبو فغُلبوا.

قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠] وفي الآية الأخرى ﴿الأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨] ففازوا بالخسارة والسفال، هذا في الدنيا.

وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً، بل هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ [الفرقان: ٦٦]

قال البخاري [٣٣٥٩]: حدثنا عبيد الله بن موسى أو ابن سلام عنه، أنبأنا ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير، عن سعيد بن المسيب، عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال: «كان ينفخ على إبراهيم».

ورواه مسلم [٢٢٣٧] من حديث ابن جريج.

وأخرجاه [خ (٣٣٠٧)، م (٢٢٣٧)] والنسائي [٣٨٦٨] وابن ماجه [٣٢٢٨] من حديث سفيان بن عيينة، كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة، به.

وقال أحمد [٢٠٠/٦]: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أمية أن نافعاً مولى ابن عمر، أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال: «اقتلوا الوزغ، فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم» قال: فكانت عائشة تقتلهن.

وقال أحمد [٢١٧/٦]: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن نافع، أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ. ثم حدثت عن رسول الله ﷺ «أن إبراهيم لما ألقي في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ، فإنه جعل ينفخها عليه».

تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وقال أحمد [٨٣/٦]: حدثنا عفان، حدثنا جرير، حدثنا نافع، حدثني السائبة مولاة للفاكه بن المغيرة قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً فقلت: يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به، فإن رسول الله ﷺ حدثنا «أن إبراهيم حين ألقي في النار لم تكن في الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ كان ينفخ عليه» فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله.

ورواه ابن ماجه [٣٢٣١] عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن محمد، عن جرير بن حازم، به.

١٨- مناظرة إبراهيم والنمرود

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية فأبطل الخليل عليه السلام دليله وبين كثرة جهله وقلة عقله وألجمه الحجة وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل واسمه: النمرود ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح؛ قاله مجاهد.

وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح ابن أرفخشد بن سام بن نوح؛ قال مجاهد وغيره.

وكان أحد ملوك الدنيا فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران؛ فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان. والكافران: النمرود ويختنصر.

وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغا وبغا وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا. ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الإمهال على إنكار الصانع فحاج إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق [تفسير الطبري: ٢٥/٣ - ٢٧]: يعني أنه إذا أتي بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض وهو انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الذي لابد من استنادها إلى وجوده ضرورة وعدم قيامها بنفسها ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة ثم إماتتها؛ ولهذا ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فقول هذا الملك الجاهل: أنا أحي وأميت، إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدة فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض

الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها. وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء. فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ولم يبق له كلام يجيب الخليل به بل امتنع وسكت، ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ٢٥٨]

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ولم يكن اجتمع به إلاّ يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وقد روى عبد الرزاق [تفسيره: ١٠٥/١، ١٠٦] عن معمر عن زيد بن أسلم: أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطي الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام. فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال: أشغل أهلي إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً فعملت منه طعاماً.

فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به؛ فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل.

قال زيد بن أسلم [تفسير الطبري: ٢٥/٣] وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه. ثم دعاه الثانية فأبى عليه. ثم الثالثة فأبى عليه. وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي.

فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاماً بالية ودخلت واحدة منها في منخر الملك فمكثت في منخريه أربعمائة سنة، عذبه الله تعالى بها فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها والله تعالى أعلم.

١٩- هجرة إبراهيم إلى الشام ومصر والأرض المقدسة

قال الله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦- ٢٧]

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ. وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١-٧٣].

لما هجر قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها ولم يكن له من الولد أحد بل معه ابن أخيه لوط ابن هاران بن آزر وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه خلعة من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه، والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام، وهي التي قال الله عز وجل: ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم [انظر هذه الرواية وما يليها من الروايات تفسير الطبري: ١٧/ ٤٥ ـ ٤٧].

وروى العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] مكة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]

وزعم كعب الأحبار أنها حران. وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط وأخوه ناحور وامرأة إبراهيم سارة وامرأة أخيه ملكا فنزلوا حران فمات تارح أبو إبراهيم بها.

وقال السدي: انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها على أن لا يغيرها.

رواه ابن جرير وهو غريب.

والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذي تنسب إليه حران ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلي [الروض الأنف: ٨٧/١، ٨٨] عن القتبي والنقاش فقد أبعد النجعة وقال بلا علم وادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً فليس له على ذلك دليل.

ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فإن الأنبياء لا تتعاطاه والله أعلم.

ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم والله أعلم.

وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة وضرب قبته شرقي بيت المقدس ثم انطلق مرتحلاً إلى اليمن وأنه كان جوع أي قحط وشدة وغلاء فارتحلوا إلى مصر، وذكروا قصة سارة مع ملكها وأن إبراهيم قال لها: قولي أنا أخته وذكروا إخدام الملك إياها هاجر. ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن، يعني أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيد وأموال.

وقد قال البخاري [٣٣٥٨]: حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتان منهن في ذات الله قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: هاهنا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها فقال: من هذه؟ فقال: أختي فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه